المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الحب وفنونه

فى
مائة قصيدة

الطبعة الثانية

ترجمة
حمادة إبراهيم

2/633

الحب وفنونه
فى نحو مائة وثلاثين قصيدة

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٦٣٣/ ٢
- الحب وفنونه (فى نحو مائة وثلاثين قصيدة)
- مجموعة من الشعراء
- حمادة إبراهيم
- الطبعة الثانية ٢٠٠٩

هذه ترجمة

قصائد مختارة من أعمال مجموعة من شعراء العالم

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦

فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

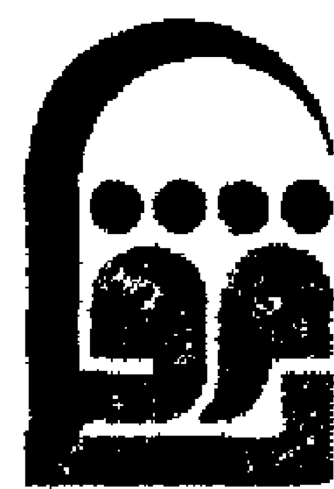
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526

Fax: 27354554

الحب وفنونه
فى نحو مائة وثلاثين قصيدة

تأليـــــــف: مجموعة من الشعراء
اختيار وترجمة: حمـــادة إبـراهيـــم



٢٠٠٩

رقم الإيداع: ١٠٩٢٦ / ٢٠٠٩
الترقيم الدولى: 0 - 320 - 479 - 977 - 978
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الفهرس

مفتتح

نسمع دوما فى أيامنا هذه أن عصور الشعر قد ولّت إلى غير رجعة ، وأن الحياة العصرية لا تتسع لقرض الشعر ولا لقراءته . والحقيقة فى رأينا هى عكس ذلك تماما . فنحن فى عصر أحوج ما تكون فيه للشعر لسببين : أن القصيدة مهما طالت فهى دون أى نوع من الفنون حجْما ، فلا تحتاج لفسحة من الوقت الذى أصبح عزيزا الآن . ثم لأن الشعر من أنجع الوسائل لإزالة الأدران والأكدار التى تخلفها الحياة العصرية بكل ما تنشره من أنواع التلوث .

ونعتقد أن القارئ العربى ، وبخاصة المولع بروائع الشعر العالمى ، والممارس للإبداع الشعرى بالذات، فى مسيس الحاجة لمثل هذا الكتاب ، فهو يقدم له ميزات جمة ، أولها : أنه يوفر عليه شهورا من الانقطاع للقراءة الجادة المرهقة فى دواوين الشعر الأجنبية والمراجع الكثيرة ، بصرف النظر عن إمكانية حصوله على هذا العدد من الكتب ؛ هذا مع افتراض إجادته للغات التى صدرت بها هذه الكتب .

ثم إن هذا الكتاب يوفر على القارئ مشقة الاختيار الصعب ، من بين مئات الكتب ، التى تخرجها المطابع ، وتكتظ بها المكتبات فى العالم .

كذلك ، فإن الكتاب لا يقتصر على ترجمة القصائد المختارة ، وإنما يرفقها بتحليل نقدى ، وآراء بعض النقاد ، ثم تصنيفها وتوزيعها على فنون الحب المختلفة . وإذا كانت هذه القصائد تنتمى إلى عصور مختلفة، ومذاهب فنية متباينة، فإن كلا منها تمثل تجربة شعرية فريدة ، وفلسفة ذاتية للشاعر .

ومع عمق هذه التجارب ، والقراءات والفلسفات ، فليس هناك التزام معين من قبل القارئ فى الأخذ برأى الشاعر ، من ناحية ، ولا بما ورد فى التعليقات على القصائد من ناحية أخرى . فهى ليست سوى اجتهاد شخصى لا ينقض غيره من الاجتهادات ، فكل قارئ له كل الحرية فى التلقى والإدراك والتأويل ، حسب ما توافر له من ثقافة وعقيدة وتربية وذوق .

أما عن موضوع الحب الذى يدور حوله الكتاب ، فنحن فى هذا العصر الذى كتب علينا أن نعيشه ، وبعد الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والطبيعية والسريالية والعبثية واللامعقول ، ماذا يمكن أن نطلق على هذا العصر إلا أنه عصر المعارضة التى تحولت إلى العنف والإرهاب .

كل شىء فى هذا العصر ضد الحب . نحن فى عصر الحب الضد ، فأمام العنف من ناحية، وطغيان المادة من ناحية أخرى ، فقد الإنسان إنسانيته ، وأصبحت العلاقة التى تجمع بين الناس هى البغض والكراهية ، بحيث أصبح الحديث عن عاطفة الحب أمراً يثير السخرية ، بل ويستفز المشاعر . بل إن الراصد لمفردات الأحاديث اليومية بين

الناس ووسائل الإعلام ، يكاد لا يصادف شيئا من مصطلحات الحب ، مثل الود والرحمة والعطف والشفقة والشهامة والنبل والشرف ، التى اختفت تقريبا من قاموسنا اللغوى .

ومع ذلك ، وهى مفارقة غريبة ، فإن الحب موجود . ولكننا لا نراه ، وهو لا يستطيع أن يظهر لنا ، لأنه مطمور تحت وابل الكراهية بكل مصطلحاتها من بغض وحقد وأنانية وعدوانية ، من ناحية ، وأكداس المادة الطاغية من ناحية أخرى ، بحيث إنه يكاد أن يختنق ويغرق ، وأن يلفظ أنفاسه الأخيرة .

فهل نتعاون فى إنقاذه ؟ ففى إنقاذه إنقاذ للبشرية وإحياء لها . فالله تعالى حينما خلق آدم ، ثم حواء ، ربط بينهما بالحب (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) . فالحب هو أول العواطف التى بثها الله فى الإنسان . صحيح أن قابيل لم يلبث أن اعتدى على أخيه وقتله - كان هذا باسم الحب أيضًا - ولكنه الحب المذموم ، الحب النزوة ، الأنانية ، فالحب فنون .

فى كل القصائد التى يضمها هذا الكتاب ، وهى تربو على المائة ، مظهر أو أكثر من مظاهر الحب . قد يكون ظاهراً ، ولكنه فى أغلب الأحيان يحتاج إلى من يكشف عنه ويجلوه . وفى ذلك متعة وفائدة معًا .

الشعر

تجمع المعاجم اللغوية والأدبية(*) على أن كلمة "شعر" مأخوذة من الكلمة اليونانية poiêsis ومعناها فعل الإبداع أو عملية الإبداع . ومنذ العصور القديمة ، وهذه الكلمة تعنى الإبداع الأدبى بصفة عامة . وكان (أرسطو) فى كتابه الشهير (Art poétique) ، الذى شاعت ترجمته تحت عنوان " فن الشعر " ، يعارض بين الشعر من ناحية ، والتاريخ من ناحية أخرى (التاريخ هنا بمعنى الكتابة غير الأدبية ، التى تعتمد على الواقع أو التاريخ، بمعنى "السالف " أو " ما سلف " ، أى ما حدث ووقع بالفعل) . ويرى (أرسطو) أن الشعر هو إبداع بصفة أساسية . بحكم أنه لا يستقى مادته من الواقع المحسوس أو الملموس أو "السالف" كما قلنا ، وإنما من الخيال أو الخيالى أو المتخيَّل ، بشرط واحد ، وهو أن يكون هذا الخيال ممكن الحدوث أو يشاكل الواقع .

وكان الشعر ، بهذا المفهوم ، فى العصور القديمة ينقسم إلى ثلاثة أنواع أو أغراض : الملحمى ، والغنائى ، والدرامى ؛ وكانت المأساة (التراجيديا) والملهاة (الكرسيديا) تتضمنان أجزاء غنائية يؤديها الكورس .

(*) "لاروس" و "روبير" و "بوردا" وغيرها .

وباختلافه ، على هذا النحو ، عن الكتابة التاريخية والسياسية والخطابية والفلسفية والعلمية ، تميز الشعر بخصوصية لغته المختلفة . حتى إن (هوميروس) كان يستعمل لغة " نوعية " ، أدبية بحتة . وتنفرد اللغة الشعرية باستعمالها للتراكيب أو الأبنية الصوتية والموسيقية والإيقاعية الخاصة باللغة ؛ فالشعر قبل كل شيء " لغة موزونة " أو إيقاعية . وهذا النظام الإيقاعى ، حسب طبيعة كل لغة ، يقودنا إلى نُظم العروض ، وهى تختلف من لغة إلى أخرى .

ومن الجدير بالذكر ، أنه حتى فى حالة تخلّص الشعر من القواعد التقليدية الخاصة بالعروض ، وبالذات القافية ، كما هى الحال عند عدد كبير من شعراء القرن العشرين الذين يكتبون " قصيدة النثر " و"القصيدة المنثورة" ، فإن ذلك لا يلغى أسس العروض ، وإنما أصبحت هذه الأسس تتواءم مع متطلبات الإلهام الشعرى ، ليس فى إطار الشعر بعامة ، وإنما فى إطار " القصيدة " نفسها ، باعتبارها وحدة تعبير مستقلة . ومن المهم بمكان أن نشير إلى أن الشعر يرتبط بشكل عام بالموسيقى برباط وثيق ، وأن هذا الارتباط هو الذى يحقق للشعر غنائيته التى لا يكون شعراً إلا بها .

وهكذا أصبحت اللغة الشعرية هى الأسلوب النوعى للكتابة الأدبية بشتى ألوانها . وهذا سو الذى يفسّر أن الأدب فى العصور الوسطى ، بكل أنواعه ، كان يستعمل أشكال التعبير الشعرية ، أى كان يكتب نظماً . وتلك كانت حال الأنواع الأدبية الثلاثة الكبرى فى فرنسا على سبيل المثال ، وهى الملحمة (وأشهرها ملحمة رولاندو) ، ثم الرواية ، سواء

البرجوازية منها أو الأرستقراطية ، ثم الشعر الغنائى الخاص بجماعة التروبادور والتروفير. ومع الاتجاه نحو الواقعية ، اقتصر التعبير الشعرى على هذا النوع الأخير ، أى الشعر الغنائى ، فى حين أصبحت الرواية والقصة تكتبان نثرا .

وقد كان من نتيجة المبالغة فى الاستمساك بالشكل والقواعد فى الشعر ، أن ثار عليها فى القرن السادس عشر شعراء جماعة (البليّاد) المشهورة بزعامة (دى بيلليه) ثم (رونسار) . بعد ذلك شهد الشعر رواجًا عظيما فى العصر الباروكى ، حيث جمع الشعر بين مختلف أشكال التخيل ، من فانتازيا وأحلام وعنف وسرف روحانى . وقد ساد هذا الأسلوب الباروكى فى مجال المسرح فى أعمال (جارنييه) و (روترو) حتى أوائل مسرحيات (كورنيىْ) .

وبلغ الشعر الدرامى فى القرن السابع عشر قمة ازدهاره بفضل (روترو) و (كورنيى) ثم (راسين) ، حيث تضافرت الشاعرية مع الدرامية فى وحدة المسرحية التراجيدية . ولم يعد الشعر مجرد شكل أدبى . فالتراجيديا نفسها شاعرية فى جوهرها ، وبحكم طبيعتها ، من خلال الأحداث ومن خلال الشخصيات ، حتى إن كورنيىْ كان يسميها (قصيدة درامية) . كذلك كان القرن السابع عشر هو العصر الذى شهد الحكايات الخرافية التى كتبها (لافونتين) أعظم من جمع بين سمات الكلاسيكية وحرية الشاعر المبدع .

على العكس من ذلك ، يمثل القرن الثامن عشر الأزمة الكبرى التى تعرض لها الشعر . بل لقد بدأ فلاسفة ذلك القرن وعلماؤه يشككون

فى شرعية الشعر . واقتصر التعبير الشعرى على الدور الزخرفى ، كما كانت الحال عند (فولتير) الذى ظل مع ذلك يكتب التراجيديات شعراً ، ولكن شتّان بينها وبين تراجيديات كورنييْ وراسين . وكانت أهم ظاهرة شعرية فى القرن الثامن عشر على الإطلاق تتمركز حول الشاعر الشاب الذى اغتالته السياسة وهو فى زهرة شبابه ، ونقصد به (أندريه شينييه) الذى يعدّ ، فى الوقت نفسه ، شاعر الكلاسيكية الجديدة ، ورائد الشعر الفرنسى الحديث ، والأب الشرعى للرومانسية . حيث جمع شعره بين محورين مختلفين : المحور الإغريقى القديم والمحور الحديث . حول المحور الأول تدور مراثيه الرائعة ، وبخاصة قصيدة الفتاة الطارونتية وهى ضمن القصائد المختارة فى هذا الكتاب . أما المحور الثانى ، فقد حاول الشاعر أن يقدم لنا من خلاله ملحمة أيديولوجية هائلة ، لم يسعفه العمر لأن ينجز منها إلا بعض الأجزاء الخاصة بالإله الإغريقى "هيرمس" و " أمريكا " التى كانت قد اكتشفت حديثا .

وإذا دخلنا العصر الذهبى للشعر ، وهو الرومانسية ، وجدنا (الفونس دى لامرتين) يفتتح هذه المدرسة بديوانه الشهير " التأملات " عام ١٨٢٠ . وكانت الغنائية الذاتية هى السمة الغالبة على الرومانسية فى أوائل عهدها ، كما يتجلى ذلك فى قصائد كل من (لامارتين) و (هوجو) و (ألفريد دى فينيى) . كما حاول الرومانسيون أيضا أن يجددوا النوع الملحمى ، بما يتواءم مع روح العصر . فكتب (ألفريد دى فينيى) " إليلووا" ، وكتب (الفونس دى لامرتين) " جوسلان " .

لكن المحاولتين توقفتا فى منتصف الطريق . الشاعر الرومانسى الوحيد الذى كتب ملحمة كاملة هو (فيكتور هوجو) بثلاثيته : "أسطورة القرون" ،

التى عبر من خلالها عن الصراع الأدبى الأزلى بين الخير والشر ، وسقوط الإنسان ونهوضه من جديد .

وسرعان ما بدأ الشعور بالسأم والملل من الغنائية الذاتية ، التى أسرفت فى عرض الخصوصيات والسرائر . وأريد للشعر أن يخرج من الدائرة المغلقة على نفس الشاعر ، إلى الاهتمام بما حوله ومن حوله . وبدأ الشعراء يهتمون بقضية الشكل والمنظور ، التى بلغت قمتها فى موجة " الفن للفن " . وتجلى عند (تيوفيل جوتييه) التواصل بين الرومانسية وشعر المنظور . ونظم (شارل بودلير) أروع قصائده التى جمعها فى ديوانه الشهير "أزهار الشر" . وشهدت الفترة نفسها انتصار موجة " البارناسية " التى جمعت فى مزيج فنى رائع بين جماليات " الفن للفن" المجرد ، وبين الموضوعية المحسوسة، وليدة المذهب الوضعى الذى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، بدءًا من (لوكونت دى ليل) حتى (جوزيه ماريا دى إيريديا) ومرورًا بكل من (سوللى برودوم) (حيث الربط بين الشعر والعلم) ، و (فرنسوا كوبيه) (حيث الربط بين الشعر والحياة اليومية). وسنرى كيف أن بدايات كل من (فيرلين) و (ماللارميه) كانت فى هذه المدرسة البارناسية ، حيث نشرا أولى قصائدهما فى جريدة " البارناس المعاصر" . وقد تميز الشعر البارناسى بفن التصوير الذى يعتمد على الدقة المتناهية فى الاستمساك بالكمال الشكلى للقصيدة .

ولاشك أن هذا التوجه الصارم فى المغالاة بالاهتمام بالشكل قد نال من روحانية الشعر وتلقائيته . كذلك فإن تأثر الشعر بالمذهب

الوضعي السائد نال من شرعية الشعر ، كما حدث من قبل بسبب عقلانية القرن الثامن عشر .

من ناحية أخرى كانت الرومانسية ، في أعمق صورها ، على نحو ما هي في مفهوم (جيرار دي نيرفال) على سبيل المثال ، قد اعتبرت الشعر الطريق الأمثل للولوج إلى العالم الأسمى، المقصور على الخاصة ، والذي أطلق عليه (بودلير) فيما بعد "ما فوق الطبيعية" Surnaturalisme . كما تحرر الشعر من شرط القافية ، وظهرت القصيدة المنثورة . وكان التحول الحاسم في تاريخ الشعر بظهور ديوان " أزهار الشر " وديوان "قصائد منثورة " ، وكلاهما لشارل بودلير . ولم تلبث الحركة " الفوق طبيعية " أن بلغت تمامها وكمالها الفني في الحركة الرمزية التي فجرها روادها الأربعة : (فيرلين) و (رامبو) و (لوتريامون) و (مالارميه) .

كانت هذه الحركة الفوق طبيعية هي التي أبدعت روائع الشعر الفرنسي في الربع الأول من القرن العشرين ، بفضل عدد من الشعراء المجيدين ، على رأسهم (شارل بيجي) و (بول كلوديل) و (بول فاليري) .

هذا الإبداع المتمثل في هذه القمم الشعرية ، كان يمثل من ناحية أخرى نوعًا من الطريق المسدود . فمع هذه الأعمال العظمى ، بلغ الشعر نقطة النهاية التي لا يستطيع أن يتجاوزها . فكان على جيل الشعراء الجدد الذين ظهروا في الثمانينيات من القرن التاسع عشر ، وقد أدركوا هذه الحقيقة تماما ، أن يلجأوا إلى استلهام " روح جديدة " على حد تعبير (أبوللينير) ، وبدأت مغامرة الشعر المعاصر الكبرى ، في إطار أزمة عميقة تتعلق باللغة الشعرية ذاتها ، التي بات من

الضرورى تجديدها ؛ فأصبحت التجربة الشعرية فى المقام الأول تجربة فى اللغة. وراح (أبوللينير) يتردد بين الغنائية وبين استكشاف لغة جديدة ، كما فعل (سوندرار) وحاول الكشف عن أسرار هذه الحداثة التى كان (بودلير) قد تنبأ بما تدخره من مفاجآت . وسار الشعر فى طريق القطيعة مع اللغة ، تلك التجارب التى تجلت فى بادئ الأمر ، فى الحركة الدادية السلبية ، ثم فى صورتها الإيجابية المتمثلة فى الحركة السريالية ، وذلك من خلال اللجوء إلى الوساطة الروحية والكتابة التلقائية وصور الأوهام والأشباح التى تفرزها الأحلام والكوابيس وعالم اللاوعى . وهكذا خرج علينا فن شعرى جديد يستمد لغته من نفسه ، وهى السمة التى تطبع الشعر المعاصر بأسره، مع اختلاف موضوعاته وتوجهاته .

ولكن المشكلة ظلت تدور حول ابتداع نوع من الشعر يمكنه ، بعد القطيعة مع اللغة ، أن يتواءم مع إقامة عالم يكون الشعر فيه هو عماد وجوده ، وضمان هذا الوجود أياً كان جوهر مادته : تارة الصورة المتبدلة (سان جون بيرس) وتارة الرؤية الأسطورية والنبوئية (بيير إيمانويل) وتارة التجربة الصوفية (جان كلود رينار) وتارة الغموض الذى يكتنف الأشياء (فرنسيس بونج) أو الأشخاص (رينيه شار) . وتارة السعى الدائم والحثيث بحثاً عن هوية شخصية تتفلت أبداً (هنرى ميشو) .

وهكذا ، ومن خلال موجات متلاحقة ومتوالية من الأزمات ومن الازدهار ، وإيقاع دائم التجدد ، لم يكف الشعر الفرنسى ، منذ بداياته الأولى وحتى اليوم ، عن تأكيد تواصله واستمراريته .

* * *

القصائد

كان لابد من توزيع القصائد المختارة حسب خطة معينة ، فأردنا في البداية أن نقسمها حسب الموضوعات أو الأغراض التى تناولتها . وفعلا رتبناها فى تسعة أغراض : الإبداع ، الحب ، الأطفال، الطبيعة ، الغيبيّات أو الميتافيزيقيا ، المقاومة والحرية ، المنفى، الشيخوخة ثم الموت .

وراقنا فى هذا التصنيف أنه يبدأ بعملية الخلق أو الإبداع ، وينتهى بالموت ، كأى حياة عضوية ، كما ذكّرنا هذا التصنيف بالكوميديا الإلهية وحلقاتها التسع. ثم تبين أن الغرض الواحد قد يتفرع إلى عدة أغراض ، فالقصائد المدرجة تحت غرض الإبداع مثلا ، يمكن أن تنقسم بدورها إلى ثلاثة أغراض فرعية : توصيف الإبداع ، وتشمل القصائد التى تمثل " فن الشعر " عند عدد من الشعراء . ثم الشعراء أنفسهم ووصفهم الذاتى ، ثم القصائد التى تتحدث عن طبيعة الإبداع نفسه .

وكذلك بالنسبة لغرض الحب ، حيث يمكن تقسيمه إلى عدة فنون ، وبالمثل غرض الغيبيّات أو الميتافيزيقيا .

لذلك رجعنا عن مثل هذا التصنيف ، أولا لأنه قد لا يتفق مع ذوق القارئ ورؤيته الشخصية التى تختلف من قارئ لقارئ ، حسب ثقافة كل قارئ وبيئته وعقيدته ، وكذلك حسب الفترة الزمنية . فما يراه الشاعر غرضًا معينًا قد يراه الناقد غرضًا آخر ، ثم يراه القارئ غرضًا ثالثا ، وهلم جرا ، بقدر عدد القراء ، أو على الأقل طوائفهم وتوجهاتهم .

ومن حق القارئ علينا أيضا أن يقول : لماذا اخترت هذه القصائد بعينها ؟ أو لماذا فرضت علينا هذه القصائد دون غيرها ؟ أو هؤلاء الشعراء دون غيرهم ؟

وقد يتساءل بعض القراء : لماذا لم نحاول التخلص من هذه المشكلة بأن نفرد لكل غرض من أغراض الشعر كتابا . فنرد بأنه إذا كان هذا ممكنا بالنسبة لغرض مثل الحب ، لكثرة القصائد التى تندرج تحته ، فإن أغراضا أخرى ، مثل الشيخوخة أو الموت ، لا تحتمل كتابا يخصص لكل منها . ومن ثم فضلنا أن نقدم القصائد مرتبة ترتيبا زمنيا على الأقل ليتمكن القارئ ، من خلال المسيرة الشعرية عبر العصور ، من أن يلمس التطور الذى واكب هذه المسيرة .

ولكننا من فرط تأملنا للقصائد المختارة وجدنا أن معظمها يمكن أن يندرج تحت غرض واحد كبير هو الحب ، الذى يمكن بدوره أن يشتمل على أنواع أو فنون مختلفة مثل الحب العاطفى ، ثم حب الآخرين أو التضامن بين البشر، وحب الطبيعة والتعاطف معها من ناحية أخرى ، كما يشتمل على القصائد التى تتحدث عن حب الحرية والنضال من أجلها ومن أجل حياة أفضل . كما يضم هذا الغرض أيضا القصائد

التى تتحدث عن العطف على الضعفاء ومساعدة المحتاجين وإرشادهم (وفيها يبرز الدور الريادى للشعر والشعراء) . وأخيراً الحب الأسمى ويشتمل على القصائد التى تتحدث عن حب الله تعالى واللجوء إليه والخوف منه والاستعانة به وغير ذلك من العبادات التى يختص بها المولى عز وجل . وهكذا أصبحت جميع القصائد تندرج تحت غرض كبير هو الحب بفنونه العديدة : حب الخالق للمخلوق - حب المخلوق للخالق - الحب العاطفى كحالة - الحب العاطفى/حرمان - حب المعرفة - الحب/ إبداع - حب الحياة - حب الوطن - الحب / نزوة - الحب / تضامن - حب الأرحام والصداقة الزوجية .

يقودنا ذلك إلى تفصيل القول قليلا فى هذه الفنون المختلفة من الحب ، على الأقل ما يحتاج منها إلى توضيح .

صحيح أن الحب العاطفى (حب الرجل للمرأة أو العكس) هو الأكثر شيوعًا . فهو أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع لفظ الحب . غير أنه لا يمثل سوى نوع واحد أو فن واحد من فنون الحب الكثيرة . هناك نوع آخر يعد أول أنواع الحب وأسماها ، وهو حب الله للإنسان أو حب الخالق للمخلوق . وهذا الحب الإلهى له مظاهر كثيرة لا نستطيع إحصاءها ، نذكر منها على سبيل المثال أن الله خلق الإنسان فى أحسن صورة ، وكرّمه على بقية المخلوقات التى سخرها جميعا لخدمته . وقبل أن يخلق الإنسان ، خلق السماوات والأرض والنبات والماء وغير ذلك من العناصر التى تعين الإنسان على الحياة فوق الأرض . ومن مظاهر حب الله أيضا للإنسان أنه لم يتركه يتخبط فى الحياة بلا دليل ، وإنما أرسل

إليه الرسل يرشدونه ، وأنزل معهم الكتب التي تتضمن كل ما يحتاجه الإنسان لمعرفة خالقه ، وما يراد منه عمله ؛ وما يراد منه تجنبه ، لكي يكون سعيدا في الدنيا والآخرة . وكما قلنا ، إن مظاهر حب الله للإنسان لا تحصى ولا تعد . غير أن ما ذكرناه من مظاهر يكفى للتدليل على هذا الحب ، ويكفي أيضا ليفرض على الإنسان أن يبادل الله حبا بحب . والحب المطلوب من الإنسان نحو خالقه يتمثل فى عبادته وحده ، وبالطريقة التى يريدها الله ويحددها فى كتبه ومن خلال رسله (وليس كما يروق للإنسان وإلا وقعنا فى شطحات الفلاسفة وتخاريف المتصوفة) .

وحب الخالق للمخلوق لم تتناوله قصيدة من القصائد المختارة بطريقة أساسية وبشكل مباشر ، بل جاء عرضا ونادراً جداً ، حيث جاء ذكر له فى ثلاث قصائد فقط ، لأن الله تعالى كفانا وكفى الشعراء مشقة التعبير عن هذا الحب ، بعد أن تولى هو بنفسه هذه المهمة من خلال كتبه ورسله وبطريقة يعجز عنها البشر .

يأتى بعد ذلك الحب الذى يربط بين الرجل والمرأة ، وهو معروف شائع بحيث لا يحتاج إلى تعريف . ولكن الذى نريد أن نشير إليه هنا هو أن معظم القصائد التى تعرضت لهذا النوع من الحب صورت جانب الحرمان من هذا الحب ، كما أن بعضها أورد حالات من الحب الذى أطلقنا عليه حب النزوة . وهو الحب غير المشروع .

كذلك ، هناك الحب الذى يقوم على رابطة الدم أو النسب وهو ما يعرف بصلة الرحم . وهناك أيضا الحب الذى يجمع بين الناس على

اختلافهم ، فى نوع من الأخوة فى البشرية ، أو التضامن الإنسانى . ويأتى فى شكل الدعوة للتحرر بشتى صوره والنضال ضد الظلم والقهر، والانتصار للضعفاء والمقهورين ، والتكافل الاجتماعى ، وغير ذلك من صور هذا الحب الكبير الذى لا يتقيد بنسب ولا وطن ولا دين . ولعلنا نعيش فى هذه الأيام صورة رائعة لهذا النوع من الحب فى هذه المظاهرات التى تجتاح العالم منددّة بالعدوان الأمريكى الإنجليزى الغاشم على شعب العراق الشقيق ، تلك المظاهرات التى يقوم بها أناس لا تربطهم بالعراقيين سوى الرابطة الوثقى التى تربط بين البشر على اختلاف أوطانهم ومعتقداتهم .

ومن بين القصائد المختارة ما يعبر عن حب الحياة بصفة عامة ، بالرغم مما نصادفه فيها من معاناة وعنت . وهناك أيضا من القصائد ما يدعو إلى حب المعرفة بشكل عام والسعى إلى تحصيل العلم والتعليم . ومن ذلك القصائد التى تعد من نوع فن الشعر التى يعرض فيها الشاعر مفهومه للفن الذى يمارسه وتجربته الإبداعية .

ولم تخل القصائد من الإشارة إلى حب الوطن مع ندرتها .

وهكذا يتضح أن الحب بفنونه المختلفة هو الإطار العام الذى تندرج فيه جميع القصائد التى يضمها هذا الكتاب . وإن دل ذلك على شىء فإنما يدل على قوة هذه العاطفة وشمولها، بل وعالميتها التى ألهمت هذا الكمّ الهائل من القصائد لشعراء من شتى بقاع الأرض .

ومما يجدر التنويه إليه أن بعض القصائد تتضمن أكثر من فن من فنون الحب . وعلى سبيل المثال قصيدة " ميلونكوليا " لفيكتور هوجو ، فهى بصفة أساسية تتناول موضوع التضامن مع الأطفال المقهورين . ولكن بالإضافة إلى ذلك نجد فيها إشارة إلى حب المخلوق للخالق وحب الخالق للمخلوق .

وأخيرًا كلمة عن الترجمة :

إذا كانت الترجمة فى حد ذاتها خيانة ، كما يقول الإيطاليون ، فإن ترجمة الشعر خيانة عظمى . فمهما بلغت ترجمة الشعر من الدقة ، فإن دقتها ، إذا توافرت ، ستنحصر فى المعانى والصور ، من دون الأصوات أو الموسيقى . والشعر ، على الأقل الشعر العظيم ، هو موسيقى قبل كل شىء . وهذا ما يؤكده غير واحد من شعرائنا فى هذا الكتاب . ونحن نتحدى أنفسنا أولا ، ثم نتحدى من تسول له نفسه أن يزعم أنه يستطيع أن يحافظ على الموسيقى التى تتضمنها قصيدة واحدة ، مثل قصيدة " أغنية الخريف " لصاحبها فيرلين رغم قصرها (٣٠ كلمة) . بل إن بعضهم ومنهم (ماللارميه) يرى أن تحديد المعنى يفسد المتعة أو يضيّع ثلاثة أرباعها .

(١)

حب الخالق للمخلوق

فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥)

ولد هوجو شاعراً إذا صح هذا التعبير . ففى سن الخامسة عشرة حصل على جائزة المجمع الفرنسى فى الشعر . ومنذ ذلك الوقت، كرس حياته للأدب والشعر بنوع خاص . وفى عام ١٨١٩ أى وهو لم يزل ابن السابعة عشرة ، نشر مع إخوته مجلة "المحافظ الأدبى".

وبعد ظهور مسرحية كرومويل عام ١٨٢٨ وديوان الشرقيات عام ١٨٢٨ ، أصبح هوجو زعيما للحركة الرومانسية ، وقد تأكدت هذه الزعامة بعد الحظر الذى فرضته الرقابة على مسرحية "ماريون ديلورم" Marion Délorme وبوجه خاص بعد معركة مسرحية هرنانى عام ١٨٣٠ .

ومما يجدر التنويه إليه ، أن فيكتور هوجو لم يقتصر على نظم الشعر الذى نشر منه عدة دواوين ، بل تطرق إلى فنون الأدب الأخرى. فنشر روايته الشهيرة Notre dame de Paris التى ترجمت إلى العربية بعنوان " أحدب نوتردام "، وأخرجت سينمائيا بالعنوان نفسه . ثم نشر هوجو مسرحية بعنوان " روى بلا " Ruy Blas .

وعلى الرغم من المحن الكثيرة التى تعرض لها فيكتور هوجو على مدى سنين حياته المديدة ، إلا أن عام ١٨٤٣ شهد أكبر حدث مؤسف

أصاب هذا الشاعر العظيم . ففى ذلك العام لقيت ابنته الكبرى الأثيرة إلى قلبه مصرعها فى حادث غرق فى نهر السين أثناء رحلة نهرية بصحبة زوجها . هذا الحادث الجلل الذى سيكون حجر زاوية فى حياة هوجو، دفع الشاعر المنكوب إلى البحث عن السلوى فى خضم الحياة السياسية فانبرى يهاجم المظالم الاجتماعية ويهاجم عقوبة الإعدام كما تصدى للدفا ع عن موقف بولندا السياسى .

وعلى الرغم مما كلفته السياسة من وقت ومتاعب ، إلا أن ذلك لم يمنع هوجو من الانصراف إلى الأدب والإنتاج الفكرى ، فنشر ديوانين بعنوان " التأملات " و "أسطورة القرون " ، وثلاث روايات : البؤساء ، وعمال البحر ، والرجل الضاحك .

لقد كتب هوجو فى جميع فنون الأدب تقريبا ، وتناول شتى الموضوعات والقضايا ، كما كتب الدراسات فى النقد فى سائر الفنون.

ميلونكوليا أو الكآبة

أين يذهب كل هؤلاء الصبيان
الذين لا يضحك منهم واحد ؟
هذه المخلوقات الوديعة المهمومة التي تنهكها الحمى ؟
وبناتُ الثامنة اللاتي نراهن وحدهن سائراتٍ في الطريق؟
إنهم جميعا يذهبون ، حيث يعملون في اليوم
خمس عشرة ساعة تحت الرحى ,
يذهبون ليقوموا إلى ما لا نهاية ، من الفجر إلى المساء ،
داخل سجنٍ واحد ، بعمل واحد .
جاثين تحت أسنان ماكينة كئيبة متجهمة
وحشٍ بغيض لا ندري ماذا يلوك في عتمة الظلام .
أبرياء في زنزانة ، ملائكة في جحيم .
يعملون في جو من الحديد ومن النحاس !
لا يكفون عن العمل ، لا يلعبون على الإطلاق !
ما أشحب وجوههم ، والرماد يكسو خدودهم .

لا يكاد يطلع النهار حتى يستولى عليهم الإرهاق والنصب .
لا يدركون للأسف ، شيئا مما كتب لهم .
كأنى بهم يخاطبون المولى عزّ وجل قائلين :
أبانا انظر ما يفعل بنا الكبار ، نحن الصغار !
آه ، أيتها السخرة الذميمة التى كُتبت على الصبيان !
أيها الكساح ، أيها العمل الذى يقطع إيقاعه الأنفاس .
الذى يناقض فطرة الله .
عمل عديم الإحساس ، يغتال الجمال على الجباه ،
ويوئد الفكرة فى الوجدان .
والطامة الكبرى ، أنه يجعل (أبوللو) ، إله الجمال ،
أحدب قميئا .
ويجعل (فولتير) ، فيلسوف الكلام ، أبله بليدا .
عمل كريه يقبض على سن الحداثة بين مخالبه .
يحقق الثراء للأغنياء، بينما يخلق للآخرين البؤس والشقاء.
يستعمل الصبى الحدث كما تستعمل الآلة الصماء .

(من ديوان «التأملات»)

(أطفال في سن الزهور ، يسخَّرون خمس عشرة ساعة في اليوم في العمل في مصانع لا يتوفر بها أدنى قدر من الشروط الصحية ولا الإنسانية ، مما يعرضهم للإصابة بالأمراض.

حينما يعترف الشاعر بأن تسخير الأطفال في الأعمال التي لا تناسبهم وفي ظروف غير إنسانية ، عمل يناقض فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فإنه يضع الأمور في نصابها، وإقرارٌ منه بأن فطرة الله تقضي بعكس ذلك تمامًا . ففطرة الله قائمة على حبه ، حب الخالق للمخلوقين ، ورحمته بهم ، والحض على هذه الرحمة ، وبخاصة مع الضعفاء ، ومنهم الأطفال .

وحينما يقبِّح الشاعر ما ينتج عنه نقض فطرة الله ، فإنه يزيد الصورة إيضاحًا ، فبضدها تتميز الأشياء) .

بيير إيمانويل (١٩١٦ - ١٩٨٤)

تفجرت شاعرية (بيير إيمانويل) على أثر قراءته لإحدى قصائد الشاعر الفرنسي الكبير (بول فاليرى) بعنوان (القدر اليافع) . كما تأثر بالألماني (هولديرلين) الذى أوحى إليه بديوان بعنوان (الشاعر المجنون) .

كما تأثر بالشعر الإنجليزى ، وبالذات كل من (هاردى) و (هوبكين) . كما قرأ التوراة واكتشف (بيير جان جوف) وبالذات ديوانه (عرق من الدم) الذى وضعه على الطريق .

من ناحية أخرى هيأ له (هنرى ميشو) فرصة التعاون مع (كراسات الجنوب) وجريدة (ميزور) التى كان يرأس تحريرها (جان بولان) .

أول ديوان (لبيير إيمانويل) بعنوان (المراثى) صدر عام ١٩٤٠ .

قام (إيمانويل) بدور كبير أثناء الاحتلال الألمانى لفرنسا فى مجال المقاومة ، كما نظم عدة قصائد كبرى من وحى الحرب وتفجّر قوى الشر والطغيان . يصدر إنتاج (إيمانويل) الشعرى عن مصدرين : الأول مصدر أورفى عبر عنه في ديوان (قبر أورفيه) والثانى مصدر دينى كاثوليكى عبر عنه فى ديوان (الشاعر ومسيحه) .

فى عام ١٩٦٨ ، فاز (بيير إيمانويل) بعضوية مجمع الخالدين أو مجمع اللغة الفرنسية .

الرياح

دع الكلام
يذهب مع الرياح .
لا تنفث فى الرياح ،
فلست أنت الذى يحملها .
الرياح تأتى من أبعد منك .
وما إن تمس كتفك
حتى تغدو بعيدة عنك .

لست أنت الذى يزرع الحبوب .
أفأنت الذى يزرعها فى البحار ؟
أفأنت الذى يزرعها فى السحاب ؟
أفأنت الذى يزرعها فى الرياح ؟
لا تقل : " أنا أكلمك ، فاسمعنى "
فهذا الآخر ليس حقلك .

الرياح تحرث حيث تشاء .
ربما فى الآخر ،
ربما فيك ،
فلا أنت ولا الآخر تعرفان
من ذا يتكلم ، ومن ذا يسمع الآخر .

فقط بينكما تسرى الرياح .

(من ديوان «وجه السحاب»)

(أفرأيتم ما تحرثون . ءأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون)

(الواقعة : ٦٣- ٦٤)

(وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)

(البقرة : ١٦٤)

الإنسان ما هو إلا أداة سخرها الله لتنفيذ مشيئته . فليس الإنسان هو الذى يزرع الحبوب : " أفأنت الذى يزرعها فى البحار ؟ أفأنت الذى يزرعها فى السحاب ؟ أفأنت الذى يزرعها فى الرياح ؟ "

إذن (الله خـالق كل شيء وهو علـى كل شيء وكيـل)

وكـمـا قلنا فى المفـتـتح ، قـبل أن يخلق الله الإنسان ، خلق لـه السماوات والأرض ومـا فيهن ، وسـخرها لخـدمتـه ، وهداه لاسـتـخدامهـا . وفى ذلك أبلغ تعبير عن حب الخالق للمخلوق) .

شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧)

ولد شارل بودلير فى باريس عام ١٨٢١ . رائد من رواد الرمزية ، كان أول من وجه الشعر الفرنسى نحو النزعة الروحانية .

مع أنه أسبق الدعاة إلى مذهب الفن للفن ، على شاكلة أستاذه "تيوفيل جوتييه"، رغم ما يفصل بينهما من فروق جوهرية .

يقول " بودلير " فى إحدى صفحاته النادرة المطوية :

" القصيدة العظيمة النبيلة الجديرة بأن تحمل هذا الاسم ، هى التى نظمها الشاعر فقط من أجل المتعة التى يجنيها من وراء نظمها ... لا أقول إن الشعر لا يهذّب الأخلاق ولا يسمو بالطباع ، ولا أزعم أن الغاية القصوى من ورائه ليست فى الارتقاء بالإنسان فوق المصالح الدنيا ، لو قلت ذلك لحق أن أوصم بالتناقض ومجافاة الصواب ، كل ما أقوله هو أن الشاعر إذا جعل غايته الأولى والأخيرة هدفًا أخلاقيًا ، فإنه يكون بذلك قد فلّ من قوة شاعريته ... إن الشعر لا يمكن بحال من الأحوال أن يتشبه بالعلم أو الأخلاق دون أن يقضى على نفسه بالهلاك أو الانحطاط ، فليست الحقيقة هى هدف الشاعر ، وإنما هدفه الشعر نفسه . أما إظهار الحقائق ، فوسائله كثيرة وتختلف عن الشعر ، والشعر لا يُسخَّر لها .

إن مبدأ الشعر هو بكل بساطة ، وبلا جدال ، التطلع الإنسانى إلى الجمال الأسمى...".

لم يكن " بودلير" شاعراً وحسب، بل تضمن إنتاجه الكثير من الآراء النقدية فى الأدب والفن ، وهذه الآراء كانت فى عصره تتسم بالجرأة والغرابة ، إلا أن الأيام أثبتت صحة الغالبية العظمى منها ، بحيث يستحق " بودلير " أن يشغل مكانة مرموقة بين نقاد العصر .

كذلك لا ينبغى أن نغفل إنتاج "بودلير " فى مجال القصة ، كما ينبغى الإشادة بترجمته لبعض حكايات الكاتب الإنجليزى " إدجار آلان بو " بعد أن تبين له سوء الترجمات السابقة لهذا الكاتب العظيم .

البركة

حينما خرج الشاعر إلى هذا العالم المنكود
بقرار من الإرادة العليّة
لوحت أمه بقبضتها نحو السماء
مذعورة تصب اللعنات متوسلة مستعطفة :

" آه ، لماذا لم أنجب سربا من الأفاعى
بدلا من أن أقوم على تغذية هذا المخلوق الشائه
ملعونة تلك الليلة التى حُفّت بالملذات العابرة
التى حملت فيها أحشائى كفارة ذنوبى .

ما دمتَ اخترتنى من بين جميع النساء
لأكون مبعث نفور زوجى المسكين
وما دمتُ لا أستطيع أن ألقى فى سعير النار
هذا الوحش الممسوخ كرسالة غرام

فإننى سأحوّل سخطك الذى تصبّه عليَ
إلى أداة حقدك اللعينة
وسأقطع دابر هذه الشجرة المأفونة
حتى لا تنمو براعمها العفنة . "

وكذلك ابتلعت زبد الحقد الذى يعتمل فى نفسها
ودون أن تدرى سر المشيئة الإلهية
راحت بنفسها تعد فى قاع الجحيم
الحطب المخصص لإعدام الوليد .

ولكن الطفل المعقوق المنبت
راح يسكر من ضوء الشمس
فى كفالة ملك خفى
ويجد فى كل ما يأكل ويشرب
شراب الآلهة ورحيق العسل الأحمر

يلاعب الريح ويحادث السحاب -
ويسكر طربا وهو يشدو بالصليب .
أما الملاك الذى يرعاه فى طوافه
فكان يبكى إذ يراه سعيدا كطائر فى غابة .

أما سائر من يكنّون له الحب فجعلوا يتربصون به ،
أو تغريهم دعته وهدوؤه ،
فيسعون إلى إثارته واستفزازه
ويمارسون عليه قسوة القلب .

وفى الخبز والنبيذ المخصص لغذائه ،
خلطوا الرماد والبصاق القذر ،
وفى تخابث ونفاق جعلوا يلقون ما تمس يده
ويعتذرون بأنهم اصطدموا به .

أما زوجته فجعلت تصيح فى الساحات قائلة :
" ما دام يحبنى حتى العبادة
فسأتبع معه طريق المعبودات القدامى ،
وأعيد طلاء جسدى بالذهب .

وسأنتشى بالطيب وبالبخور والمرّ ،
والركوع واللحوم والأنبذة ،
لأعرف هل بمقدورى وأنا أضحك ساخرة
أن أختلس من القلب الذى يهوانى
ما يقدم للآلهة من القرابين وآيات التكريم .

وما إن أملّ هذه المساخر الماجنة !
حتى أضع عليه يدى النحيلة القوية ،
حيث مخالبى الشبيهة بمخالب الرخ
تشق طريقها إلى قلبه ؛

ثم أنزع من أحشائه هذا القلب ،
كطائر غَضٍّ يرتعد ويرتجف ،
ولكى أشبع نهم وحشيتى .
ألقيه إليها أرضا فى ازدراء . "

نحو السماء ، حيث رأت عينه عرشا رائع المنظر ،
رفع الشاعر الخاشع ذراعيه المتضرعتين ،
والأنوار الهائلة ، أنوار قريحته المستنيرة
تحجب عنه مظهر الجموع الغاضبة :

" تباركت ، ربى ، تمنح الألم
دواءً إلهيا لآثامنا
وأنجح رحيق وأخلصه
يهيئ الأقوياء للملذات المقدسة !

أعرف أنك تدخر للشاعر مكانة
بين صفوف السعداء من زمرة القديسين ،
وأنك تدعوه إلى حفل الخلود
حفل العروش والفضائل والمنن .

أعرف أن الألم هو الشرف الوحيد
الذى لن تنال منه الأرض ولا الجحيم ،
وأنه لكى أضفر تاجى الروحانى
علىّ أن أُخضع سائر الأزمان وسائر الأكوان .

لكن الجواهر المفقودة فى " بالميرا " القديمة ،
والمعادن المجهولة ، ولآلئ البحار ،
التى تنظمها يداك ، قد لا تكفى
هذا التاج الجميل الباهر المضىء ؛

لأنه لن يصاغ إلا من صافى الضياء ،
المستخلص من الوهج القدسى للأشعة الأزلية ،

وما عيون البشر فى قمة سنائها وبهائها ،
بالنسبة له ، سوى مرايا معتمة متباكية ! "

(من ديوان «أزهار الشر»)

(تعرض القصيدة الوضع البائس للشاعر الذى لا تفهمه العامة والغوغاء ، بل وتسخر منه وتكيد له وتعمد إلى إيذائه. ويزداد وضعه سوءاً حينما ينكره أقرب الناس إليه . فأمه تلعنه وتبغضه ، وتتحسر لأنه ليس كبقية خلق الله . وزوجته تعذبه وتحاول أن تقتله . ولكن هذه اللعنة التى تصيبه من الغوغاء ، هى فى حقيقة الأمر بركة ، لأن الشاعر يتمتع بحب الخالق عز وجل ، الذى فضله على بقية خلقه بأن وهبه العبقرية وملكة الإبداع التى يختص بها أصفياءه .

كما أن الألم الذى يعتصر الشاعر يرفع من قدره ، ويميزه على جميع الخلائق . فهذا الألم هو الذى يختبره به الله ويمَحصه ، وهو المصدر الوحيد الحقيقى للإلهام الشعرى .

كمـا يؤكـد ذلك شـاعـر آخـر هـو (ألفـريد دى موسـيـه): " أجـمل الأشـعـار هى أكـثـرهـا حـزنا ويـأسًـا " . ويقـول أيضـا : " لا يصنـع الرجل العظيم إلا الألم العظيم". وهذا ما يؤكده (بودلير) نفسـه فى قصـيدة بعنوان " خلوة الشـاعر " حينما يجـعل من الألـم (الوجـيـعـة) رفـيقـة له يلاطـفـهـا ويهـدهدها ، ويعتـزل بها الناس فى خلوته ليمـارس الإبداع الشعرى) .

(٢)

حب المخلوق للخالق

ستيفان مالارميه (١٨٤٢ - ١٨٩٨)

توفيت أمه وهو ابن الرابعة . كان شغوفًا بقراءة الشعر منذ نعومة أظافره . صدمته أشعار (تيوفيل جوتييه) ، ثم ، وبنوع خاص ، ديوان (أزهار الشر) لـ (بودلير) . بعد موت أبيه ، تزوج من امرأة تكبره سنا فى عام ١٨٦٣ . عمل بتدريس اللغة الإنجليزية وتعرف ببعض الشعراء منهم (ميسترال) شاعر الجنوب . نشر بعض القصائد ، وبدأ يعمل فى نظم (الهيروديا د) وهى قصيدة مطولة حول شخصية (هيروديا د) أم (سالومى) . بعد نشر عشر قصائد فى جريدة (البرناس المعاصر) ذاعت شهرته . وربطته صداقة حميمة " جدا " بالشاعر (فيرلين) ، كما نشر ترجمة لقصائد (إدجار ألان بو) ظهرت النسخة الكاملة لها عام ١٨٨٨ . منذ عام ١٨٨٠ جعل من بيته صالونا أدبيا استقبل فيه بعض مشاهير الشعراء الذين كانوا ما يزالون مبتدئين ، ومنهم (بول فاليرى) و (أندريه جيد) . فى ١٨٩٤ استقال من التدريس وعكف على إتمام (الهيروديا د) ولم يلبث أن أصيب بنوبة حادة مات على أثرها وهو فى السادسة والخمسين .

كان (مالارميه) يعتقد أن مهمة الشاعر أشبه بوظيفة الكاهن المنقطع لعمله . وفى عام ١٨٦٦، اكتملت عنده صورة " الكتاب " الذى

يمثل العمل الوحيد الفريد والذى لم يكن كل ما كتبه (ماللارميه) سوى جزئيات منه . والمهم فى هذا " الكتاب " هو البنية المتحركة لتحقيق هدف شعرى معين ، مؤداه أن الكتاب الذى يستحق هذا الاسم لا تكون له بداية ولا نهاية ، ويمكن الحصول منه على كل التنويعات الممكنة. هذا بالإضافة إلى أن بنية الجمل والكلمات تسمح بكل الإبدالات .

مزمور القديس حنا

الشمس التى توهجت
بتوقفها الخارق
هبطت فى الحال
متأججة

شعرتُ كأن فى الفقر الظهرية
تنتشر ظلمات لجيّة
كلها فى رعدة واحدة
متوحدة

ورأسى قد برز
معزولاً
بفعل الطيرانات المنتصرة
لذلك المنجل
أشبه بانفصام ظاهر

بل تقهقر أو بتر
النزاعات القديمة
مع الجسد

فلتتمسّك وقد خدرها الصوم
فى قفزة شاردة
بمتابعة نظراتها الصافية

فى عليين
حيث البرودة الشمسية لا تدوم
فلتتجاوزنها جميعا
أيتها الجبال الجليدية

ولكن طبقا للتعميد
وقد أشرقت بالنور بذات المبدأ
الذى اصطفانى للشهادة
تنحنى للسلام .

(من ديوان «أشعار»)

(هل هناك حب من المخلوق للخالق أعظم من الشهادة فى سبيل الله ؟ وهل هناك حب من الخالق للمخلوق أعظم من أن يهيئ الله لعبده الصالح الشهادة فى سبيله ؟

هذا التحول البرزخى بين الحياة والموت لا يستطيع وصفه إلا من جرّبه فعلا ، أو شاعر كبير مثل (مالارميه) . يكفى التصوير الرائع حينما يشبّه انفصال الرأس عن الجسد بتخلص الجسد من صراعاته الدنيوية القديمة :

" ورأسى قد برز

معزولا

بفعل الطيرانات المنتصرة

لذلك المنجل

أشبه بانفصام ظاهر

بل تقهقرٍ أو بتر

النزاعات القديمة

مع الجسد "

ومن بدائع الصور فى هذه القصيدة نزوع الرأس إلى الارتفاع ، بمجرد فصله عن الجسد ، رمزًا للسمو والصعود بالشهادة .

هذا الحب من المخلوق للخالق (الشهادة) يقابله الله بحب أكبر : أولا، الشهيد لا يموت ، ثم هو عند ربه فى نعيم (ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله) .

بول فيرلين (١٨٤٤- ١٨٩٦)

ولد " بول مارى فيرلين " عام ١٨٤٤ من أسرة كاثوليكية . فى عام ١٨٦٥ نشر فى جريدة (الفن) بعض الدراسات حول بعض الشعراء ، ومنهم " شارل بودلير" الذى كان يعجب به . كما نشر قصيدتين من نظمه .

فى العام التالى ، نشر " فيرلين " فى جريدة (البارناس المعاصر) سبع قصائد ، كما نشر أول دواوينه بعنوان (قصائد ساتورنيه) تجلت فيها ملكاته وسماته الشعرية الشخصية التى ميزته عن غيره من الشعراء المحيطين به ، وبوجه خاص حساسيته المفرطة وتوجهه الحسى أو الشهوانى . كما برز فى هذا الديوان أيضا ميل الشاعر إلى الكآبة وما استحدثه من موسيقى إيحائية بعيدة عن القافية التقليدية .

زاد موت أبيه عام ١٨٦٥ وإحدى قريباته الأثيرات إلى قلبه ، من انخراطه في حياة التسيّب والعربدة . وراح يقضى معظم وقته فى مقاهى العاصمة، التي كان يلتقى فيها ببعض أصدقائه، ويفكر ويتأمل ويشرب . وقد كان من نتيجة إسرافه في السهر والشرب بالذات أن صار سريع الانفعال والغضب بحيث كان فى بعض ثورات السكر يعتدى ويحتد،

ليس فقط على أصدقائه ، وإنما على أمه أيضا ، مع أنه كان يكن لها حبًا شديدًا .

في عام ١٨٧١، بدأت بينه وبين رامبو علاقة حميمة من نوع غريب. هذه العلاقة كان لابد أن تنتهي بمأساة بدأت حينما أسرف "فيرلين" في الشرب، وأطلق رصاصتين من مسدسه على "رامبو" فأصابه بجروح طفيفة . وتم القبض على الجاني . وأودع السجن ليقضي فيه عامين . وحصلت زوجته على الانفصال عام ١٨٧٤ . وقد تأثر "فيرلين" لذلك تأثرا شديداً . ولم يفقد الأمل في العودة مرة أخرى إلى زوجته .

غيرت فترة السجن من توجهات الشاعر واهتماماته ، فراح يعبر في قصائده عن حالات جديدة ومشاعر مختلفة . لقد كتب في داخل السجن الكثير من القصائد التي وزعت على ثلاثة دواوين هي (حكمة) و (الماضي والماضي القريب) ثم (موازاة) . أما ديوان (حكمة) الذي ظل يكتبه من عام ١٨٧٣ حتى عام ١٨٨٠ فهو لا يضم إلا عدة قصائد كتبها في السجن . أما بقية الديوان فقد كتبها في فترة لاحقة . ومن الجدير بالذكر أن الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله قصائد الديوان هو تحول الشاعر من الكفر إلى الإيمان، في أسلوب سهل ميسور مؤثر ، وشعور فياض .

عند قدمى الرب(*)

يا إلهى ، لقد جرحتنى بالحب .
ولا يزال الجرح حيًا يدمى ,
يا إلهى ، لقد جرحتنى بالحب .

•

يا إلهى ، لقد أصابتنى رهبتك .
ولا تزال الإصابة تدوّى .
يا إلهى لقد أصابتنى رهبتك .

يا إلهى ، لقد عرفت أن كل شىء باطل تافه .
ومجدك استقر فى أعماقى .
يا إلهى ، لقد عرفت أن كل شىء باطل تافه .

(*) يسوع المسيح فى الأصل .

دع روحي تغرق في بحر نبيذك .
دع حياتي تذوب في خبز مائدتك .
دع روحي تغرق في بحر نبيذك .

هاك دمي الذي ما أرقتهُ .
هاك جسدي الذي لا يستحق العذاب .
هاك دمي الذي ما أرقتهُ .

هاك جبيني الذي ما علته إلا حمرة الخجل .
مدوسة لقدميك الشريفتين .
هاك جبيني الذي ما علته إلا حمرة الخجل .

(من أعظم القربات إلى الله تعالى، من أعظم آيات الحب من المخلوق للخالق ، التوبة النصوح التي نستشفها من أبيات (فيرلين) صاحب الحياة الصاخبة والمغامرات المجنونة . بعد أن استيقن أن "الكل باطل" . ومن فرحة الله تعالى بالعبد التائب لا يكتفي بأن يغفر له ذنوبه وحسب ، بل هو يحوّلها إلى حسنات : (فمن تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) .

وعلى شاكلة الشهادة ، يقدم الشاعر نفسه ، بالمعنى الحرفى ، يقدم نفسه عضواً عضواً، بل وكل عضو مرتين ، إمعانا فى التضحية ، قربانا للخالق ، راجيا صفحه وغفرانه .

نزوة من نزوات الصوفية ، حينما يزعمون الفناء فى الذات الإلهية ، فلا يجعلون فارقا بين المخلوق والخالق ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً .

هذا الحب بين المخلوق والخالق ، جاء نتيجة لحب الخالق للمخلوق الذى افتتح به الشاعر قصيدته " يا إلهى ، لقد جرحتنى بالحب " مرتين أيضا) .

بيير دى رونسار (١٥٢٤- ١٥٨٥)

بدأ رونسار ينظم الشعر وهو ابن الثانية عشرة، متأثرًا بجو الريف والحدائق المنبسطة المحيطة بالقصر الذى نشأ فيه وأمضى سنوات طفولته . ثم سنحت له فرصة السفر والتنقل، حيث عمل وصيفا لبعض الأميرات اللائى صحبنه فى رحلاتهن إلى ألمانيا. وبذلك جمع بين الموهبة وفوائد الأسفار .

أصيب وهو فى الخامسة عشر من عمره بالصمم ، ومن ثم اضطر للتخلى عن الحياة العسكرية التى كان يعد نفسه من أجلها . ولم يبق أمامه سوى الكنيسة ، فدخل فى سلك الإكليروس ، حيث تهيأت له ظروف حياة ميسَّرة أعفته من التفكير فى الماديات ، مما جعله يتفرغ لنظم الشعر . ثم التحق بكلية (كوكوريه) واختلف على دروس كل من (بابيف) و (دورا) مع زميله (دى بيلليه) . شارك رونسار فى تحرير البحث الشهير الذى كتبه (دى بيلليهِ) بعنوان (الدفاع عن اللغة الفرنسية وتمجيدها) ، ثم أصدر أول ديوان أصبح على أثره ، وفجأة ، رائد الشعر الحديث وأمير الشعراء ، مما أثار ضده حفيظة الحاقدين الذين تمكن من الانتصار على تحدياتهم فى كل مجال من مجالات الشعر .

من أشهر ما نظم (رونسار) . مجموعة من القصائد من وحى فتاة ريفية ، وأخرى من وحى فتاة تدعى (كاسّاندر) . فى تلك القصائد برع الشاعر فى وصف الغابات والأنهار والطيور . وبالرغم من احتفاء البلاط بالشاعر الجديد ، إلا أن (رونسار) لم يكتف بالمجد اليسير ، بل كان طموحه أكبر من ذلك . فبعد القصائد السهلة اليسيرة ، التى كان يرضى بها أذواق العامة ، بدأ (رونسار) ينظم الشعر فى القضايا الكونية والغيبية والأخلاقية ، من مثل الفضيلة والخلود والموت والكواكب والسماء .

تنقل رونسار من نجاح إلى نجاح ، ومن مجد إلى مجد ، حتى أصبح شاعر البلاط على عهد شارل التاسع . وقد أغراه تفوقه فى سائر أغراض الشعر إلى ولوج عالم الملاحم ، رغبة منه فى سدّ النقص فى الشعر الفرنسى الذى كان يخلو من هذا النوع الملحمى ، فكتب ملحمته المعروفة باسم " الفرنسيّاد " على نسق (الإنيياد) لصاحبها (فيرجيل) ، فكانت الفشل الوحيد الذى لحق بهذه العبقرية الشعرية المبدعة.

ومن الجدير بالذكر أنه حينما مات (رونسار) اشتركت أوربا كلها فى تشييد مقبرة عظيمة لهذا الشاعر الذى حقق لفرنسا وللغة الفرنسية مجداً منقطع النظير .

يوم شاعر

حينما أنهض من نومى فى الصباح ،
وقبل أن أعمل أى شىء أبتهل إلى المولى عز وجل
رب كل شىء ومليكه ،
متوسلا إليه فى خضوع ومذلة أن يفيض علىّ بنعمته
وأن ينقضى اليوم الوليد دون أن أغضبه .
ويصرف عنى كل بدعة ، وينجينى من كل زلل .
وأن يثبتنى على عقيدتى التى نشأت عليها .
دون أن أرتكب ما يسىء إلى أهل بلدى وعشيرتى .
ويجعلنى مراعيا للقوانين ومنفذا لمشيئة أميرى .
ثم أغادر الفراش ، وبعد أن أرتدى ثيابى ،
أشرع فى المطالعة ودراسة الفضيلة ،
مؤلفا ، وقارئا ، حسبما شاء لى القدر .
الذى رغبنى فى أعراس الشعر منذ طفولتى ،
وأعكف على ذلك أربع ساعات أو خمس دون انقطاع .

وحينما أشعر بذهنى أصابه الإرهاق من فرط المطالعة ،
أنصرف عن الكتب وأذهب إلى الكنيسة .
ولدى عودتى أخصص ساعة لمتعة نفسى .
بعدها أتناول فى الغداء وجبة معتدلة ،
وأحمد الله . أما بقية اليوم فأخصصه للهو البرىء .
وإذا كان عصر اليوم لطيفا صافى الجو ،
قصدت التنزه تارة فى سهل من السهول ،
وتارة فى إحدى القرى ، وتارة فى غابة من الغابات .
وتارة عبر المناطق المنعزلة التى يسودها السكون ،
فأنا أهوى الجنان التى توحى بالوحشة .
وأحب مد البحر الذى يشدو على الشطئان
هناك أتمازح مع واحد من أصدقائى ،
وفى أغلب الأوقات أغفو إلى النوم وسط الزهور
وفى ظل شجرة صفصاف ؛ أو أنشغل فى قراءة كتاب ،
أو أجتهد فى محاولة الكتابة تخليدا لذكراى ...
ولكن حينما تربد السماء وتتلبد بالغيوم
ولا يصبح فى الحقول ما يدعو للبهجة والأمان ،
أنشد صحبة أو ألعب الورق ،

أو أركب الخيل أو أمارس المصارعة أو المبارزة ،
ولا أنقل لبيتى من الصرامة أكثر مما ينبغى .
ثم حينما يرصع الليل الأسمر السماء بالنجوم
ويغلف السماء والأرض بالأوشحة
أرقد خالى البال ، رافعا بصرى
وثغرى وقلبى صوب قبة السماء
وأقيم صلاتى راجيا المولى عز وجل
أن يغفر لى بإحسانه وجوده .
وفيما تبقى ، فأنا لا أتمرد ولا أجهل
ولا أتعصب فى أمر عقيدتى بحد السيف .
هكذا حياتى ، وإذا كانت حياتك أفضل ،
لا أحسدك عليها ، فهنيئا لك بها .

(رد رونسار على السباب والغيبة)

(يبدأ الشاعر يومه بأداء حق الله عليه بالصلاة والابتهال إليه ، رب كل شيء ومليكه ، لكي يفيض عليه بنعمته ويجنبه معصيته . ويصرف عنه البدع ، ويحميه من الزلل ، ويثبته على الدين .

وبعد حب الله ، يأتي حب الآخرين ، أولى الأمر ثم الأقربين ، فيدعو الشاعر ربه أن يعينه على إرضائهم والإحسان إليهم . وهو في سبيل ذلك يستعين بالقراءة في موضوعات الفضيلة وبالذهاب إلى الكنيسة .

فالمؤمن يعبد الله وحده . وهذا دليل على إيمان الشاعر (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا) ثم (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) ويختصه بالدعاء والاستعانة والاستعاذة والخوف والفزع والنذر . لأن هذه الأمور كلها عبادات لا تكون إلا لله وحده .

نلاحظ قلة الإشارة إلى هذه الأمور العقائدية في الشعر بعد العصور الوسطى) .

فيكتور هوجو (١٨٠٢- ١٨٨٥)

(عن الشاعر ، انظر القصيدة فى "حب الخالق للمخلوق ")

ميلونكوليا أو الكآبة

أين يذهب كل هؤلاء الصبيان
الذين لا يضحك منهم واحد ؟
هذه المخلوقات الوديعة المهمومة التى تنهكها الحمى ؟
وبناتُ الثامنة اللاتى نراهن وحدهن سائراتٍ فى الطريق؟
إنهم جميعا يذهبون ، حيث يعملون فى اليوم
خمس عشرة ساعة تحت الرحى
يذهبون ليقوموا إلى مالا نهاية ، من الفجر إلى المساء ،
داخل سجنٍ واحد ، بعمل واحد .
جاثين تحت أسنان ماكينة كئيبة متجهمة
وحشٍ بغيض لا ندرى ماذا يلوك فى عتمة الظلام .
أبرياء فى زنزانة ، ملائكة فى جحيم :
يعملون فى جو من الحديد ومن النحاس .
لا يكفون عن العمل ، لا يلعبون على الإطلاق !
ما أشحب وجوههم ، والرماد يكسو خدودهم !

لا يكاد يطلع النهار حتى يستولى عليهم الإرهاق والنصب .
لا يدركون للأسف ، شيئا مما كتب لهم .
كأنى بهم يخاطبون المولى عزّ وجل قائلين :
أبانا انظر ما يفعل بنا الكبار ، نحن الصغار !
آه ، أيتها السخرة الذميمة التى كُتبت على الصبيان !
أيها الكساح ، أيها العمل الذى يقطع إيقاعه الأنفاس .
الذى يناقض فطرة الله .
عمل عديم الإحساس ، يغتال الجمال على الجباه ،
ويوئد الفكرة فى الوجدان .
والطامة الكبرى ، أنه يجعل (أبوللو) ، إله الجمال ،
أحدب قميئا .
ويجعل (فولتير) ، فيلسوف الكلام ، أبله بليدا .
عمل كريه يقبض على سن الحداثة بين مخالبه .
يحقق الثراء للأغنياء، بينما يخلق للآخرين البؤس والشقاء.
يستعمل الصبى الحدث كما تستعمل الآلة الصماء .

(من ديوان التأملات)

(حينما يفزع الأطفال المقهورون بالشكوى إلى الله عز وجل من السخرة التى فرضها عليهم الكبار ، فإنهم بالفطرة السليمة يفوضون أمرهم إلى الله. وهذا عين العقل . لأن الله وحده هو القادر على أن ينصفهم . لذلك لم يلجئوا إلى غيره ، ولم يتقدموا بالشكوى إلى غيره . وهذا اعتراف منهم بأن الشكوى تكون لله ، والاستعانة أيضا تكون به. وهذا من أعظم العبادات والقربات إلى الله :(وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) .

بول فيرلين (١٨٤٤- ١٨٩٦)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "عند قدمى الرب" فى "حب المخلوق للخالق ")

كنت روحانيا

كنت روحانيًا ولم أعد كذلك .
فالمرأة حوّلتنى بكامل كيانى ،
إلاّ من بقيّة احترام وتبجيل مطلقة ،
لذات العليّ التى تمردت عليها .
غير أن المرأة حوّلتنى بكامل كيانى !

كنت أصلى لله فى طفولتى
(اليوم أنت التى أخر لها ساجداً)
كان كلى أمل ،
وإحسان وخير وتقوى وورع .
لكننى اليوم أسجد عند قدميك !
المرأة فى شخصك باتت السيد الآمر ،
القادر القدير الجبار .

ولكن ما أغواني وما أشقاني
إذ بلغت هذا الحد من الشيطنة .

أين منّى أنت يا زمانًا ،
يا زمانًا كنت فيه روحانيا .

(من ديوان «أغانٍ من أجلها»)

(هذا التحول من حب إلى حب ، من حب الخالق إلى حب المرأة ، أو بمعنى أصح من عبادة الله إلى عبادة المرأة :

" كنت أصلى لله فى طفولتى
" اليوم أنت التى أخرّ لها ساجدا "

لم يتم إلا بالرغم من الشاعر . وهو نادم على ذلك ، خاصة وأنه ، نتيجة لهذا التحول فى الحب ، حدث تحول آخر فى صفات الشاعر الشخصية ، فمن صفات "الإحسان والخير والتقوى والورع" إلى "شقاء وشيطنة" . ويؤكد الشاعر ندمه هذا بالتعبير عن حنينه إلى روحانية الماضى ، إذ يقول ويكرر قائلا : "أين منى يا زمانا كنت فيه روحانيا" .

ولكن رحمة الله واسعة ، وحبه لمخلوقاته كفيل بقبول توبتهم وندمهم ، وبخاصة إذا كانت الصلة لم تنقطع تمامًا ، وأنه ما يزال لدى الشاعر " بقية احترام وتبجيل مطلقة لذات العليّ التى تمرد عليها " .

فلا ينبغى على الإنسان أن يقنط من رحمة الله . فالله يغفر جميع الذنوب ، إلا الشرك به تعالى : (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) .

هنرى ميشو (١٨٩٩- ١٩٨٤)

(هنرى ميشو) شاعر بلجيكى الأصل فرنسى الجنسية ، ولد فى عام ١٨٩٩ من أسرة برجوازية . عاش طفولة " مغلقة " ضاعف من وطأتها فترة قضاها فى مدرسة داخلية فقيرة . ثم التحق بمدارس اليسوعيين حتى عام ١٩١٤ . هذه الطفولة القاسية أثمرت نتيجتين مهمتين فيما يختص بالشاعر . روح التمرد من ناحية والقراءة الغزيرة من ناحية أخرى . قام برحلة إلى الإكوادور وكتب بعدها كتابا بعنوان "الذى كنته" Qui je fus بعد ذلك قام بعدة رحلات فى آسيا أثمرت كتابا آخر بعنوان "همجى فى آسيا" Un Barbare en Asie . ثم وضع كتابا ثالثا بعنوان " شخص اسمه بلوم" Un Certain Blume جعله صورة شخصية لنفسه، إنسانا غريبا فى العالم ، غريبا مع نفسه لا يجد راحة فى الحياة فى عصر كل شىء فيه يشن هجوما على الإنسان الذى لا يستطيع أن يحافظ على أصالته .

اكتشف (ميشو) أن الرحلات التى يقوم بها سعيا وراء الخروج من سجن نفسه لا تحقق له هذه الغاية ، فعكف على النظر فى ذاته وتأمل أعماقه لعله يجد فيها ما لم يجد فى الأسفار البعيدة . وأطلق لخياله العنان، فعثر على ما لم يعثر عليه فى البلاد النائية .

ومع كل فلم تكن أسفاره عديمة الفائدة ، فقد خرج من رحلاته إلى آسيا والهند بالذات بأفكار خصبة حول أعمال السحر أفادته فى تجربته الشعرية التى أصبحت بالنسبة له نوعا من الرقية أو التعويذة السحرية التى يسعى عن طريقها إلى التخلص مما يتلبّسه من شياطين.

وقد سجل فى هذه الفترة تجربته في كتاب بعنوان " فى بلد السحر والتعاويذ " .

بالإضافة إلى الشعر ، كان (ميشو) مصوراً متميزاً . وقد جعل من هذا الفن الجديد وسيلة أخرى للتعبير عن هواجسه وهمومه . بل لقد وجد فى التصوير " لغة جديدة " أيسر وأبلغ من لغة الكلام التى تعجز عن التعبير الصادق . لقد وجد فى فن التصوير ملاذا له من سجن الألفاظ ، فى محاولة سبر أغوار ذاته ، عكف ميشو من ناحية أخرى على التخلص من كافة القيود الخارجية التى تضغط على الإنسان . وقد دفعه ذلك إلى تعاطى المخدرات والعقاقير التى عبر عن آثارها فى مجموعة من الأعمال . وكما خذلته الأسفار كف (ميشو) عن العقاقير التى لم يتخذها ملاذا ومهربا من الواقع وإنما وسيلة من وسائله المختلفة للمعرفة والتجريب ، لم يلبث أن تأكد من آثارها الوهمية المحدودة .

المهرّج

يومًا ما :

يومًا ما ، وقد يكون قريبًا .

يومًا ما ، سأنتزع الهلب الذى يقيد سفينتى بعيدًا عن البحار .

بنوع من الشجاعة التى لابد منها ، لكى أصبح لا شىء ، ولا شىء إلاّ لا شىء

سأترك ما كان يبدو لى متصلا بى بعروة وثقى ، لا انفصام لها .

سأشطره ، سأقلبه ، سأحطمه ، سأجعله يتدحرج .

بضربة تقضى على ذليل حياتى ، وذليل تدبيراتى ، وتسلسلاتى من طور لآخر .

وما إن أُفَرِّغَ من دمّل شخصيتى المحترمة ، حتى أشرب من جديد الفضاء المُقيت

ثم ، بنوبات سخرية ، وانحطاط (ماذا عسى أن يكون الانحطاط ؟) بانفجارٍ بافتقار ،

بإبادةٍ كاملةٍ هُزْئيّةٍ ، تطهرنى ، سأطرد من ذاتى الشكل الذى ظلوا

دوما ، يعتقدون أنه وثيق الارتباط والامتزاج والالتحام ، بمن حولي وما حولي ، وبأشباهي وبأترابي المحترمين المبجلين .
بحيث لا يبقى مني إلا مذلة مهينة ، بقية رعب شديد .
أعود دون جميع المستويات ، إلى حقيقة قدْرى ، إلى قيمتي الدنيا الدنيّة التي لا أدرى أى غرور جعلني أفارقها وأفر منها .
أصير عدما فيما يتعلق بالتقدير وبالمكانة .
أضيع في مكان قصيّ (أو حتى بدون) ، بلا اسم وبلا هوية .
مهرجًا ، أُصرعُ وسط السخرية ، والقهقهة ، والمسخرة ،
ذلك المعنى النبيل ، الذى كونته لنفسي عن نفسي ، مناقضا لكل جلاء ووضوح .
حينئذ سأغوص ،
بلا حافظة ولا رخصة ، في أعمق أعماق التفكير المنفتح لكل الناس .
أنا ذاتي منفتح على قطر ندى لم يحدث ، لا يُعقل .
من فرط ما أنا لا شيء البتة .
أملسُ أجرد . . .
مضحك . . .

(من ديون «صور»)

(الجانب الذى يهمنا فى هذه القصيدة ، فيما يختص بعاطفة الحب ، نجده واضحا فى المحاولة الشريفة التى يريد بها الشاعر أن يتخلص من كل مظاهر الكذب والرياء والنفاق والخداع التى يراها لاصقة بشخصيته . وذلك على المستويين الظاهر والباطن . ومن ثم فالقصيدة عملية تطهير أو طهارة خارجية وداخلية . عملية إزالة للشوائب الخارجية والأدران الداخلية ، التى تطمس جوهر الإنسان وحقيقته الحقيقية .

صحيح أنه سيتبقى من الشاعر بعد هذا التطهر شىء ضئيل فى الحجم والوزن ، ولكنه سيضع الإنسان فى حجمه الحقيقى بعد أن يكون قد تخلص من كل زيف تكوّن بناء على متطلبات الآخرين ، ومن كل ورم خبيث تكوّن فوق أنسجة الجوهر الحقيقى ، بناءً على المواصفات الاجتماعية .

أليس فى ذلك بغية المؤمن الصادق مع ربه ، ومع نفسه ، ومع الآخرين ؟ حب للخالق بأن يكون المخلوق خالصا مخلصا له ، متخلصا من كل رياء ونفاق) .

بول فيرلين (١٨٤٤- ١٨٩٦)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " عند قدمى الرب " فى " حب المخلوق للخالق") .

السماء فوق السطح

السماء فوق السطح ،
زرقاء صافية ، ساكنة حانية .
شجرة ، فوق السطح ،
تداعب سعفها .

وجرس ، فى السماء التى نراها ،
يدق بهدوء .
وعصفور فوق الشجرة التى نراها
يبث شكواه .

يا إلهى ، يا إلهى ، الحياة هنا ،
بسيطة هادئة .
هذه الضوضاء الناعمة
تأتى من المدينة .

ماذا صنعت ، أنت يا من أنت هنا ،

تبكى بلا انقطاع ،

قل ، ماذا صنعت ، أنت يا من أنت هنا ،

بشبابك ؟

(من ديوان «الحكمة»)

(لولا البيت الأخير لتعذر علينا أن نجعل هذه القصيدة بين قصائدنا المختارة في موضوع الحب .

الحياة الصاخبة التى عاشها فيرلين قادته إلى السجن . وفى الحبس يتطلع من قضبان الزنزانة ، ويصف المنظر ، ثم يوجه لنفسه السؤال المفتاح :

" ماذا صنعت يا من أنت هنا ، بشبابك؟ "

ندم على ما ارتكب فى حق نفسه ؟ ولم لا؟ والندم شرط من شروط التوبة التى هى موضوع قصيدة الشاعر السابقة بعنوان (عند قدمى الرب) ، إذن فالقصيدتان تصدران عن شحنة عاطفية واحدة . طاقة شعرية واحدة . يؤكد ذلك أيضا

ترديد البيت الأخير الذى ينتظم فى القصيدة الأخرى من أولها إلى آخرها.

ولكن أ نّى لـ (فيرلين) أن يعرف الحديث الشريف الذى يُسأل فيه العبد يوم القيامة عن شبابه فيما أبلاه " ماذا صنعت أنت بشبابك ؟ ")

بول بورجيه (١٨٥٢ - ١٩٣٥)

بول بورجيه أستاذ جامعي ، من تلامذة الفيلسوف (تين) . عُرف أولا ناقداً من خلال سلسلة دراسات بعنوان (مقالات فى علم النفس) نشر بعض الروايات النفسية التى صار بعدها علماً فى الرواية الأخلاقية بفضل رواية (المريد) . ثم ، وبعد عودته إلى الدين ، صار علماً فى الرواية الدينية . تعد رواية (المريد) أشهر أعماله على الإطلاق . كما تعد رواية (شيطان الظهيرة) أكثر ما يميز إنتاجه الروائى فى المرحلة الثانية . وإذا كانت الأولى تعرض لقضية مسئولية الكاتب والتزامه نحو المجتمع ، فإن الثانية تتناول قضية الغواية أو الخطيئة التى يبتلى بها البطل فى مطلع حياته . وإذا كانت الروايتان من النوع الهادف المباشر ، فإن الكاتب يبرع فيها فى تحليل المشاعر الإنسانية والتصوير الدرامى النفسانى . ولا ينبغى أن نهمل الإشارة ، أمام الإنتاج الروائى الغزير لبورجيه ، إلى دوره فى مجال النقد وأهمية هذا الدور ، وبخاصة أنه هو الذى لفت أنظار النقاد والقراء إلى أعمال (ستندال) بعد وفاته .

وإذا كان (بول بورجيه) قد حقق شهرته فى عالم الأدب بوصفه ناقدا أدبيا ، ثم ، بصفة خاصة ، بنشر مجموعة من الروايات "الأخلاقية " أشهرها رواية " المريد " Le Disciple ، بالإضافة إلى عدد من

المسرحيات نذكر منها "المهاجر " و "الفراق" (١٩٠٨ - ١٩١٠م) ، إلا أنه بدأ حياته الأدبية شاعرا عاطفيا . فقد نشر وهو فى العشرين من عمره ديوانا بعنوان " على شاطئ البحر " ، وبعد عدة سنوات صدرت له ثلاثة دواوين أخرى هى بالترتيب الزمنى : " حياة قلقة " (١٨٧٥م) و " إيديل " (١٨٧٨م) ، ثم "اعترافات " (١٨٨٢م) .

ويضم ديوان " اعترافات " أروع ما نظم بول بورجيه . ولعل ذلك يرجع إلى أن الشاعر يعترف لنا فى هذا الديوان بكل صدق ومرارة بقصة حبه العاصف التى لم يكتب له فيها التوفيق . إن هذا الديوان يشتمل على مجموعة من القصائد تقطر يأسا وحزنا . تنتقل بين موضوعات كثيرة ، ينشد الشاعر خلالها النسيان فلا يلقى إلا العذاب والندم ، فيحاول أن يمحو المرأة من حياته لينقطع للروحانية والرهبانية .

فى عام ١٨٩٤ فاز الشاعر بعضوية مجمع الخالدين أو مجمع اللغة الفرنسية .

المـوت

إذا كان فى هذه الدنيا إنسان أغبطه من البشر ،
فهو الذى يعيش بلا تفكير فى الحياة ،
تاركا أيامه تمضى على هوى الأقدار ،
كالشجرة تنمو فى الحقول ، تترك رياح الشمال
تنثر أكوام أوراقها الذابلة ،
دون تفكير فى أن تتابع السنين على عجل
يزيد ويزيد من اقتراب اللحظة الحاسمة ،
لحظة الفناء الكلى ، الفناء المطلق .
حقا ، ما أسعده ، مادام لغز الحياة المعقدة
لا يثقل كاهله ويقض مضجعه ،
مادام لا ينظر بعينين مفزوعتين
إلى اللجتين السرمديتين
- تلك التى سبقت والتى سوف تلى العمر القصير
الذى يحياه -

ذلك الإنسان يستطيع أن يستمتع بساعته ،
فغدٌ ليس هناك ليفسد عليه يومه .
نعم غد ! لأن غدا ، حيث الحياة قصيرة قصيرة ،
عليه أن يفيق من حلمه الغريب .
غدا تغمض العينان .
غدا ، تهجر الفكرة هذا الجبين الشاحب .
غدا ، ما كناه يهوى فى الظلام
الذى ابتلع فيما مضى أحياء بلا عدد .
جحيم ؟ عدم ؟ نصب جديد ؟ خلود إلهى ؟
من ذا الذى يعرف سرك يا رحلة اللاعودة القاسية ؟

(من ديوان «اعترافات»)

(نستشف من هذه القصيدة خضوعًا مطلقًا من الشاعر لمشيئة الله عز وجل ، وسننه فى الحياة ، التى قضت بأن يكون الموت نهاية لكل مخلوق (كل نفس ذائقة الموت). والشاعر لا يقلق ولا يجزع من هذه الحقيقة ، بل هو مهيأ لها ، وهو يغبط الإنسان الذى يكون متهيئا لاستقبال الموت

فى أية لحظة ، دون تفكير فى أن تقدم السن يقرب من هذه النهاية المحتومة .

هذا القبول المطلق لمشيئة الله تعالى والتسليم بقضائه ، هو الإيمان الحقيقى ، بل هو الإسلام (إسلام الأمر لله) . ثم إن هذا الإسلام هو الذى يجعل الإنسان " يستمتع بساعته"، " ما دام لغز الحياة المعقدة لا يثقل كاهله ويقضّ مضجعه " ، " مادام لا ينظر بعينين مفزوعتين إلى اللّجة السرمدية التى تلى العمر " . ويقوى من إيمان هذا الإنسان وإسلامه أنه معترف بأنه لا يعلم الغيب إلا الله : "من ذا الذى يعرف سرك يا رحلة اللاعودة القاسية" ؟.

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

فى عام ١٨٦٥ ، نشر سوللى برودوم أول ديوان له بعنوان (أشعار وقصائد) . والحقيقة أن هذا الديوان الأول وضع صاحبه من أول وهلة فى مكانة متميزة بين شعراء عصره . إذ كشف عن شاعر متمكن ، أو بمعنى أصح عن أستاذ ، شاعر له سحر نادر وعميق . لم يغب عنه شىء من شمائل الإنسانية جمعاء . كشف الديوان عن طبيعة إنسانية تتمتع بقوة فائقة وعذوبة ورقة حساسية ، تربطها بالبشر جميعًا، وعلى اختلاف مشاربهم ، عرىً وثيقة لا تُعد ولا تحصى ، تفرح لفرحهم وتتألم لآلامهم .

فى تلك الفترة ، كان نفر من الشعراء الشبان الذين تكوّن منهم فيما بعد مجموعة شعراء البارناس ، قد عكفوا على نشر إنتاجهم فى الجريدة التى تحمل اسمهم

وكان " سوللى " ، الذى خصّه الناقد "سانت بوف " بمقال طويل ، ينأى بنفسه عن الانخراط فى المعارك الكلامية والمنافسات الشخصية التى كانت تحتدم بين زملائه الشعراء الذين كان يأخذ عليهم اهتمامهم الزائد بالعالم الخارجى للأشياء ، أو بالظواهر وقضايا الشكل. كان مزاج " سوللى " المنطوى على نفسه يجعله دائم التفكير فى قضايا

الإنسان الداخلية التى يطرحها عليه ضميره ووجدانه . لقد اختار "سوللى" أن يكون من شعراء الباطن .

ومن عام ١٨٦٦ وحتى عام ١٨٧٢ ، كان قد نشر تباعًا عدداً من الدواوين كانت بالترتيب (المحن ، مسوّدات إيطالية ، حالات العزلة ، الأقدار .) فى هذه الدواوين تأكدت سيطرة الشاعر على أدواته الفنية ، فى مزيج من الصفات القوية التى جمعت بين الفنان والفيلسوف ورجل الأخلاق .

ومن ثم كانت آيات التكريم التى اختص بها المسئولون الشاعر "سوللى برودوم" : فى عام ١٨٧٧ منحه المجمع الفرنسى جائزة فيليه Vilet عن مجموع إنتاجه .

وفى عام ١٨٨٢ ، تم انتخابه عضواً فى المجمع الفرنسى .

وفى عام ١٩٠١ حصل على جائزة نوبل . وبالمكافأة المالية التى خصصت لها ، أنشأ "سوللى " جائزة فى الشعر تخصص فى كل عام لنشر أول ديوان لشاعر يتم اختياره ، فى مسابقة تشرف عليها جمعية رجال الأدب .

العذاب الإلهي

من الحجر حتى الزهرة ، ومن الزهرة حتى الحيوان الأعجم ،
وحتى الإنسان ، في داخل كل كائن كان
في هذه الحياة الدنيا
غريزة تحثه على النظر إلى ما فوق رأسه
نحو الكائن الأعلى الذى لا يرقى إليه أبداً .

مُزقة من السماء تلمع في كل العيون ؛
كل كائن يرى فيها حصته ، لكن بقيته
يشعر بها في مكان آخر .
أما الذين لا يملكون في السماء سوى فرجة ضيقة
فإنهم ينجذبون لعيون الكائنات العليا بزرقتها الهائلة :

فالحصاة ، وهي أكثر عمى من النبات .
تودّ ، لو استطاعت الحركة ،
أن تتسلق حول الزنبقة

لتسعى وراء الظل على حافة الطريق الملتهب
وتدعوها إلهها ، لولا أنها خرساء ؛

والزهرة ، عساها تعبد عيون الفراشة
وتنفعل دون أن تقول لنفسها " أنا أحس " ،
ولعلها حين تمر الفراشة تتنهد وتحييها
وتصنع لها من عطرها بخوراً ؛

وحينما يحوم طفل صغير وسط الزهور ،
لا تجرؤ الفراشات أن تقبل عينيه
وحتى إذا أخلد للنوم .
فإنها تشعر أن تحت جفنيه الرقيقين
سماء غامضة عليها أن تحترمها وتقدسها ؛

ذلك هو الاحترام المقدس
الذى يوحى به الإنسان للحيوان
فالحيوانات لها إله لا يخفى عن الأنظار .
لذلك ، فمهما كان الاسم الذى نطلقه عليه ،
فإن عبادتها له هى أقدم عبادات أهل الأرض
فى هذه الدنيا .

(حالات الوحدة)

(غريزة السعى لمعرفة الخالق من أجل أداء حقه ، أى حبه ، أى عبادته، أليس هذا هو حب المخلوق للخالق ؟ حتى قبل نزول الشرائع السماوية ، أى قبل نزول الكتب وإرسال الرسل للتعليم ، كل كائن يتطلع إلى ما هو أرقى منه إعجابا وامتنانا يتدرج " نحو الكائن الأعلى الذى لا يرقى إليه أحد " خالق جميع المخلوقات .

الحجر (الجماد) يتطلع إلى الزهرة (النبات) ، والزهرة تتطلع إلى الفراشة (الحشرة)، والحشرة أو الحيوان يتطلع إلى الإنسان . وفى ذلك يكمن "أقدم عبادات أهل الأرض فى هذه الحياة الدنيا" : أقدم حب من المخلوق للخالق عز وجل) .

(٣)

الحب .. التضامن

جان دى لافونتين (١٦٢١ - ١٦٩٥)

اشتهر (لافونتين) بكتابة الخرافات التى استقاها فى معظمها عن الإغريقى (إيسوب) و (بيدبة) الفيلسوف الهندى . بالإضافة إلى (فيدر) و (هوراس) الرومانيين . وقد برع (لافونتين) فى تصوير الحياة الإنسانية وصراعاتها والنماذج البشرية وعيوبها ، من خلال تصويره للحيوانات . ومن الخطأ أن نعتقد أن الأسد مثلا عند (لافونتين) هو الملك، أو أن بقية الحيوانات هم رجال البلاط . لقد تجاوزت الخرافات هذه الحدود الزمانية والمكانية لتصبح عالمية ، بل كونية . إن كل إنسان أو حيوان فى خرافات (لافونتين) إنما يصورنا نحن ويتحدث إلينا نحن ، بأسلوب يفيض رقة وعذوبة وصفاء ووضوحًا ، جعل من الشاعر أكثر الكتّاب الكلاسيكيين كلاسيكية .

الشيخ وأبناؤه

حينما بلغ الأب الشيخ نهاية العمر ،

جمع أبناءه الثلاثة وقال لهم :

" خذوا هذه الحزمة من الرماح ،

وحاولوا تحطيمها . "

فأمسك بها الابن الأكبر ،

وبذل كل طاقته ، ولم ينجح .

فأعطاها للأقوى . وحاول الأصغر

ولكن دون فائدة .

باءت محاولتهم جميعا بالفشل .

ففي كل مرة تستعصي عليهم حزمة الرماح .

ولم ينكسر منها رمح واحد . -

هنا ، قال الأب الشيخ . " دعونى أفعل .

وانظروا كيف تصنع قوتى فى مثل هذه القضية "

وظنوا أنه يسخر ، وضحكوا ، ولكن خاب ظنهم .

لأن الأب الشيخ فك الحزمة وفرّق الرماح .
وراح يحطمها واحدا واحدا ، بلا أى عناء .
ثم التفت إلى الأبناء قائلا :
" أرأيتم نتيجة الوحدة والتضامن .
فكونوا متحدين يا أبنائى وليربط بينكم الحب ."
ولما أحس بقدوم أجله . قال لهم :
" أنا راحل إلى حيث يقيم آباؤنا .
فالوداع . عدونى بأن تعيشوا إخوة متحابين .
قدموا لى هذا الجميل وأنا أستعد للقاء الموت . "
وعاهدوه جميعا على ذلك ، وهم يبكون .

وشد على أيديهم ؛ وانتقل إلى الرفيق الأعلى .
بعد أن ترك لهم ميراثا عظيما ،
لكنه مليء بالقضايا والمشكلات ،
من دائنين ومدينين ، ودعاوى من الجيران .
فى البداية ، نجح الإخوة الثلاثة فى التغلب على الصعاب .
وجمعتهم المحبة ، وألف الدم بينهم ،
لكن المصلحة فرقت بينهم .
فقد تدخلت فى الميراث الأطماع ، من ناحية ،

والحسد والاستشارات القانونية من ناحية .
فانتهوا إلى قسمة الميراث ، وبدأت الخلافات
والمشاجرات . وأدانهم القضاء .
وانقض عليهم الدائنون والجيران .
هذا يستغل غلطة منهم ، وذلك ينتهز الخلاف .
واختلف الإخوة فيما بينهم . فهذا يريد المصالحة ،
وذاك لا يوافق عليها .
وفى النهاية ، فقدوا جميعا ميراثهم .
ثم ، وبعد فوات الأوان ، أرادوا الاستفادة
من فكرة الرماح الموحّدة ، والمحطمة واحدًا واحدًا .

(الخرافات ، الكتاب الرابع ، الخرافة الثامنة عشرة)

(التضامن قوة . هذا ما تريد أن تقوله الخرافة ، وما يكرره كثيرًا الشاعر من خلال عناوين خرافات أخرى له مثل (المزارع وأبنائه) . وكما أن التضامن قوة ، فإن الفرقة ضعف . وبذلك يستخدم الشاعر الشيء ونقيضه في إيضاح فكرته التي يلخصها على عادته في العبارة الختامية التي تقدم الدرس الأخلاقي المستفاد : "الاستفادة من فكرة الرماح الموحدة، والمحطمة واحدًا واحدًا") .

جاك بريفير (١٩٠٠ - ١٩٧٧)

لعب جاك بريفير دوراً كبيراً فى تكوين الوجدان الشعبى الفرنسى خلال العقود الأربعة التى سبقت وفاته فى عام ١٩٧٧ .

فقد استطاع بريفير أن يتسلل إلى وجدان الشعب بسبب قصائده التى يمكن أن نطلق عليها صفة السهل الممتنع .

لم يكن بريفير من شعراء البرج العاجى ، ولم يكن بمنأى عن مشكلات الناس وقضاياهم . بل وعلى مستوى اللغة كان يستعمل الأسلوب الدارج ولغة الحياة اليومية . ولعل هذا كان وراء إدراج قصائد بريفير ضمن المقررات الدراسية فى المدارس .

ومن ناحية أخرى ، شارك بريفير فى بعض الأفلام السينمائية المشهورة ، بأن وضع لها الحوارات والسيناريوهات . وزاد من انتشار بريفير وذيوع صيته بين جماهير الشعب الفرنسى ، أنه كتب بعض الأغانى لعدد من مشاهير المطربين الفرنسيين .

كل ذلك ، إن دل على شيء ، فإنما يدل على مدى تغلغل جاك بريفير فى ضمير الجماهير الفرنسية وبخاصة الطلاب والعمال . ولا يخفى على الناظر فى أشعار بريفير أنه يعكس من خلالها مشاعر

القلق التى كانت تنهش جيل ما بين الحربين العـــالميتين وجيـــل ثورة مايو ١٩٦٨ . إن السمة الكبرى لأشعار بريفير هى الاتصال المباشر والتعامل الحى مع واقع الناس، ذلك الواقع المطروح على بساط البحث والذى لا ينفك يتجدد أبداً .

أغنية الأطفال

أطفال الطبقة العاملة الظرفاء
أطفال أوبرفيلييه الظرفاء
تغوصون برءوسكم فى مياه البؤس المدهنة ،
التى تطفو فوقها قطع الفلين النتنة
المختلطة بالقطط الكبيرة النافقة
ولكن سبابكم يحميكم
وأنتم الفئة المميزة
فى عالم عدوانى لا يرحم
عالم أوبرفيلييه الحزين ، حى الطبقة العاملة الكادحة ،
الذى عمل فيه آباؤكم وأمهاتكم
بلا توقف بلا هواده
هربا من البؤس والشقاء
شقاء أوبرفيلييه
شقاء العالم أجمع

أطفال أوبرفيلييه الظرفاء
أطفال الطبقة العاملة الظرفاء
أطفال البؤس الظرفاء
أطفال أوبرفيلييه الظرفاء
هذه هى العطلة وهذا هو الصيف
ولكن شاطئ البحر
والريف والهواء الطلق بالنسبة لكم
هو تراب أوبرفيلييه ، حى الطبقة الكادحة
تلقون على أرض الطريق
بقطع النرد البائسة ، نرد النحس المشئوم
نرد الطفولة العاطلة ، نرد الطفولة المشردة
ومن ذا الذى يلومكم على ذلك
أطفال أوبرفيلييه الظرفاء
أطفال الطبقة العاملة الظرفاء
أطفال البؤس الظرفاء
أطفال أوبرفيلييه الظرفاء

(من ديوان «كلمات)

(إذا كان من أسباب شهرة (بريفير) تعاطفه وتضامنه مع الضعفاء والمساكين ، فهو هنا يتعاطف مع الفئة التى اجتمعت فيها كل عناصر الضعف والمسكنة : أطفال الأحياء الفقيرة ، أطفال الطبقة العاملة : " الذين يغوصون برءوسهم فى مياه البؤس المدهنة ، التى تطفو فوقها قطع الفلين النتنة المختلطة بالقطط الكبيرة النافقة " .

هل هناك أكثر بؤسا من ذلك ؟ هل هناك من هو أحق بالتعاطف والتضامن والحب ؟ ومع بشاعة الصورة، إلا أن الشاعر ، لأنه شاعر ، يجد أطفال البؤس ظرفاء . بل إن هذا الوصف يتكرر فى القصيدة إحدى عشرة مرة . كأنما ليمسح دمعتهم بهذه الملاطفة وهذه المجاملة . ولماذا لا يكونون بالفعل ظرفاء ؟ إن الشاعر ينظر بعين السماء . والله تعالى كما يقول الحديث الشريف : " لا ينظر إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم") .

فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥)

(عن الشاعر ، انظر القصيدة فى "حب الخالق للمخلوق ") .

ميلونكوليا أو الكآبة

أين يذهب كل هؤلاء الصبيان
الذين لا يضحك منهم واحد ؟
هذه المخلوقات الوديعة المهمومة التى تنهكها الحمى ؟
وبناتُ الثامنة اللاتى نراهن وحدهن سائراتٍ فى الطريق؟
إنهم جميعا يذهبون ، حيث يعملون فى اليوم
خمس عشرة ساعة تحت الرحى ،
يذهبون ليقوموا إلى مالا نهاية ، من الفجر إلى المساء ،
داخل سجنٍ واحد ، بعمل واحد .
جاثين تحت أسنان ماكينة كئيبة متجهمة
وحشٍ بغيض لا ندرى ماذا يلوك فى عتمة الظلام .
أبرياء فى زنزانة ، ملائكة فى جحيم .
يعملون فى جو من الحديد ومن النحاس .
لا يكفون عن العمل ، لا يلعبون على الإطلاق !
ما أشحب وجوههم ، والرماد يكسو خدودهم !

لا يكاد يطلع النهار حتى يستولى عليهم الإرهاق والنصب .
لا يدركون للأسف ، شيئا مما كتب لهم .
كأنى بهم يخاطبون المولى عزّ وجل قائلين :
أبانا انظر ما يفعل بنا الكبار ، نحن الصغار !
آه ، أيتها السخرة الذميمة التى كُتبت على الصبيان !
أيها الكساح ، أيها العمل الذى يقطع إقاعه الأنفاس .
الذى يناقض فطرة الله .
عمل عديم الإحساس ، يغتال الجمال على الجباه ،
ويوئد الفكرة فى الوجدان .
والطامة الكبرى ، أنه يجعل (أبوللو) ، إله الجمال ،
أحدب قميئا .
ويجعل (فولتير) ، فيلسوف الكلام ، أبله بليدا .
عمل كريه يقبض على سن الحداثة بين مخالبه .
يحقق الثراء للأغنياء ، بينما يخلق للآخرين البؤس والشقاء .
يستعمل الصبى الحدث كما تستعمل الآلة الصماء .

(من ديوان «التأملات»)

(عرف عن (فيكتور هوجو) دفاعه عن المعذبين فى الأرض والمظلومين ، ولا يذكر عندنا (فيكتور هوجو) إلا وذكرت روايته الشهيرة "البؤساء" . كما حفلت أشعاره بالقصائد التى يندد فيها بالظلم والقهر . وله مواقف سياسية بهذا الخصوص .

إن الدعوة إلى التضامن فى القصيدة لا تحتاج إلى إيضاح ، بعد العرض البليغ الشامل لألوان القهر والسخرة التى يتعرض لها الأطفال : والرماد يكسوهم ، فتنقطع أنفاسهم ... إلخ .

كل ذلك دعوة ملّحة للتضامن مع هؤلاء المغتالين الأبرياء ، الذين يعاملون معاملة الآلة الصماء ، وذلك برفع هذه المعاناة الصارخة وهذا الظلم البيّن) .

ألبير ديسنو (١٩٠٠ - ١٩٤٥)

يرتبط اسم (روبير دِيسنو) بالمرحلة الأولى من الحركة السيريالية ، ذلك أن قدراته الخارقة بوصفه وسيطا روحيا ، كانت وراء توجيه هذه الحركة نحو البحث فى طبيعة المسار اللاعقلى للتفكير . ويختلف (دِيسنو) عن (بروتون) رائد السريالية وزعيمها ، فإذا كانت طبيعة الريادة والزعامة تجعل من (بروتون) منظِّرا ومقننا ، فإن (دِيسنو) خيالى بطبعه ، شاعرى بفطرته ، ولعل هذا الاختلاف فى المشارب هو الذى أدى إلى طرد (دِيسنو) من الحركة السريالية فى الثلاثينيات ، مما جعله يمر بمرحلة من الاضطراب الشديد واليأس .

كان لـ (دِيسنو) تأثير كبير فى الحركة السيريالية ، حيث كان يقوم بدور الوسيط الروحى خلال جلسات التنويم التى كان ينظمها (بروتون) وزميله (بيريه) ، كما كان (دِيسنو) يتمتع بموهبة الكتابة التلقائية التى كانت إحدى القواعد التى يعتمد عليها السرياليون ، كما كان أكبر شاهد حقيقى على عملية التفريغ الشعرى التى تتمثل فى الارتجال الذى تمليه الأحلام . إذ يرى (دِيسنو) أن الكتابة الإبداعية فى أرقى حالاتها تخضع لما تمليه الأحلام ، وهو فى ذلك يتفق مع أهداف السريالية .

المرابط على جسر الشانخ

أحييكم على شواطئ التايمز
يا رفاقا من جميع الأمم
حاضرين فى موعد اللقاء
فى المدينة الإنجليزية القديمة
فى لندن وبريطانيا القديمة

أيها الأمريكان من جميع الأجناس وجميع اللواءات
فيما وراء فضاءات الأطلنطى
من كندا إلى المكسيك ، ومن البرازيل إلى كوبا
يا رفاقًا من ريو ، من تيهوانتبيك ، من نيويورك
وسان فرنسيسكو

لقد ضربت موعداً لكل الأرض على جسر الشانخ
مرابطا ومناضلا مثلكم . قبل قليل ،

ومن خطوته الثقيلة فوق بلاط الطريق الرنان ،
عرفت عدوّى فصرعته أنا أيضا

مات فى النهر ، ذلك الألمانى المجهول ،
ألمانى هتلر البغيض
وقد تلطخ وجهه فى الطين وصارت ذكراه عفنه
بينما كنت أسمع أصواتكم من الفصول الأربعة
أيها الأصدقاء ، يا أصدقاء ويا أشقاء الأم الصديقة .

كنت أسمع أصواتكم عبر أريج الشجر ،
شجر البرتقال الأفريقى
عبر روائح المحيط الباسيفيكى
أساطيل بيضاء من الأيدى المبسوطة فى العتمة
رجال الجزائر ، وهونولولو وتشيونغ كنج
رجال فاس ، وداكار وأجاكسو والقاهرة

جلبة مسكرة وصخب رهيب ،
إيقاعات رئات وقلوب

من الجبهة الروسية التى تتوهج فى الجليد
من بحيرة ليمين إلى كييف ، ومن وارسو
تصلون إلىّ ، مولودين من ملايين الصدور .

أنا أنصت إليكم وأفهمكم .
نرويجيين ودانماركيين وهولنديين
بلجيك وتشيك وبولنديين ،
يونانيين ولوكسمبورجيين
البانيين ويوغوسلافيين ، يا رفاق النضال .

أسمع أصواتكم وأناديكم .
أناديكم بلغتى المعروفة للجميع ،
لغة ليس فيها سوى كلمة واحدة :
الحرية !

(من ديوان «أجسام وأمتعة»)

(لأنها كانت العاصمة الوحيدة التى ظلت تقاوم الغزو النازى ، فقد كانت ترمز للمقاومة الأوروبية ، بل العالمية ، كانت رمزًا للتضامن الذى جمع شعوب العالم فى موعد للقاء " فى المدينة الإنجليزية القديمة ، فى لندن القديمة وبريطانيا القديمة " ، وهل هناك تضامن أكبر من ذلك التضامن الذى يضم جميع الأجناس ، وانبرى الشاعر يحييه : " أيها الأمريكان ... فيما وراء فضاءات الأطلنطى ، من كندا إلى المكسيك ، ومن البرازيل إلى كوبا . يا رفاقًا من ريو ، من تيهوانتبيك، من نيويورك وسان فرنسسكو " . ومن الشرق أيضا ... من الجزائر ، وهونولولو ، وتشيونج كنج ، رجال فاس ، وداكار ، وأجاكسو والقاهرة " . إن الشاعر يعبر عن جميع هذه الأجناس ويفهمها لأنها تجتمع على هدف واحد : إنقاذ البشرية، إنقاذ عشرين قرنا من الحضارة والبناء والتقدم . يسمعهم ويناديهم بلغته المعروفة للجميع ، لغة الحرية .

سبحان من غير الأحوال . تحولت لندن من النقيض إلى النقيض . من رمز للحرية والكرامة إلى رمز للعبودية والعار) .

فيليب سوبو (١٨٩٧ - ١٩٩٠)

صادف (سوبو) فى الحركة الدادية التى ظهرت فى العقد الثانى من القرن العشرين التعبير عن تمرده على الوسط العائلى ، فقد كان ابن شقيق (لويس رينو) صاحب سيارات (رينو) الشهيرة . مهدت قراءته لأعمال (لوتريامون) ومقابلته للشاعر (أبوللينير) و (ريفيردى) للتعاون الذى قام بينه وبين أندريه (بروتون) بابا الدادية . وقد اشتركا فى صياغة النص السريالى بمعنى الكلمة ، أى الذى يعتمد على الكتابة التلقائية ، وذلك بعنوان (المجالات المغناطيسية) . ولكن سرعان ما شعر (سوبو) بالرغبة فى الانطلاق بمفرده بعيدا عن المدارس والتجمعات الأدبية . وانبرى يعبر عن الواقع المعاش والأوضاع الراهنة من خلال العديد من المقالات والبرامج الإذاعية .

أغنية للندن تحت قصف القنابل

هذه الليلة تقصف لندن بالقنابل للمرة المائة
ليلة حالكة ، ليلة غصب واغتيال
الظلمة تستشرى من الجزع القادم
الطلقات الأولى بدأت من بعيد
والنيران الأولى بدأت والإشارات
كل شيء يبدو جاهزا للاضطراب والزلزال والفزع
وإذا بالجميع وقد خيم الصمت عليهم بغتة
يترصدون الضوضاء التى أصبحت مألوفة
في انتظار الحفل الكبير ، حفل الموت الأعمى
بريق قريب عال ومحموم

-

فجر عالم جديد أنجبه الليل البهيم
كنا مكممين بالطين والقاذورات
كنا لا نزال نستطيع أن نسمع وأن ننتظر

كنا نعرف كنا نحرز ذلك
هذه الليلة تقصف لندن بالقنابل للمرة المائة
صوت إنسان يرتفع كان هو الصراخ المأمول

كنا نلزم الصمت كأننا نستمع إلى دقات قلب ينبض
وفجأة السكون وقلق السكون
الزمن الضائع لحظة ساعة
نستجوب الليل بلا جدوى الكلام والمسافة
ينبغى ألا نصدق ما يصيح به الآخرون
لندن هذه الليلة قصفت بالقنابل للمرة المائة
حريق أخرس وأموات
أولئك الذين كانوا يصرخون ، الذين كنا فى انتظارهم
لا شيء سوى حطام البوابات وأسلاك متقطعة
لا شيء سوى فتحة فى الفضاء وفى الزمن

هنا لندن تتكلم ، لندن تنادى
وها هى المدينة تسترد مكانتها فى الأفق
إنها وحيدة وسط العالم
إنها هى التى تهيمن على الصخب والضجيج

تضيئها النيران واللهيب ، لهيب الشجاعة الأعظم
لندن لندن لندن ، دائما لندن
هذه الليلة تقصف لندن بالقنابل للمرة المائة

الهجوم والرد تحدٍ فوق مستوى الأرض
الصوت الذى يصرخ فى الأبد
صوت لندن كصوت صديقة بجوارك
يقول ألا نيأس
فليرتفع مدويا فوق الخطر وفوق الهوان
يحدث المرضى عن الحياة ويحدث المتشككين عن اليقين
نحن نرهف السمع وعيوننا مغمضة ، نحن نعرف
هذه الليلة تقصف لندن بالقنابل للمرة المائة

الشجاعة ، هذه هى الليلة المائة من الشجاعة
عاصمة الأمل تنادينا وتذكرنا
العاصمة لا تزال كما كانت
تزدرى اللامبالاة والجبن والوضاعة
نحن الآن نتابع أشباحها من الطيبين
توماس ديكر يتنقل من حان إلى حان

وتوماس دى كوينسى يحتسى الأفيون سما لطيفًا حزينا
قاصدا صديقته المسكينة " آن " وهو يحلم
فى تلك الليلة التى تقصف فيها لندن بالقنابل للمرة المائة .

(أغنيات)

(حينما يتحدث شاعر فرنسى عن مدينة لندن، وهى تقصف بالقنابل للمرة المائة ، أثناء غارات هتلر على العاصمة الإنجليزية ، وهى تقاوم الغازى النازى ، فإنما يدفعه إلى ذلك الحب الذى يربط بين البشر على اختلاف ألوانهم وأوطانهم ، أمام محنة تضمهم جميعا فى قارب واحد . وحينما يشبه الشاعر صوت لندن وهى تصرخ فى الأبد بـ " صوت صديق بجوارك يقول لك لا تيأس" فهذا تأكيد لعلاقة الحب التضامنى مع العاصمة التى تتكلم وتنادى وتسترد مكانتها فى الأفق . وحيدة وسط العالم، تهيمن على الصخب والضجيج ، تضيئها النيران واللهيب ، لهيب الشجاعة الأعظم .

لا نملك أنفسنا من الإشارة إلى هذا التحول من النقيض إلى النقيض فى دور لندن : من الدفاع المجيد عن الحرية ، إلى الاعتداء الغاشم) .

جاك بريفير (١٩٠٠ - ١٩٧٧)

عن الشاعر ، انظر قصيدة ("أغنية الأطفال " في الحب ... التضامن).

اليوم الأول

أغطية بيضاء فى دولاب
أغطية حمراء فى فراش
طفل صغير فى أمه
أمه فى الآلام
أبوه فى الممر
الممر فى المنزل
المنزل فى المدينة
المدينة فى الليل
الموت فى صرخة
والصرخة فى الحياة

(من ديوان «كلمات»)

(إذا كان (ديسنو) يتضامن مع العالم أجمع في قصيدته بعنوان (المرابط عل نهر الشانج) وكذلك (أغنية للندن تحت قصف القنابل) لفيليب سوبو ، وإذا كان (فيكتور هوجو) في قصيدته (ميلونكوليا) يتعاطف مع الأطفال الفقراء بصفة عامة ، فإن هذا التضامن العام يرمز إليه في شكل تضامن خاص جدا ، يتمركز حول شخص واحد ، بل طفل وليد . أو ليس الإنسان "عالما مصغرًا " وفي ذلك تقول الآية الكريمة فيمن يقتل نفسًا أو يحيي نفسًا : (فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا). (المائدة : ٣٢ الشاعر نفسه يشير إلى هذا التمثيل: "فالطفل في أمه"، "أمه في الآلام، أبوه في الممر ، والممر في المنزل، المنزل في المدينة") .

جاك بريفير (١٩٠٠ - ١٩٧٧)

عن الشاعر ، انظر قصيدة " (أغنية الأطفال " فى الحب ... التضامن) .

لرسم صورة عصفور

ترسم أولاً قفصا
بباب مفتوح
ترسم بعد ذلك
حاجة لطيفة
حاجة بسيطة
حاجة جميلة
حاجة مفيدة
للعصفور
بعد ذلك تضع اللوحة على شجرة
فى حديقة
أو فى مزرعة
أو فى غابة
وتختبئ خلف الشجرة
بدون كلام

بدون حركة . . .
أحيانًا العصفور يصل بسرعة
لكن أحيانًا ننتظره سنين طويلة
قبل أن يقرر
فلا تيأس
وانتظر
انتظر إذا لزم الأمر سنين
لأن وصول العصفور بسرعة أو ببطء
ليس له علاقة بنجاح اللوحة
حينما يصل العصفور
إذا وصل
عليك بالصمت العميق
وانتظر حتى يدخل العصفور
وحينما يدخل
أقفل الباب بالفرشاة فى هدوء
ثم
امسح كل القضبان واحدًا واحدًا
دون أن تلمس أى ريشة من ريش العصفور
ارسم بعد ذلك صورة الشجرة

مع اختيار أجمل غصن من أغصانها
للعصفور
ارسم بعد ذلك الورق الأخضر
والنسمة العليلة
وذرات الشمس
وأصوات الحيوانات فى حر الصيف
ثم انتظر أن يغنى العصفور
فإذا لم يغن العصفور
فهذا توقع سيئ
أما إذا غنى فهذا توقع حسن
توقع أنك تستطيع أن توقع
حينئذ يمكنك أن تنزع فى هدوء
ريشة من ريش العصفور
وتكتب اسمك فى أحد أركان اللوحة .

(من ديوان «كلمات»)

(ومع تكرار صور البؤس الذى يخيم على الفئات المظلومة ، وعلى وجه الخصوص الأطفال منهم ، أراد الشاعر أن يسهم فى إدخال البهجة والسرور على النفوس الصغيرة . فوضع نفسه فى مستواهم ، وهو لا يحتاج إلى ذلك ، لأنه شاعر ، أى طفل كبير . وهدته شاعريته وطفولته معًا إلى وسيلة شاعرية طفولية معًا ، لمحاورة الأطفال والتفاهم معهم ، من خلال عملية إبداع بمختلف مراحلها، بطلها العصفور، صديق الأطفال الأول ، ومسرحها " الحديقة أو المزرعة أو الغابة " ، أحب البيئات لدى الأطفال) .

جاك بريفير (١٩٠٠ - ١٩٧٧)

عن الشاعر ، انظر قصيدة (" أغنية الأطفال " فى "الحب ... التضامن") .

مطاردة الصبى

لص ! حقير ! أفاق !
فوق الجزيرة نرى طيورا
حول الجزيرة مياه
لص ! حقير ! أفاق !
ما هذا العواء ؟
لص ! حقير ! أفاق !
إنها عصابة الشرفاء
تطارد الصبى
لقد قالها ، كفانى ما لقيت من دار الإصلاح
فانهال عليه الحراس بالمفاتيح وحطموا أسنانه
ثم تركوه طريحا على الأسمنت
لص ! حقير ! أفاق !
الآن لاذ بالفرار
هاهو ذا كالبهيمة النافرة
يجرى فى عتمة الظلام

والجميع خلفه يجرون
الشرطة والسياح وذوو المعاش والفنانون
لص ! حقير ! أفّاق !
إنها عصابة الشرفاء
تطارد الصبى
فمطاردة الصبى لا تحتاج إلى تصريح
فقد تولاها جميع الشرفاء
ما الذى يسبح فى عتمة الليل
ما هذه الأضواء وهذه الضوضاء
إنه صبى يلوذ بالفرار
ويطلقون عليه أعيرة النيران
لص ! حقير ! أفّاق !
جميع هؤلاء السادة على الشاطئ
عادوا بخفى حنين حانقين
لص ! حقير ! أفّاق !
هل ستبلغ اليابسة ؟ هل ستبلغ اليابسة ؟
فوق الجزيرة نرى طيورا
حول الجزيرة نرى مياه .

(من ديوان «كلمات»)

(من أسباب شهرة (جاك بريفير) تعاطفه مع الضعفاء والمقهورين فى المجتمع ، والتعبير عن معاناتهم والدفاع عن قضاياهم . وهل هناك أحق بهذا التعاطف والتضامن من الأطفال المشردين الذين فقدوا كل شيء : الأسرة والبيت والمستقبل والنصير أيضا . بالإضافة إلى هذا الحرمان ، يتعرضون للمطاردة لمجرد ذنب يرتكبونه . وممن ؟ من وجهاء القوم "عصابة الشرفاء" ، ومعهم الشرطة يطلقون النار على الطفل المشرّد . ويشفق الشاعر على الطفل الطريد حينما يتساءل : هل سيستطيع النجاة من أيديهم ؟) .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

العزلة الأولى

فى المدارس الفقيرة الكئيبة ،
أطفال دائماً يبكون ؛
يلوذون بأطراف الفناء ،
والآخرون يتشقلبون .

قمصانهم مكوية نظيفة ،
وسراويلهم فى حالة جيدة ،
وأحذيتهم دائماً لامعة ؛
تبدو عليهم سيماء الرقة والرزانة .

الأقوياء يسمونهم بنات ،
والخبثاء يسمونهم أبرياء :
طيبين يعطوننا بِلْيهم ،
ويؤثرون على أنفسهم .

الجبناء يعملون فيهم ملاعيب ،
والأكولون يصاحبونهم ،
أصدقاؤهم يظنونهم أغنياء ،
لأنهم يغسلون أيديهم .

يرتعدون من رؤية المدرس ،
خياله يصيبهم بالغم ؛
هؤلاء الأطفال ما كان ينبغى أن يولدوا ،
فالطفولة فى غاية القسوة بالنسبة لهم .

لو حدث ولم يذاكروا درسهم ،
أو لم ينجزوا واجباتهم !
كان التأنيب فى انتظارهم ،
وعار العقاب من نصيبهم !

كل شىء فيه إرهاب لهم وعذاب ؛
فى النهار الجرس ، وفى المساء ،
حينما ينصرف المدرس ،
العنبر الخالى الكبير .

ضوء المصابيح يتراقص
فوق أكفان الأسرة الحديدية ؛
وصفير النائمين أشبه
بريح المقابر ، فى الشتاء .

وبينما الآخرون يغُطون فى نومهم ، نوم السجون ،
يفكر أصحابنا الصغار فى يوم العطلة .
يظلون ساهرين
يتذكرون بيوتهم وأهليهم .

يفكرون حينما كانوا ينامون
مدفونين فى مهادهم
وأمهاتهم يأخذونهم
فى بعض الأحيان فى أسرتهن .

أه ! أيتها الأمهات الحانيات الغائبات ،
ما أبعدكن الآن فى نظرهم !
هذه المخلوقات الوليدة
فى حاجة مسيسة لأشياء لا تقال ؛

أعطيتموهم القمصان ،
والأغطية التى يحتاجون إليها :
وغير ذلك من الحاجات . لكن آخرين ألبسوها لهم
لذلك لا يجدون فيها الدفء المطلوب .

بالرغم من جحودكن ،
لا يستطيعون نسيانكن ،
ويدسون رءوسهم الصغيرة ،
تحت الوسائد وهم يبكون .

(من ديوان «حالات العزلة»)

(حب الضعفاء المساكين ، وبخاصة الأطفال منهم (انظر قصيدة ميلونكوليا ، فيكتور هوجو، ومطاردة الصبى ، جاك بريفير) . الذين يلقون سوء المعاملة من أترابهم ومن مدرسيهم ، بل ومن ذويهم الذين يهجرونهم ويتركونهم فى القسم الداخلى من المدارس ، بعيدا عن حنان الأمهات وعطف الآباء .

وإذا كان الشاعر يعبر عن تعاطفه وحبه هو لهؤلاء الأطفال ، فإنه حينما يصورهم محرومين من حب الآخرين ، فإنما يدعو هؤلاء الآخرين ، وبخاصة الأمهات ، إلى القيام بواجبهن ، خاصة وأن هؤلاء الأطفال يحبون أمهاتهم ، ويفكرون فيهن ، فبالرغم من جحودهن ، فهم " لا يستطيعون نسيانهن ، ويدسون رءوسهم الصغيرة تحت الوسائد وهم يبكون ") .

جاك بريفير (١٩٠٠ - ١٩٧٧)

عن الشاعر ، انظر قصيدة " أغنية الأطفال " في " الحب ... التضامن") .

مايو ١٩٦٨

(١)

قفَل !
زعقةُ حراس المتحف .
متحفِ رجلٍ مستهلك .
زعقةُ قلبٍ قد أنهك
قلبٍ يحتاج لإصلاح .
للترميم !
قفَل !
قفَل دار العرض وكذا السوربون !
قفَل !
أغلق بالمزلاج على الآمال !
سَكّر بالمفتاح على الأفكار
قفَل !
وضَعْ الإذاعة تحت الحراسة

والتلفاز شَطَّب !
لجِّم فاه الحق ، لجم !
كمِّمْ أفواه الفتية ، كمِّم أفواه الشيبة ، كمِّم !
قفّل !
ولو فتح الشبان أفواههم ،
أغلقناها بقوة الأحكام ،
بقوة النظام .
قفّل !
وهذا الشباب الملقى فوق الأرض ،
يُهال عليه بالمطارق ،
يُداس بالأقدام ،
يُروَّع بالغازات تعمى العيون ؛
ينهض ، يقتحم البوابات المفتوحة ،
أبواب الماضى الكذاب ،
الماضى البائد .
افتِح !
افتِح !
على إرادة الحياة !
على روح التضامن !
على صور الحرية المستنيرة !

(٢)

يعبر الناس عن سخطهم لأن مسرح الأوديون تم احتلاله ، فى حين أنهم لا يزالون يجدون من الطبيعى أن يحتل ممثل واحد مسرح "التراجى كوميدى فرنسيز" أو مسرح التراجيديا الفرنسية المضحكة ، منذ سنين طويلة . يحتل المسرح لكى يمثل عليه ، فى الصباح والمساء والليل ، وبكامل العدد ، دور حياته ، رجل العناية الإلهية ، بطل الدراما القديمة ، التاريخ المكرور .

(بعد أن عبر (بريفير) عن تعاطفه مع الطفل الوليد ، فى قصيدة (اليوم الأول) ، ثم مع الطفل الطريد فى قصيدة (مطاردة الصبى)، ثم مع أطفال الأحياء الفقيرة فى قصيدة (أغنية الأطفال) ، تتسع دائرة التضامن عنده فتشمل فئات العمال والطلبة وغيرهم من المقهورين . وهذا ما تجلى فى أحداث مايو ٦٨ ، حينما خرجت هذه الفئات تعبر عن سخطها ورفضها للقهر الذى عبّر عنه الشاعر بدوره وتمثّل فى العبارة الفرنسية الشهيرة "ممنوع ! " التى أصبحت الشعار السائد فى البلاد ، وقضى بإغلاق السوربون ، ودور العرض ، والإذاعة والتليفزيون . أمام هذا القهر ،

يصور الشاعر الشبان وقد نهضوا يقتحمون الأبواب المغلقة " أبواب الماضى الكذاب ، الماضى البائد ، افتح ، افتح ! على إرادة الحياة ! على روح التضامن!"

فيليب سوبو (١٨٩٧-١٩٩٠)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " أغنية للندن تحت قصف القنابل" في " الحب ... التضامن ") .

جميع مدن العالم

هذا المساء أنا وحدى ، أنا فيليب سوبو
أمشى الهوينى فى شارع سان ميشيل
لا أفكر فى شىء بالمرة .
أحصى مصابيح الإنارة التى أعرفها حق المعرفة
وأنا أقترب من نهر السين
وأتحدث عاليا
جميع الشوارع فروع تصب فى نهر السين
حينما نحب هذا النهر الذى تجرى فيه دماء باريس كلها
وهو قذر كعاهر قذرة
ولكنه أيضا نهر السين بكل بساطة
الذى نتحدث إليه كما نتحدث إلى أمنا
كنت قريبا منه
وهو يمضى بلا ندم وبلا صخب
ذكراه المنطفئة كانت مرضا

كنت أستند إلى الحاجز
كمن يركع للصلاة
كانت الكلمات تتساقط كالعبرات
حلوة كقطع الحلوى
صباح الخير يا رامبو كيف حالك
صباح الخير يا لوترياموِن كيف أصبحت
كنت فى العشرين من عمرى لا أكثر
والدى ولد فى " سان مالو "
وأمى نشأت فى " نورماندِيا "
وأنا عمّدونى فى كندا
صباح الخير يا أنا
تجار السجاد والآنسات الجميلات
الذين يتسكعون فى الشوارع ليلا
الذين يحتفظون فى عيونهم برقة المصابيح
الذين يعتبرون تدخين الغليون وكأس النبيذ
بلا طعم ولا رائحة
يعرفوننى دون أن يعرفوا اسمى
ويقولون لى وهم يمرون صباح الخير يا هذا
ومع كل ففى صدرى

شموس صغيرة تدور ولها ضجيج الرصاص
عملاق الشارع الكبير
رجل المحكمة الوديع
هل الصاعقة أجمل في الربيع
عُيونها صاعقتي مقصات
أيها السائقون بقى معي سبعة خراطين
لا أقل ولا أكثر
ولا واحدة منها من أجلكم
أنتم قبيحون كمحاضر الاستجواب
وأنا أقرأ على جميع الجدران
سجاد سجاد سجاد وسجاد
مواكب التجارب الكبرى
بالقرب منا ، بالقرب مني
أعواد الثقاب السويدية
ليالي باريس لها روائحها النفاذة
التي تخلفها الحسرات وآلام الصداع
وكنت أعلم أن الوقت كان متأخرا
وأن الليل
وأن ليل باريس سينقضي

وكأيام الأعياد
كل شيء كان منظما
ولا أحد ينطق بكلمة
كنت أنتظر الدقات الثلاث
الشمس تشرق كالزهرة
التي نسميها على ما أعتقد هندباء برية
النباتات الكبيرة الآلية
التي لم تكن تنتظر سوى التشجيع
تتسلق وتسير
بإخلاص
لا ندرى هل ينبغى أن نقارنها
باللبلاب
أو بالجراد
هل طار التعب
أرى الملاحين يخرجون
لكى ينظفوا الفحم
عمال البواخر
الذين يلفون أول سيجارة
قبل أن يوقدوا المرجل

هناك في ميناء
قبطان يخرج منديله
ليجفف رأسه
كالعادة
وأنا الأول هذا الصباح
ومع كل فأنا أقول
صباح الخير
يا فيليب سوبو

(من ديوان : «نحن ذاهبون إلى الغرب»)

(على النقيض من أصدقائه السرياليين المرتبطين غالبا بباريس ، لم يكن لفيليب سوبو سوى حلم واحد ، هو أن يطوف بالعالم . ولقد حقق هذا الحلم في أخريات حياته .

والقصيدة ، بل الديوان كله ، دعوة إلى الترحال . رحلة خيالية يتنقل فيها الشاعر بين الأماكن التي يصادف فيها أرواح أصدقائه من الشعراء ، أصدقاء الأمس ، وأشخاص آخرين

خياليين . ومن خلال الأوصاف والأشياء ندرك أن الشاعر يحلم وهو في باريس ، بأنه في لندن ومدغشقر ونيويورك وشنغاهاي وبوينس أيرس. وتختتم القصيدة بصحوة الشاعر ليجد نفسه ما يزال في باريس ذات صباح) .

يواقيم دي بيلليه (١٥٢٢ - ١٥٦٠)

خرج يواقيم دى بيلليه إلى الحياة يتيما فقيرا، وكان ذا طبيعة حالمة ، يُرى كاسف البال، منصرفا بكل وجدانه إلى الطبيعة . درس الحقوق . وعمل بعض الوقت لدى ابن عمٍ له كان أسقفا لمدينة باريس . قابل (رونسار) الذى صار صديقا له ، وتمكن من صرفه عن حياة العزلة والوحدة الفكرية وشجعه على الالتحاق بكلية (كوكيريه) حيث درس على يد المربى والعالم الكبير (دورا) الذى كان يلقى محاضراته فى اللغتين الإغريقية واللاتينية ويربط بينهما برباط وثيق ، وجذب إليه جميع طلاب الحى اللاتينى . انضم (دى بيلليه) فيما بعد إلى جماعة (البريجاد) التى أصبحت فيما بعد تعرف بجماعة (البليّاد) الشهيرة ، والتى نهضت بمهمة تجديد اللغة الفرنسية والشعر الفرنسى . من أشهر مؤلفات (دى بيلليه) بحثه المعروف باسم (الدفاع عن اللغة الفرنسية وتمجيدها) الذى وضعه عام ١٥٤٩ . وفى العام نفسه ، نشر أول ديوان له بعنوان (الزيتونة) .

بعد ذلك مر (دى بيلليه) بفترة مرض لزم خلالها الفراش ، واستثمرها فى ترجمة بعض أجزاء من ملحمة (الإنيياد) . كما استرسل فى وصف آلام مرضه من خلال ديوان شعر آخر بعنوان (إبداعات) .

بعد شفائه ، صحبه ابن عمه أسقف باريس في رحلة إلى روما عام ١٥٥٣ ، حيث استمتع بالحياة وسط آثار العصور القديمة التى ألهمته ديوانين من الشعر: الأول بعنوان (عاديات روما) والثانى نشره بعد عودته إلى فرنسا بعنوان (الحسرات) .

كان (دى بيلليه) أول شاعر استخدم أسلوب السخرية فى وصفه للبلاط ولشعرائه ، ذلك الأسلوب الذى ساعده فى التغلب على مشاعر القلق والكآبة ، وبخاصة الشعور بخيبة الأمل أمام الواقع الذى لا يرقى إلى مستوى أحلامه وطموحاته .

شاعر البلاط

لا أريد أن يعكف طويلا على الدراسة
فيشحب وجهه ،
لا أريد له أن ينكب على الكتب
حتى يصاب بالشيخوخة ،
منقبا دارسًا فى الكتب طوال الليل والنهار ،
الشعراء النماذج من الإغريق والرومان .
إن مثل هذه التدريبات تصنع رجلا قليل الحنكة ،
وتصيبه بالوهن والأمراض والنزلات الشعبية ،
وتجعله معزولا عن الناس عبوسا صموتا
شارد البال .

لكن شاعرنا فى البلاط هو أقوى من ذلك كثيرا .
لا يترك أظافره تطول بحثا عن بيت من الشعر ؛
ولا يضرب المكتب بيده ، ولا يحلم

ولا يتعمق فى التفكير ،
مربكًا عقله بمختلف الأفكار والهموم
من أجل أن يستخرج من رأسه بيتا حقيرا ،
لا يستجلب عليه ، لعقوقه ، إلا الزراية والسخرية
حيثما يكون الجهل أكثر انتشارا وقبولا وسطوة .

أنت يا من اخترت لنفسك أقصر الطرق
لكى تندرج فى صفوف علماء البلاط ،
دون أن تمضغ الغاز وتتحمل المشقة
بالتحليق فى الآفاق والشرب من العين
التى فجرها الجواد الطائر بقدمه .
لو نفذت ما أقول ، فلا يمكن أن تفشل .
أريد بادئ ذى بدء ، ألا تتبع
(شأن بعضهم) آثار الشاعر (باندار) أو (هوراس) ،
ولا تحاول مثلهم أن تحلق عاليا ،
عليك فقط أن تجارى طبيعتك البسيطة .
هذه الطريقة الشائعة ، لا تزال سائدة ،
أيهما أفضل الصنعة أم الطبيعة ،

فى مجال الشعر ، حسمت فى البلاط :
لأنه يكفى هنا أن تنقاد للطبيعة وحدها
بلا صنعة ولا منهج

إن قصيدة قصيرة أو طقطوقة
أفضل من الإلياذة
دعك إذن من الرومان والإغريق
الذين لا يفيدون الشاعر الفرنسى بشىء
وكن " فيرجيل " نفسك و " هوميروس " نفسك ،
ما دامت كما يقولون ، هى أم العقول النيرة .

(مع أن القصيدة تعد نوعًا من " فن الشعر " إذ تنصبّ على رسم الطريق أمام الذى اختار الشعر وسيلة للتعبير ، فإن النصائح العديدة التى يسديها الشاعر إلى زملائه من الشعراء ، هى نوع من التناصح المطلوب بين البشر ، والتضامن معهم ببذل النصح الذى يفيدهم ، ويرشدهم فى مجال عملهم الإبداعى ، لكى يصلوا إلى الكمال من أقصر الطرق) .

شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "البركة" فى "حب الخالق للمخلوق") .

انتشوا

ينبغي عليك دائما أن تكون منتشيا . هاهنا يكمن كل شيء : تلك هي القضية الوحيدة . لكي لا تشعر بوطأة الزمن الرهيب الذي يحطم كتفيك ويحني ظهرك نحو الأرض ، عليك أن تنتشي بلا هوادة .

ولكن بماذا تنتشي ؟ بالخمر ، بالشعر أو بالفضيلة ، كما يحلو لك . ولكن انتش . ولو حدث أحيانا ، وأنت فوق درجات قصر ، أو فوق العشب الأخضر لمصرف ماء ، أو خلال العزلة الممضة داخل حجرتك ، أن أفقت من نشوتك التي خفّت أو اختفت ، فاسأل الريح أو الموج أو النجم أو الطير أو ساعة الجدران ، سل كل ما يمضي ، وكل ما يئن ، وكل ما ينطق ، وكل ما يشدو ، وكل ما يتحدث ، سل كم الساعة الآن ! وستجيبك الريح والموج والنجم والطير وساعة الجدران قائلة : " إنها ساعة النشوة ! حتى لا تكونوا عبيدا للزمن معذبين ، انتشوا دون توقف ! بالخمر ، بالشعر أو بالفضيلة ، كما يحلو لكم . "

(من قصائد قصار منثورة)

(تتمثل هذه القصيدة بالفكرة الأساسية التى يقوم عليها ديوان (أزهار الشر) مشروع (بودلير) الشعرى الكبير . يدعو الشاعر إخوانه فى الإنسانية إلى تجنب وطأة الزمن (الزمن بحرف كابيتال) ذلك العدو اللدود الذى يأتى على كل شىء، وبصفة خاصة ينخر فى قوتنا الإبداعية ويدنينا كل لحظة من الأرض التى إليها نعود .

إذن (بودلير) يحاول أن يأخذ بيد الإنسان ليبتعد به عن هذه الحالة التى يكون فيها فريسة لفعل الزمن . وإذا كان يعرض عليه الوسيلة المبتذلة، فهو يبادر فيتبعها ببدائل أفضل منها : الشعر ، ثم بالفضيلة . وهنا نتبين الهدف السامى الذى يسعى إليه الشاعر ، وهو الارتقاء بالإنسان والرقى به فوق مشاغل الحياة المبتذلة التى تستهلكه وتستنفد طاقته فيما لا يليق به . الشاعر هنا يشخص الداء الذى يؤرقه ، ويصف الدواء الناجع ، وهو يكمن فى أن ينتزع نفسه من نفسه ، حتى لا يرى الحياة كما هى بعلاتها ومنغصاتها ، فينشغل بالإبداع.

ومما يجدر التنويه به أن الشاعر جعل الفضيلة أعلى درجات النشوة والسمو عن مباذل الحياة ومشاغلها . وهل الفضيلة سوى التقرب إلى الخالق بالعبادات وحسن معاملة المخلوقين ؟) .

شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "البركة" في "حب الخالق للمخلوق") .

القـادوس

كثيرا ما يقوم طاقم الصيادين ، من أجل تسلية أنفسهم .
بصيد القواديس ، تلك الطيور البحرية الضخمة ،
رفاق السفر المتكاسلة
التى تتابع السفينة التى تمخر عباب الماء .

وما إن يطرحوها فوق الدُّسُر ،
حتى تترك هذه الملوك الجوية الخرقاء المخجلة ،
أجنحتها الكبيرة البيضاء ، فى هيئة مخزية
تزحف بجانبها أشبه بالمجاديف .

هذا المسافر المجنح ، ما أوهنه وما أغباه !
من قبلُ ما أبهاه بقدر ما هو الآن دميم يثير الضحك !
أحدهم يداعب منقاره بغليون ،
والآخر يحاكى ، بالعرج ، ذلك العاجز الذى كان يطير !

ما أشبه الشاعر بأمير السحاب
الذى يغشى العواصف ويضحك من النبال ؛
وما إن يُغيّب فوق الأرض وسط صفير الاستهزاء ،
إذا بجناحيه الهائلين يعوقانه عن المسير .

(من ديوان «أزهار الشر»)

(ليس فى المشهد حب ظاهر . ولكن الذى قرأ أشعار (بودلير) يعرف أن هذه القيمة أثيرة إلى نفسه ، متكررة فى قصائده : الشاعر الذى يهلك نفسه ويشق صدره ليقدمه قوتا لصغاره . وهو ما كان يفعل ذلك إلا من فرط الحب .

والطائر الشاعر هنا ، أمير السحاب ، يغشى العواصف بحثا عن قوت الصغار (الجماهير) . ولكن ما إن يسقط على الأرض ، حتى يصبح عرضة للسخرية والاستهزاء .

هذا الموضوع يتكرر فى أشعار (بودلير)، انظر على سبيل المثال ، ومن ضمن القصائد المختارة : (السمّو) ، (البركة) ، (انتشوا) .

فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " ميلونكوليا " في " حب الخالق للمخلوق") .

أيتها الشعوب ، استمعوا إلى الشاعر

هذه مشيئة الله ، فى الأوقات العصيبة ،
كل إنسان يعمل ، وكل إنسان يخدم غيره ،
الويل لمن يقول لإخوانه :
سأعود إلى الصحراء !
الويل لمن يلوذ بالفرار
حينما تشرع الأحقاد والفتن
فى إزعاج الشعب المضطرب !
العار للمفكر الذى يجدع أعضاءه
ويطوف بأبواب المدينة
مطنطنًا عديم الفائدة .

الشاعر فى الأيام السود
يهب للإعداد لأيام أفضل .
فهو هنا ، وعيناه هنالك .

هو الذى يكون على كل الرءوس ،
فى كل زمان ، أشبه بالنبى المرسل ،
عليه أن يحمل فى يده -
حيث يستطيع أن يقضى على كل شىء ،
وسواء أهانوه أم مدحوه -
ما يشبه شعلة يلوّح بها ،
وأن يبعث الوهج فى المستقبل !

إنه يرى ، حينما تخلد الشعوب إلى الكسل .
أحلامه الملأى دائما بالحب
مصوغة من الأطياف التى تلقى بها إليه الأشياء
التى ستكون فى يوم من الأيام .
هم يهزءون به ! لا بأس ! وهو يفكر !
أكثر من روح تسجل فى سكون
مالا يسمعه جمهور العامة .
يرثى للذين يزرون به ؛
وكم من حكيم زائف يضحك عاليا من كلامه
وفكر فى همس وسكون . (...)
أيتها الشعوب ؟ استمعوا للشاعر !

استمعوا للحاكم المقدس !

في ليلكم ، الحالك بدونه ،

هو وحده مضيء الجبين .

يكشف أطياف الأزمان القادمة .

هو وحده الذى يميز على جوانبها المعتمة

النطفة التى لم تتفتح .

إنسانا ، هو رقيق كامرأة .

الله تعالى يهمس له فى روحه .

كما يهمس للغابات والأمواج .

هو الذى ، بالرغم من الأشواك ،

والحسد والاستهزاء .

يمشى ، محنيا فى أطلالكم ،

ينتشل التقاليد .

ومن التقاليد الولادة ،

يخرج كل ما يستر العالم

كل ما يمكن أن تباركه السماء .

كل فكرة بشرية أو إلهية

تجعل من الماضى أصلا (جذرا)
وأوراقها المستقبل .

الشاعر هو الذى يشع ! ينشر وهجه على الحقيقة الخالدة ،
ويجعلها تتلألأ بنور رائع
من أجل الروح .
ويفيض بنوره
على المدينة والصحراء ، على اللوفر والكوخ
وعلى السهول وعلى الأعالى ؛
يكشف عنها للجميع من علٍ .
لأن الشعر هو الكوكب
الذى يقود إلى الله الملوك والرعاة .

(الأشعة والظلال)

(هنا يتجلى الحب الذى يجمع البشر على اختلاف بيئاتهم وأوطانهم : التضامن الإنسانى.

بعد المقدمة التى تفرض على كل إنسان أن يعمل داخل المجموعة ، يركز (هوجو) على الدور

القيادى للشاعر الذى يشبه دور النبى المرسل ، يحمل الشعلة ليضىء للناس الطريق إلى المستقبل ، غير مكترث بموقف الغوغاء ، يستوى عنده المديح والذم ، التقدير والازدراء . ولكنهم ينبغى أن يستمعوا له ، فهو وحده الذى منحه الله القدرة على استشراف المستقبل، فالشاعر وحده هو الذى يأخذ بأيدى الجميع إلى طريق الله .

في القصيدة الثانية بعنوان " سأذهب " يبلور الشاعر دوره الرّيادى ، فهو يقتحم الصعاب ويأتى بالخوارق) .

لويس أراجون (١٨٩٧ - ١٩٨٢)

كان (أراجون) لا يزال طالبا فى الطب حينما تعرف عام ١٩١٧م على (أندريه بروتون) أو " بابا السريالية " ، كما كان يطلق عليه . وانطلق الشاعران معا يخوضان مغامرة السريالية ، وكان لأراجون نشاط سياسى مكثف، امتد حتى فترة الاحتلال الألمانى لفرنسا، تميز بالمواقف الوطنية ، كما كان يشرف فى السر على إصدار جريدة " الآداب الفرنسية " .

ومن الجدير بالذكر أن إنتاج (أراجون) فى أخريات حياته زاد قوة وغزارة . كان (أراجون) روائيا ، وشاعرا ، ظل حتى بعد وفاته ، بالإضافة إلى مواقفه السياسية العظيمة ، علما من أعلام القرن العشرين ، ولقد تجاوزت شهرته عالم الأدب ليصبح رمزا للإنسان الصادق مع نفسه ، رغم اعترافه بتناقضات حياته ، الإنسان الذى يسعى تحت أية ظروف ، وبكل إخلاص إلى معرفة حقيقة نفسه .

الشعراء

أنا أسمع ، أسمع الناس هنا
وعلى الدرب يمر الناس
أكثر مما استمع لقلبى استمع لهم
الدنيا سوء ، قلبى متعب

ولأنَا لا نملك إقداما
ولأنَا لا نملك جرأة
كل يجرى ولا شيء تغيَر
وعلى الأخطار تعودنا

العمر يمر ولا شيء يتم

فى الربيع بماذا كنت تحلم
نأخذ يد من يلقانا

آه ضع الكلمات على اللوح
من يحسب الزمن الضائع

كل هاتيك الوجوه ، هاتيك الوجوه
كثيرا ما رأيت منها بؤساء
فماذا صنعت من أجلهم
سوى بذل الشجاعة بغير حساب

سوى الغناء الغناء الغناء
لكى تكون الظلمة بشرية
كيوم أحد فى الأسبوع
وكمثل الأمل فى الحقيقة
رأيت كثيرين منهم يمضون
ما كانوا يطلبون سوى بعض الدفء
كانوا يقنعون بالنزر القليل
وكانوا قليلا ما يغضبون

أسمع وقع أقدامهم ، أسمع أصواتهم
يقول الكلام العادى المبتذل

كمثل الذى نطالعه فى الصحف
كمثل الذى نقوله فى المساء فى بيتنا

ما صنع بكم من رجال ونساء
يا حجراً أخضر لا يلبث أن يبلى
وملامحكم التى تحطمت
رؤياكم تنزع منى الروح

الأمور تمضى كما تمضى
أحيانا تتزلزل الأرض
والمصيبة تشبه المصيبة
عميقة عميقة عميقة
تودّون أن تؤمنوا بالسماء الزرقاء

أنا أعرفه هذا الإحساس
وأؤمن به فى بعض الأحيان
كما تؤمن القنبرة بالمرآة

أعتقد ذلك فى بعض الأحيان ، هذا اعتراف
لدرجة أنى لا أصدق أذنى

فأنا أشبهكم ، أنا مثلكم
أنا فعلا شبيه لكم

شبيه لكم كحبات الرمال
كالدماء التى تراق
كالأصابع التى دوما تجرح
آه أنا منكم وإليكم

كم كان بودى أن أساعدكم
أنتم يا نسخًا منى
لكن ما ألقيه من قول عبر الرياح
من يدرى إذا كنتم تسمعونه

كل شىء يصيع هباء ولا شىء يؤثر فيكم
لا كلامى ولا يداى
وأنتم فى طريقكم تمضون
دون أن تعرفوا ما تقوله شفتاى

ومع كل فجحيمكم جحيمى
فنحن نعيش فى مُلك واحد

وإذا أدميتم فأنا أيضا أدمى
وأموت وأنا مكبَل بقيودكم

وفى أى زمان وفى أى مكان
كم تمنيت من كل قلبى
أن أكسب من أجلكم وأخسر من أجل نفسى
وأن أكون ذا نفع لكم لو استطعت

هذا حلم متواضع ومجنون ما كان أحرى أن نخنقه
سوف تدفنوننى معه
كالنجم فى قاع الحفرة .

(الشاعر هو أول من يشعر بشعور الآخرين: " أستمع لهم أكثر مما أستمع لقلبى " . وهو يتضامن مع الجماهير فى محنها و وبأسائها وضرائها . لأنه منهم : " فأنا أشبهكم ، أنا مثلكم، أنا فعلا مثلكم، شبيه لكم كحبات الرمال". ولكن لأنه شاعر ، لا يملك سوى الكلام . "كان بودى أن أساعدكم ، أنتم يا نسخًا منى . لكن ما ألقيه من كلام عبر الرياح ، من يدرى إذا كنتم تسمعونه " .

ولأنه شاعر ، فلربما يتكلم بلغة غير لغة العامة ، لذلك فإن "كل شيء يضيع هباء" ، "ولا شيء يؤثر فيكم ، لا كلامي ولا يداى ، وأنتم في طريقكم تمضون ، دون أن تدركوا ما تقوله شفتاى" .
لا يمنع ذلك الشاعر من حب الناس ، بل وإيثارهم على نفسه : "كم تمنيت من كل قلبي أن أكسب من أجلكم وأخسر من أجل نفسي وأن أكون ذا نفع لكم إن استطعت".) .

جان فونتانييه

من مواليد مدينة (تولوز) إحدى معاقل لهجة جنوب فرنسا فى القرون الوسيطة . تخرج فى كلية الحقوق ومارس المحاماة فى المحكمة التجارية فى مسقط رأسه . وقد أتاح له هذا العمل فرصة الاهتمام بالأدب والشعر بوجه خاص . بل لقد سمح له العمل فى المحاماة وقرض الشعر إشباع هواية حبيبة إلى نفسه وهى فلاحة البساتين ، وبالذات زراعة الفواكه . وقد تمكن من استصلاح مساحة شاسعة من الأراضى البور كانت تابعة لإحدى الأديرة وجعل منها على حد قوله " أجمل قصيدة نظمها فى حياته " .

وعلى الرغم من نبوغه الشعرى إلا أنه لم يعدّ نفسه شاعرا من الشعراء . وظلت قصائده فترة طويلة لا تخرج من محيط الأسرة ودائرة الأصدقاء والزملاء ، فحتى عام ١٩١٦ لم يكن قد نشر من شعره الرائع سوى بعض القصائد الحماسية بمناسبة الحرب وأهوالها وتوابعها .

لقد ظل " جان فونتانييه " بعد ذلك أربعين سنة كاملة لا ينشر شيئا من شعره ، وفى عام ١٩٥٦ ، وبعد إلحاح شديد من أصدقائه ، ودعمًا لترشيح نفسه لمنصب إدارى كبير فى المدينة ، وافق الشاعر على نشر مجموعة من قصائده فى ديوان .

ويصف الأمين الدائم لأكاديمية " تولوز " الشعرية هذه المجموعة بأنها تفيض رقة وعذوبة . كما أنها تتميز بالسهولة من نوع السهل الممتنع . وبالرغم من إدراك الشاعر لأحوال الحياة البشرية وأكدارها ومعاناته لها ، غير أن ذلك كله لم يتمكن من أن يمحو الأمل أو يطمس الابتسامة التى تشرق دائما من خلال أشعاره . حتى فكرة الموت لم تخل من شعور بالرضا والصفاء .

إن ما يطبع هذا الشعر من هذه المشاعر الإيجابية إنما جاء ثمرة مجاهدة شديدة للنفس ومغالبة لنزواتها ونزعاتها ، وتطهير لها من أدران العبودية وتخليص لها من عوامل التمرد والتبرم ليخرج بها من معركة الحياة راضية مطمئنة .

ديوان فونتانييه الوحيد بعنوان " هدايا الصمت " حظى بتتويج وتقدير " جمعية شعراء فرنسا " ، هذا النجاح دعمه الشاعر بنجاح آخر حينما فاز بعضوية مجمع الخالدين أو مجمع اللغة الفرنسية .

لو كنت شاعرًا

لو كنت شاعراً ، ما أتعبت نفسى
فى نظم قصيدة . . .
لو كنت شاعراً ، لذهبت ذات صباح ،
فى عذرية الغسق ،
بيدىً ترتعشان ،
بين الضباب الذى يغشاهما ،
على مشارف السماء ، كى أجمع الصور ، أجمل الصور ،
وهى تنشر فى مجامع الذهب وأزرق الياقوت
بتلاتها ولّما تزل مجنونة بفعل ذرات الندى .

وبعدها ، أيمم شطر المعاجم ، معجم اللغة
فألتقط أنضر الكلمات ، وأعذب الألفاظ ، غير المعفرة ،
أكثر الكلام سهولة ويسرا ، وانسيابا فى الحلوق ،

من الكلام ذى الوميض ، ذى البريق ،
"كترتر " الفرح ،
كالحرير على شفتين تعترفان ،
وبيدىّ الحانيتين ؛ وكيفما اتفق ،
أمزج الصور ، أجمل الصور ،
بأبهر المقاطع ، وأزهر الفقر .
وكيفما اتفق ، كساحر لا يكترث ،
أترك للنزوة والمصادفة
حرية المزاوجة .

وبعدها ، وعند أقرب الأنهار

ألقى بهذا الحمل ،
حملى من الأنوار ،
فوق المياه ،
فيحمل النهير الحبيب حزمتى ،
من الألوان والأصوات ،
إلى حيث يعلم الله وحده نهاية المطاف .
فإذا الأحبة فى الحقول ،

والشيوخ على مشارف الفصول ،
تشرئب رءوسهم لرؤية المعجزة ،
تحملها موجة النور الهائلة .

وإذا بهم جميعهم وقد أفاقوا ،
لا يصدقون عيونهم فيهتفون :
" ما هذا الذى جاء من السماء ليمر فى النهر ؟ "
وإذا بهم جميعهم بلا هموم ،
وإذا بهم جميعهم بلا كدر .

لو كنت شاعرا ،
ماذا عسى يفيدنى نظم القصيد ؟

(حينما يريد الشخص أن يعبر عن حبه لشخص آخر ، يقدم له وردة . والشاعر الذى يحب جمهوره يصوغ لهم ورودًا على طريقته ، ويقدمها أيضا بطريقته . وإذا كان (بودلير) يرمز إلى هذه الحقيقة بأن جعل الطائر (الشاعر) يشق صدره ليقدم قلبه غذاءً لصغاره (الجمهور) ، فإن (فونتانييه) يصنع هديته من الصور الجميلة

والألوان اللطيفة والألفاظ العذبة. ثم يمزج ذلك كله ويلقيه فوق مياه النهر الذى يصل به إلى الجماهير المنتظرة ، ليغسل أدرانهم ، ويبدد همومهم ، ويدخل السعادة على قلوبهم . هل هناك وظيفة للشعر أنبل من هذه الوظيفة ؟ قطعا ، شاعرنا هنا ليس من طائفة الشعراء المذمومين الذين فى كل وادٍ يهيمون ، ويقولون مالا يفعلون) .

جاك بريفير (١٩٠٠ - ١٩٧٧)

عن الشاعر ، انظر قصيدة (" أغنية الأطفال " في الحب ... التضامن) .

قوقعتان تشاركان فى جنازة

خرجت قوقعتان
لحضور جنازة ورقة شجرة ميتة .
خرجت قوقعتان .
وعليهما صدفتان سوداوان .
خرجت القوقعتان متشحتين بصدفتين سوداوين .
وحول قرونهما كروشيه من الكريب دى جورجيت
من الكريب دى جورجيت الأسود .
خرجت القوقعتان فى عتمة المساء .
خرجتا ذات مساء من أمسيات الخريف الرائعة .
وللأسف ؛ حينما أشرفتا على الوصول
كان الربيع قد أهل .
وإذا بأوراق الشجر التى كان قد توفاها الله
تبعث للحياة من جديد . . .
وإذا القوقعتان فى حرج شديد .

ولكن ها هى الشمس تلمحهما
ترحب بهما ، وتقول لهما :
لا عليكما ، تفضلا بالجلوس
وإذا شئتما ، اشربا كأسين من العصير
ثم عليكما بالحافلة الذاهبة للعاصمة
سترحل فى المساء .
وفى انتظارها ، تفرجا على الناحية .
ولكن ، دعكما من الحداد .
هذه نصيحتى .
فهو يسود البياض فى العيون
ينال من إشراقة الجبين .
ثم إنه يقبح الجمال عن يقين .
إن موال التوابيت والنعوش .
من المواويل الكئيبة الحزينة .
عودا لألوانكما الأصلية .
لألوان الحياة الصافية .
وفجأة إذا بكل الطيور والبهائم
والشجر والنبات

تشرع في الغناء
بأعلى عقيرة .
أغنية حقيقية ، تفيض بالحياة
أغنية الصيف الجميلة .
وإذا بمجموع المخلوقات البرية
تشرب الأنخاب
وتجرع الكئوس .
ياله من مساء !
مساء صيف جميل ! . .
وإذا بالقوقعتين تنصرفان
تنصرفان عائدتين ، متأثرتين ، سعيدتين .
فقد أسرفتا في الشراب .
وجعلتا تتمايلان ، ذات اليمين وذات الشمال .
لكن قمر المساء ، في صدر السماء ،
كان يرقبهما ويرعاهما .

(مرة أخرى مع شاعر الحب والتضامن ، شاعر الأطفال والمرأة والمظلومين . ومرة أخرى يحاول (جاك بريفير) تسلية أحبائه والتفريج عنهم .

وهذه المرة يتجاوز الشاعر فى حبه وتضامنه عالمنا المحدود ، إلى عالم الحيوان والنبات (العنوان الكامل للقصيدة هو: قوقعتان تشاركان فى جنازة ورقة شجر ميتة) ونحن هنا أمام تضامن داخل التضامن ، على طريقة المسرح داخل المسرح . فبالإضافة إلى تضامن الشاعر مع الأطفال الذين يسليهم بحدوتته ، هناك تضامن القوقعتين مع الفقيدة وقيامهما بواجب العزاء نحوها . (على فكرة ، هذا من الدين أيضا . حيث من واجب المسلم على أخيه أن يمشى فى جنازته) . وأخيرا هناك التضامن الذى عبّرت عنه الشمس نحو القوقعتين ، ومحاولتها صرف الحزن عنهما ، وتسليتهما ، والتخفيف عنهما) .

جيرار دي نيرفال (١٨٠٨ - ١٨٥٥)

ولد جيرار دى نيرفال فى باريس عام ١٨٠٨ وفيها وضع حداً لحياته بالانتحار عام ١٨٥٥ .

تُوفيت والدته وهو فى الثانية من عمره ، وذلك بسبب الحمى التى أصابتها من جراء تنقلاتها الكثيرة بصحبة زوجها الذى كان طبيبا فى قوات نابليون في أوربا . كانت مصيبة الشاعر الطفل فى أمه هى الصدمة الكبرى الأولى في حياته . بعد ذلك تولى أمر تربية الطفل أحد أقربائه فى الريف كان يملك مكتبة عامرة بالكتب . وهكذا وجد " نيرفال " أثناء إقامته فى الريف الفرصة سانحة لإثراء المعارف وتوسيع آفاق الاطلاع . كما أن الحكايات والأساطير التى كان يسمعها هناك تركت بصماتها واضحة في وجدان الشاعر الصغير ، وظهرت آثارُها واضحة فيما بعد حينما بدأ نيرفال تجاربه الإبداعية فى الرواية والشعر .

اهتم " نيرفال " بالباطنية منذ شبابه الأول ، وهى الفلسفات المتعددة التى تهتم بمعرفة الحقائق الحقيقية كما يطلقون عليها ، أو الغوص وراء المعانى التى تكمن وراء الأشياء من دون الحقائق الظاهرة التى يراها ويعرفها عامةُ الناس .

كانت الصدمة الكبرى الثانية فى حياة نيرفال بعد وفاة أمه ، هى وفاة إحدى الممثلات التى كان الشاعر يكن لها حبا كبيرا . حدث ذلك فى عام ١٨٤٢ . وكان قبل ذلك بعامين قد فُجع فى موت سيدة أخرى كانت تُعَدُّ فى نظره تجسيدا حيا لأسطورة الأنثى الخالدة . كانت هذه السيدة بالنسبة للشاعر أشبه بالحلم تماما كأمه التى حرم منها قبل أن يعرفها .

توالت هذه الأحداث المؤسفة فى فترة وجيزة من حياة شاعرنا ، وهو بطبيعته مرهف الحس رقيق المشاعر مما أدى إلى إصابته بأزمة نفسية خطيرة وقد زاد من شدة هذه الأزمة اشتغال نيرفال بالعقائد الباطنية ومدارس التصوف المختلفة ، حتى اختلط عليه الواقع بالخيال .

كانت هذه الأزمة التى برئ منها ثم عاودته بعد ذلك ، تجربة على درجة بالغة من الأهمية على مستوى الإبداع الفنى عند الشاعر . فقد هيأت له حالة من الكشف الخارق للطبيعة ، والإدراك الذى يتجاوز حدود العادة . كانت الأزمة النفسية بالنسبة له أشبه شىء بعَرَصاتِ الجحيم ، واستطاع أن يحولها إلى وسيلة للمعرفة الروحانية التى سيطر عليها وتحكم فيها فى حالة من الوعى الكامل ومن الاستنارة البصيرية . بلغت هذه الحالة درجة " كان يواجه فيها نوبات الجنون التى تصيبه وجها لوجه " وذلك على حد تعبير الطبيب الذى كان يتولى علاج الشاعر .

الأبيات الذهبية

أجل ، كل محسوس «يحس» (بيتاغور)

أيها الإنسان ، أيها المفكر الحر
تخال نفسك وحدك المفكر
فى هذه الدنيا التى يتدفق فيها كل شىء بالحياة ؟
حر التصرف فى القوى التى سخرت لك
ولكن فى جميع قراراتك ، العالم غائب من حسابك .

راع فى البهيمة البكماء روحا تتصرف :
وفى كل زهرة نفسا للطبيعة تتفتح ؛
فى المعدن الأصم سرًّا مستقرًّا من الحب ؛
كل محسوس يحس ، وكل شىء عليك قادر .

أتق فى ثنايا الجدار الضرير نظرة تترصدك :
بل وفى المادة الصماء كلاما ينعقد . . .
فلا تسخرها فى أمر نكر !

غالبا ما يضم النكرة إلها خافيا ؛
كمثل عين تتفتح تحت أجفانها
روح طاهرة تتنامى تحت قشر الشجر !

(من ديوان «الأوهام»)

(إذا كان في المعدن الأصم " سر مستقر من الحب " كما يقول الشاعر في البيت السابع، فمن باب أولى أن يكون مثل هذا الحب موجوداً في سائر الكائنات الأسمى ، من نبات وحيوان وبشر . والقصيدة في مجملها دعوة للإنسان بالتضامن والتكافل والتراحم والتعاطف مع غيره من المخلوقات ، فهي مثله تحس ، ما دمنا نحس بها ، كما يقول العنوان . فليس الإنسان هو العاقل الوحيد في الوجود ، بل كل ما في الوجود يعقل ولكن بطريقته ، يدرك ولكن بطريقته : (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم) . كما أن جميع المخلوقات رقباء على الإنسان ، "حتى الجدار الأصم فيه نظرة تترصدنا ") .

شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "البركة" فى "حب الخالق للمخلوق") .

السأم

إذا السماء الخفيضة الثقيلة جثمت أشبه بالغطاء
يطبق على النفس النائحة فريسةِ السأم المديد
وإذا طوقت سائر مدار الأفق البعيد
وصبت علينا نهارا أسود أشد حزنا من الليل البهيم ؛

و إذا الأرض استحالت زنزانة " رطبة باردة
الأمل فيها كخفاش ينطلق
لا ينفك يضرب الجدران بجناحه المهيض
ويرتطم برأسه في الأسقف النتنة ؛

وإذا الأمطار نشرت سلالها الهائلة
تحاكي قضبان السجون العالية
وإذا فلول العناكب الخرساء الذميمة
بسطت خيوطها في أعماق عقولنا ؛

حينئذ ، وعلى حين بغتة ، تُدوى أجراسٌ مسعورة
تصوب نحو السماء صراخا محموما ،
أشبه بأرواح هائمة لا موطن لها
تأخذ فى الأنين فى إصرار عنيد .

ونعوش طويلة ، لا طبول لها ولا ألحان
تتخطر بطيئا فى أعماق روحى أنا
حينئذ ، ينخرط الأمل المقهور فى البكاء .
وإذا بالجزع الممض المستبد
يغرس في جمجمتي المنكسة لواءه الأسود .

(من ديوان «أزهار الشر»)

(اشتهر بودلير بما يعرف بأسلوب "التداعيات" أو "التواصليات" وهو يتلخص فى التحول من الوصف الموضوعى الخارجي إلى الوصف الذاتي الداخلى . وتأثير الظاهر على الباطن .

هذه القصيدة تبدأ بعرض المشهد الخارجى أو حالة الطقس ، فواضح أننا فى فصل الشتاء وأن الوقت مساء والسماء ملبدة بالغيوم . ثم يعقد الشاعر علاقة توافقية بين هذا المشهد وبين الحالة النفسية عند الشاعر ، بين معنويات الشاعر المتدنّية ، وبين الظروف الطقسية الكئيبة المقبضة ، وهو لون من التضامن بين الإنسان والطبيعة . إن حزن الشاعر وكآبته انطباع وثيق الصلة بالطقس السائد) .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

أردت حب الأشياء جميعا والناس

أنا أردت حب الأشياء جميعا والناس ، وأنا حزين .
لأننى استكثرت من أسباب عذاباتى وشقائى .
روابط لا حصر لها ، ضعيفة هشة ، تقيدنى إلى الأشياء .

كل ما فى الكون يفتتنى ، سواء بسواء .
الحق بنوره والمجهول بضباباته .
وهج ذهبى مضطرم يصل قلبى بالشمس ،
وبالنجوم تربطه خيوط حريرية طويلة .

حياتى معلقة بهذه العرى الواهية الضعيفة .
وأنا أسيرٌ للآلاف من الأشخاص الذين أحبهم .
على أثر أدنى نسمة ريح تصيبهم ،
أشعر بأن بعضا من روحى ينخلع من صدرى .

(كانت أول مجموعة شعرية نظمها (سوللى برودوم) بعنوان " أشعار وقصائد"، وقد وضعت هذه المجموعة صاحبها من أول وهلة فى مكانة متميزة بين شعراء عصره ، حيث كشفت عن شاعر متمكن من أدواته ، متعمق فى فهم الطبيعة البشرية ، يتمتع برقة فى الأحاسيس وعذوبة فى التعبير ، تربطه بالبشر جميعا وعلى اختلاف مشاربهم عرى وثيقة لا تحصى ولا تعد من الحب والتضامن، يفرح لفرح الآخرين ويتألم لآلامهم ، ولعل أبيات هذه القصيدة خير دليل على ذلك) .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

العيون

زرقاء أو سوداء ، كلها محبوبة ، كلها جميلة ،
عيون لا حصر لها خرجت إلى النور ؛
ترقد فى قاع القبور
والشمس تشرق من جديد .

الليالى الأرقّ من الأيام
فتنت عيونًا لا حصر لها ؛
الكواكب لا تزال تتلألأ
والعيون بالظلمة امتلأت .

أوه ! يقولون فقدت الإبصار ،
كلا ، كلا ، هذا مستحيل !
لقد اتجهت ناحية أخرى ،
نحو ما يسمونه غير المنظور ؛

وكما تغادرنا الكواكب الآفلة
لكنها تبقى في السماء ،
فالحدقات أيضًا لها غروبها ،
لكنها لا تموت ؛

زرقاء أو سوداء ، كلها محبوبة ، كلها جميلة ،
مفتوحة على غسق هائل ،
في الجانب الآخر من المقابر
العيون التي نغلقها لا تزال ترى .

(من ديوان «الحياة الباطنية»)

(يتحدث (سوللى برودوم) في بعض قصائده عن الروابط الكثيرة التي تقيده بجميع الأشياء وجميع الناس ، وعن حبه لجميع المخلوقات بحيث إنه لا يحتمل أي ضرر يمس أحدًا من الناس :

" على أثر أدنى نسمة ريح تصيبهم
أشعر بأن بعضا من روحي ينخلع من صدري " .

ومن ثم فهو لا يستطيع أن يعترف بالموت الذي يصيب البشر ، ويعتبر أن هذا الموت إنما هو

تحـول من حـال إلى حـال أخـرى ، وأنه ليس فناءً كـامـلا ، على شـاكلة الكواكب فـى السـمـاء ، فـهى حـينمـا تخـتـفى عن أنظارنا فليس مـعنى هذا اختفاؤها ، بل هى باقية فى السمـاء . كل ما هناك أنها فى حـالة غروب . كذلك العيون "لها غروبها ، لكنها لا تموت " وتظل "مفتوحة على غسق هائل ، فى الجـانب الآخر من المقابر ، العيون التى نغلقها لا تزال ترى" . إن تضـامن (سـوللى برودوم) يتجاوز الأحياء إلى الأموات.

فرانسوا كوبيه (١٨٤٢ - ١٩٠٨)

نشر (فرانسوا كوبيه) أول دواوينه وهو فى سن الرابعة والعشرين بعنوان (المدين) ، ثم ديوان (الخصوصيات) عام ١٨٦٨ . ثم قدم مسرحية على مسرح الأوديون عام ١٨٨٩ بعنوان (عابر سبيل) . بعد ذلك توالت الدواوين، عاما بعد عام. وكذلك المسرحيات. وفى عام ١٨٨٤ ، اختير كوبيه عضوا فى المجمع الفرنسى . وبالرغم من النجاح فى الحياة الأدبية ، وكثرة المبيعات لكتبه ، والفوز بعضوية مجمع اللغة الفرنسية ، ظل (كوبيه) الإنسان المتواضع الأعزب الذى نذر نفسه للفن والأصدقاء ، مما انعكس على دواوينه الشعرية، وبالذات (الخصوصيات) ثم (البسطاء) ثم (نزهات ودخائل) ، حيث تجلت رؤية الفنان الصادقة . وقد أثر ذلك كله فى كل من (بودلير) و (فيرلين) و (رامبو) .

موت الطيور

في المساء ، في ركن المدفأة ، فكرت مرات عديدة ،
في موت طائر ، في مكان ما من الغابة .
ففي أيام الشتاء الحزينة الرتيبة ،
نرى أوكار الطيور الخالية ،
التي هجرها أصحابها ،
تتأرجح في الرياح العاصفة .
على سماء مضبّبة قُدّت من حديد .
أواه ! كيف ينبغي أن تموت الطيور في الشتاء
ولكن ، حينما يقبل زمن البنفسج ،
لا نعثر على هياكلها الرقيقة .
فهل ، في العشب الذي نجري فوقه في شهر أبريل ،
تختبئ الطيور لكي تموت ؟

(نزهات ودخائل)

(هذه القصيدة التى تنطق بالبساطة والحساسية المفرطة التى تميز شاعرها ، وبالوضوح الذى هو من قبيل السهل الممتنع ، هل تحتاج إلى شرح أو تعليق ؟ هل نحتاج أن نقول إنها تعبير صادق عن تعاطف شديد، ليس مع بنى البشر ، وإنما مع مخلوق ضعيف ضائع فى غابة فسيحة لا يلتفت إليه أحد ، ولا تزعج مأساته أحداً ، اللهم إلا شاعر مرهف الإحساس صادق الرؤية ، تربطه ، مثل زميله " برودوم " ، أربطة وثيقة " بجميع الناس والأشياء ؟ ") .

لوكونت دى ليل (١٨١٨ - ١٨٩٤)

لم يكمل (لوكونت دى ليل) دراسة الحقوق ، فتركها بعد أربع سنوات إلى الأدب . وأصدر جريدتين الأولى بعنوان (منوعات) ، والثانية بعنوان (العقرب) . نشر في بعض الصحف بواكير إنتاجه من الأقاصيص والقصائد . اهتم بالسياسة وانخرط فيها ، لكنه لم يلبث أن تحول عنها بعد أن خاب أمله فيها ، وكرس حياته للإبداع الشعرى . ونشر عدة دواوين : (قصائد قديمة) و (قصائد وأشعار) ثم (أشعار كاملة) . غير أن الشهرة لم تتحقق للشاعر إلا بعد عام ١٨٦٦ ، حينما بدأ يتعاون فى تحرير جريدة (البارناس المعاصر) لسان حال الحركة البارناسية . فبدأ ينشر سلسلة ترجماته الشعرية لأمهات نصوص العصور القديمة . بعد ذلك أصدر ديوانين : الأول بعنوان (قصائد بربرية) والثانى بعنوان (قصائد فاجعة) وقد قدم فيكتور هوجو للديوان الأول معبرا عن إعجابه بالشاعر . ويتجلى فى أشعار (دى ليل) مذهب " الفن للفن " فى مواجهة الشطط الرومانسى السائد فى عصره . لا يمنع ذلك أن (دى ليل) شاعر من شعراء الحب ، تفتنه الطبيعة التى لا ينفك يتأملها فى سائر إنتاجه . وإذا كان (دى ليل) قد زوّد تلامذته بمواصفات الكمال الشكلى فى الإبداع الشعرى ، إلا أنه لم يتمكن من

أن ينقل إليهم ما يمكن أن نُطلق عليه " أسرار ضرورة الكتابة ".
فى عام ١٨٨٦ ، اختير (دى ليل) عضوا فى مجمع اللغة الفرنسية ، ليشغل المقعد الذى كان يشغله (فيكتور هوجو) شاعر فرنسا الأعظم .

نعاس القندور(*)

فيما وراء درجات سلاسل " كورديلير "
الجبلية الوعرة ،
وفيما وراء الغيوم التى تغشاها النسور السوداء ،
وفيما أعلى من القمم المقعرة على شكل أقماع
وحيث يفيض المدّ الدامى
لسوائل البراكين المنتشرة ، المألوفة
بعرض جناحه المتدلى الأحمر فى بعض أجزائه ،
جعل الطائر الهائل ، وقد غلبت عليه بلادة عابسة ،
ينظر إلى قارة أمريكا والفضاء فى سكون ،
والشمس المعتمة التى تموت فى عينيه الباردتين .
الليل يلف من الشرق ، حيث سهول البامبا البرية
تحت الجبال المتدرجة تمتد بلا نهاية ؛

(*) أكبر الطيور .

ويُنيم شيلي ، والمدن ، والشطئان ،
والبحر الباسيفيكي والأفق الإلهي ؛
لقد استولى على القارة الصامتة :
على الرمال ذات التلال ، وعلى المضايق
ذات السفوح ،
ومن قمة إلى قمة ، راح يضخم الغشيان
الثقيل لمده العالي ، في زوايع متنامية .
أما هو (القندور) ، فأشبه بالطيف ، وحيدا ،
في مواجهة القمة المتشامخة ،
غارقا في نور يدمي فوق الجليد ،
ينتظر هذا البحر الشؤم الذي يحاصره :
فيصل وينشر أمواجه ويغطيه بالكامل .
في الهوة بلا قاع راح الصليب الأسترالي
يضيئ منارته المرصعة بالنجوم على جوانب السماء .
أما هو (القندور) فجعل يحشرج من اللذة ،
وحرك جناحه ،
ونصب رقبته ذات العضلات المجردة من الشعر
وارتفع وهو يجلد جليد الإنديز الوعر ،
وفي صرخة مبحوحة صعد حيث لا تبلغ الريح .
وبعيدا عن الأرض السوداء ، بعيدا عن الكوكب الحي ،

خلد إلى النوم في الهواء المتجمد ،
باسطا جناحيه بأكملهما .

(من ديوان «قصائد بربرية»)

(يُعد لوكونت دي ليل مصوّرا بارعًا للحيوانات الغريبة بالذات عن البيئة الأوروبية . فهو يصف أجسامها في دقة فائقة كما يصف حركاتها ، ويحلل غرائزها وانطباعاتها ، بحبٍ وشغف لا يكونان إلا من شاعر ينفتح على جميع الكائنات ، ويهتم بسائر العوالم ، مع ما يجشمه ذلك من المشقة والمخاطرة . فكيف يتسنى للشاعر الوصول إلى المرتفعات الهائلة والاقتراب من ذلك الطائر العملاق (نحن في منتصف القرن التاسع عشر) لكي يلاحظ تحركاته وردود أفعاله التي تدور مع دورة الشمس . فالقندور، وهو مشرف على أعلى القمم الجبلية ، يرقب الصراع الأبدي الأزلي بين الشمس والليل قبيل الغروب ، وهو صراع من نوع درامي ، وما إن يغشى الليل الشمس ويقهرها في هذا الصراع ، حتى ينهض القندور ، ويرتفع ، ويبتعد عن مجال الليل إلى حيث لا يزال ضوء الشمس. وبذلك يقهر الليل الذي قهر الشمس . ويعبر عن سعادته في صرخة مبحوحة ويخلد إلى النوم) .

ألفريد دى موسيه (١٨١٠ - ١٨٥٧)

(ألفريد دى موسيه) سليل عائلة أدبية ، وبخاصة جده لأبيه الذى كان صديقا للعديد من فلاسفة القرن الثامن عشر . كما قام أبوه بنشر أعمال (جان جاك روسو) .

هجر (ألفريد دى موسيه) دراسة القانون ثم الطب ، إلى حياة السهر والعربدة ، وانضم إلى المنتدى الأدبى الذى كان يشرف عليه فيكتور هوجو . كانت باكورة أعمال (دى موسيه) مجموعة من القصائد بعنوان (حكايات من إسبانيا وإيطاليا) .

أول كارثة حلّت بالشاعر كانت وفاة أبيه ، مصابا بوباء الكوليرا عام ١٨٣٢ . مما اضطر الفتى إلى العمل لكسب قوت يومه ، فانضم إلى لجنة تحرير مجلة (العالمان) وكتب بعض المسرحيات . وفى عام ١٩٣٣ عرف (جورج صاند) وكانت قصة حب انتهت بعد أشهر . ثم تجددت ثم انقطعت عدة مرات .

فى تلك الفترة كتب (موسيه) روائعه المسرحية : (فانتازيو) ، (لا مزاح فى الحب) ثم (لورينزا تشو) كما كتب مذكراته التى طبعها عام ١٨٣٦ بعنوان (اعترافات فتى العصر) وكانت القطيعة النهائية مع (جورج صاند) تردد بعدها على الصالونات الأدبية . وكتب ديوانه

الشــهـيـر بعنوان (الليـالى) ويضم مـايو ، ديسـمـبـر ١٩٣٥ ، يونيـو ، أغسطس ١٩٣٦ ، أكتـوبر ١٩٣٧ ، كمـا تـابع إنتـاجـه المسـرحى فكتب رائعتين (لا ينبغى أن نجزم بشىء) و (نزوة) . تبع ذلك فترة عصبية فى حياة الشاعر ، كثرت فيها علاقاته الغرامية الفاشلة ، مما دفعه إلى الإسراف فى الشراب ، الأمر الذى أصابه بالعديد من النوبات العصبية والمرض . ومع ذلك فقد تمكن من إتمام مسرحية (الباب يجب أن يكون مفتوحا أو مغلقا) وبعض القصائد . ومع فوزه بعضوية مجمع اللغة الفرنسية عام ١٨٥٢ ، إلا أنه أمضى بقية حياته فى شبه عزلة وعقم إبداعى ، غارقا فى الشراب . وفى عام ١٨٥٧ مات (موسيه) ولم يحفل بموته أحد ، بل ولم يشـارك فى جنازته إلا الأقـربون وانتـهت أسطورة (موسيه) أحد أعمدة الرومانسية ، وسط اللامبالاة العامة ، على النقيض من (فيكتور هوجو) مثلا الذى أقيمت له جنازة رسمية .

ليلة مايو

الشاعر

إن كنت لا تبغين يا شقيقة روحى ،
سوى قبلة من شفة صديقة ،
ودمعة من عينىّ ،
فإنى باذلهما لك دون مشقة ؛
أما غرامياتنا ، فتذكريها
حين تصعدين إلى السماوات ،
أنا لا أتغنى بالأمل ،
ولا بالمجد ، ولا بالسعادة ،
وا أسفاه ! بل ولا حتى بالعذاب .
إن فمي يلزم الصمت
لكى ينصت لما يقول القلب .

عروس الشعر

أتظن إذن أنى كريح الخريف
التى تقتات على الدموع حتى فوق القبر .
والتى يعدّ الألم بالنسبة لها مجرد نقطة ماء ؟
أيها الشاعر ! القبلة ، أنا التى أعطيك إياها .
إن العشب الذى أريد انتزاعه من هذا المكان ،
هو البطالة ؛ إن الألم الذى يصيبك من الله .
مهما كان الهم الذى يُعانيه شبابك ،
دعه ينداح ، هذا الجرح المقدس

الذى أصابك به الملائكة السود فى سويداء قلبك ؛
فلا شىء يجعلنا عظاما سوى ألم عظيم .
ولكن ، لكى تصاب به ، لا تظنّن ، أيها الشاعر ،
أن صوتك فى هذه الدنيا ينبغى أن يلزم الصمت .
إن أجمل الأشعار هى أكثرها يأسا وقنوطا .
وأنا أعرف أشعارا خالدة ، هى مجرد بكاء ونحيب .

(من أغنى القصائد بمعانى الحب : حب الخالق للمخلوق ، فى شكل موهبة الإبداع الشعرى التى منحها الله للشاعر من دون عامة الناس . وحب المخلوق للخالق ، فى شكل إطاعته تعالى ، بالاستجابة للأمر ، وتحمل الألم، وعدم الجزع منه ، معتبرا إياه تمحيصا من الخالق للمخلوق . ولكننا نميل لتصنيف هذه القصيدة فى الحب الغريب القائم بين الشاعر وبين عروس الشعر . ولا نقصد الجانب العاطفى منه ، مع أنه موجود ، ولكن الأهم فى رأينا هو الحب الذى يقوم عليه المعنى العام للقصيدة والهدف منها ، ألا وهو التفاعل الإيجابى بين المتحاورين الذى يستهدف تفجير الطاقة الإبداعية عند الشاعر ، لتتغلب على حالة اليأس والقنوط ، وتفرز عملا شعريا يرضى الجميع ويفيد البشر) .

(٤)

الحب ... إبداع

بول فيرلين (١٨٤٤ - ١٨٩٦)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " عند قدمى الرب " فى " حب المخلوق للخالق ") .

فن الشعر

الموسيقى قبل كل شيء ،
ولذلك عليك باختيار المقطع الأحادى
فهو أكثر غموضا وأكثر ذوبانا فى الهواء
دون أن يكون فيه ما يثقل أو ما يعوق .

كذلك لاحظ ، فى اختيار ألفاظك
ألا يتم ذلك بدون شيء من العفويّة
فلا أعز ولا أغلى من القصيدة الرمادية
حيث الدقة والظن يلتقيان .

كعيون جميلة وراء خُمر
كرابعة نهار ترتجف
كالزرقة المضطربة المرصعة بالنجوم المضيئة
فى سماء خريف دافئ

لأننا أيضا نريد التفاوت
ليس اللون ، وإنما حسبنا التفاوت
أوه ! التفاوت وحده هو الذى يقرن
الحلم بالحلم والناى بالبوق

ثم تأتى الطرفة من بعيد
فتغتال الروح القاسية والضحكة الآثمة
مما يبكى عيون اللازورد
وكل متبّلات المطبخ الوضيع

واقبض على البلاغة والو عنقها !
وتُحسن صنعا ، لو أنك فى غمرة الحماسة
خفّفت من غلواء القافية
فإن لم نحتط لها ، فإلام تقود ؟

أوه ! ما أكثر مثالب القافية !
طفل أصم أو زنجى مجنون
يصوغ لنا هذه الحيلة الرخيصة
التى تطن ولا طحين .
مزيدا من الموسيقى وعلى الدوام

ليكن شعرك محلقا طائرا
ينطلق من روح متحررة
نحو سماوات أخر وحب جديد .

ليكن شعرك المغامرة الحقيقية
المنتشرة مع ريح الصباح المتوتر
الذى ينبت النعناع والزعتر
وكل ما عدا ذلك لغو وثرثرة .

(من ديوان «الماضى البعيد والماضى القريب»)

(الشعر بالنسبة لـ (بول فيرلين) ليس سوى الموسيقى غير الدقيقة ، والقوافى العفوية غير المقصودة ، دون جهد فى "التأليف" ، دون "بلاغة" . كان فيرلين شاعرا فطريًا وقد مكّنته حساسيته المفرطة ، التى تتفاوت من الفحش اللاإرادى إلى الروحانية الدينية التى تبلغ حد الزهد، من أن ينظم قصائد غاية فى الروعة.

نظم (فيرلين) هذه القصيدة وهو فى السجن عام ١٨٧٤ ، ونشرت فقط عام ١٨٨٢ .

و(شـــارل مـــوريس) الذى يهـدى (فـيـرلين) إليـه القصـيدة كان أحد الشعراء الشبان الذين يبحثون عن طـــريق جديدة، ولجئوا إلى كـــل من (بودلير) و (رامبو) و (فيرلين) فى محاولة لتحديد ما أطلق عليـه فيمـا بعد " جمـاليـات الرمـزية " . وتعـد هذه القصـيدة بمثابة منشور الشاعر (فيرلين) ، منظوراً مخالفا للمدارس السابقة فى الشعر) .

بول فاليرى (١٨٧١ - ١٩٤٥)

بدأ (بول فاليرى) ينظم الشعر وهو ابن الثامنة عشرة . غير أنه تعرض لأزمة فكرية من جراء إمعانه النظر والتأمل فى طبيعة الفكر الإنسانى وأثر العقل الباطن على طريقة التفكير. حينئذ توقف عن الكتابة واعتزل الأدب . وكرس وقته فى معرفة ذاته والوصول إلى أغوار نفسه .

خرج (فاليرى) من هذا النشاط الجبار بأكثر من مائتين وخمسين كراسة نُشرت على مدى ست سنوات متواصلة ، فيما بعد ، أى بعد وفاة الشاعر ، فى الفترة من ١٩٥٧ حتى ١٩٦١

بعد أن نشر (فاليرى) بعض القصائد الرمزية أدرك أن الشعر فى حد ذاته لا يهمه ، فهو ليس سوى لون من ألوان النشاط الفكرى والتدريب العملى على المنهج الذى سنّه لنفسه فى التحليل النفسى والرياضى . وحاول أن يحيط بهذا النشاط فى لحظات مولده ونشوئه .

وقد كتب بهذا الخصوص دراستين : الأولى " مدخل إلى منهج ليوناردو دافنشى " عام ١٨٩٥ ، والثانية " سهرة مع السيد تست " عام ١٨٩٦ .

وعلى أثر إلحاح من الكاتب (أندريه جيد) صديق الشاعر ، قرر (بول فاليرى) فى عام ١٩١٢ أن يعود إلى قصائد شبابه ، ويعيد النظر فيها . ويضيف إليها " تمرينا " أثمر ، بعد أربع سنوات من العمل المتواصل ، قصيدته المشهورة ورائعته الأولى بعنوان " السفينة الشابة " والتى وصفها بأنها " تدريب " وتطبيق لمنهجه فى الفكر .

بين عام ١٩١٨ وعام ١٩٢٠، نظم فاليرى درّته الثانية بعنوان " المقبرة المطلة على البحر" أو " المقبرة البحرية " بالإضافة إلى عدة قصائد أخرى نشرت فى مختلف المجلات الأدبية . ثم كان ديوان " مفاتن " عام ١٩٢٢ وهو قمة أخرى من قمم فاليرى الشعرية .

يقول (فاليرى) عن نفسه : " لا شىء فى الوجود يثير اهتمامى إلا من زاوية علاقته بالعقل والذكاء . " ولقد كرس حياته كلها فى تطبيق هذا المبدأ على إنتاجه الإبداعى ، ومن ثم كانت إضافته الكبرى فى مجال الشعر ، والجديد الذى يميزه عن غيره من شعراء عصره .

لقد بلغت شهرة (فاليرى) ومكانته الأدبية حداً جعلت منه إحدى الشخصيات الرسمية فى فرنسا . كما خلعت عليه لقب " شاعر الدولة " و " فيلسوف الكلمة " . وأخيرا تُوج هذا المجد بترشيحه عضوا فى المجمع الفرنسى عام ١٩٢٥ ، وفى عام ١٩٣٧ عُين (فاليرى) أستاذا فى (الكوليج دى فرانس) وأصبح وقته موزعا بين الدرس الجامعى والمحاضرة العامة، وذلك حتى وفاته عام ١٩٤١ .

الخطوات

خطواتك يا بنات سكونى
وهى تحطّ بطيئة قدسية
عند فراش يقظتى
تتقدم صامتة وجامدة .

إنسان طاهر ، طيف علوىّ
ما أعذبها ، خطواتك الموزونة المحسوبة
يا آلهة ! . . . إن كل ما آمل من عطايا
يقبل نحوى على هذه الأقدام العارية !

لو كنت بشفتيك المتقدمتين
تبغين لساكن أفكارى
أن يهدأ أو أن يخمد
فتعدّين له وجبة قبلة

لا تنجزى وعدك المحموم
رقة الوجود والعدم
لأننى عشت من أجل انتظارك
وقلبى ليس إلا خطواتك .

(من ديوان «مفاتن»)

(حينما يجعل الشاعر العظيم العلاقة بين الشاعر أو المبدع وبين عروس الشعر علاقة حب عاطفى ، فلا نملك إلا أن نحييه . إن الشاعر القابع فى ركنه الساكن ، يحبس أنفاسه ، ترقبا وتهيؤًا للوحى الهابط ، أو عروس الشعر المقبلة (العروس هنا أرجح لأننا كما قلنا ، بصدد علاقة حب عاطفى بين رجل وامرأة) . أو هكذا أو همنا الشاعر بأدواته ومفرداته (خطوات ، بنات ، أقدام عارية ، فراش ، شفتان ، وعد محموم ، انتظار) .

شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "البركة" في "حب الخالق للمخلوق") .

خلوة الشاعر

أه ! كونى عاقلة يا وجيعتى ، وهدَئى من رعدتك .
كنت تبغين المساء ، ها هو ذا يهبط لك .
فإذا جو من الظلمة يغشى المدينة
للبعض يحمل الهموم ، وللآخرين السكينة .

بينما جموع البشر الخسيسة
تحت سوط اللذة ، ذلك الجلاد الذى لا يرحم
سرعان ما ستجنى الحسرات من حفل العبيد
هات يدك يا وجيعتى وتعالى هنا

بعيداً عنهم . انظرى إلى السنين الغابرات
تطل من شرفات السماء ، فى ثياب باليات
والندم الساخر يبزغ من جوف المياه

والشمس العليلة تنام على قوس سفينة
وأنصتي ، يا عزيزتي ، أنصتي لليل الوديع يتقدم
كأنه تابوت طويل يزحف على المشرق .

(الألم أثير عند الشعراء ؛ يصقلهم ويعتركهم ويمحصهم ويفجر شاعريتهم . ومن قبل قالها لامارتين " لا يصنع الرجل العظيم سوى الألم العظيم " .

بل إن (بودلير) نفسه يبارك هذا الألم كما يفعل في قصيدة له بعنوان (البركة) ، حيث يقول : تباركت ربي، تمنح الألم دواءً إلهيا لآثامنا ، وأنجع رحيق وأخلصه ، يهيئ الأقوياء للملذات المقدسة " . ويقول في موضع آخر من القصيدة نفسها " أعرف أن الألم هو الشرف الوحيد الذي لا تنال منه الأرض ولا الجحيم " .

ووجيعة (بودلير) أشبه بالمرأة المحبوبة الساخطة المتبرِّمة الثائرة ، يتودد إليها ويرجوها أن تهدأ ، وسط ضجيج الغوغاء . ويحاول أن ينأى بها بعيدا عن مواطن الندم والحسرة ، حيث المتع الحسية تستعبد غير الشعراء. فما أعظمه من حب ينشد للمحبوب الخير الحقيقي والسعادة الحقيقية .

وفى العقيدة ، إذا أحب الله عبدًا ابتلاه . والأنبياء أشد الناس ابتلاءً . فالابتلاء ، ومنه الألم والمرض، اختبار من الله .(احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) .

(العنكبوت : ٢)

بيير دى رونسار (١٥٢٤ - ١٥٨٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " يوم شاعر " فى " حب المخلوق للخالق ") .

رونسار وعروس الشعر

ما كدت أبلغ الخامسة عشرة من عمرى
إلا وكانت الجبال والغابات والمياه
أحب إلى نفسى من بلاط الملوك ،
وكان كل همّى السعى إلى الأدغال السوداء الكثيفة .
وإلى الصخور المنقورة بمناقير الطيور ؛
والوديان والمغارات والصحراء المخيفة ،
لكى أرى فى المساء الحوريات والجنيّات يرقصن تحت ضوء القمر .
فى المراعى والمروج ، حالما شارد البال
لكى أرى " السِّلفان " وقد صارت أرجلهم أرجل تيوس
وأياديهم أيادى بشر ، وقد برزت لهم فى الجباه
قرون أشبه بقرون حملان صغيرة .
وبعد الرقص كنت أحث الخطى ، وأنا خائف ، أقتفى
آثار الحوريات ، معتقدا أننى إذا وضعت قدمى
فى آثارهن المتربة

صارت نفسى أكثر كرما ومروءة
على نحو ما حدث لشاعر الإغريق " الأسكريان "
الذى أنشد حينما قلدته الغار إحدى الشقيقات التسع .
لذلك ، لم أنخدع بما وقع لى فى صدر شبابى :
حينما تناولت عروس الشعر الرقيقة " أوتيرب "
يدى اليمنى لكى تجعلنى من الخالدين ،
وغسلتنى تسع مرات بماء عين قلما يقصدها بشر ،
ثم عزّمتنى تسع مرات ثم نفخت أوداجها
ونفثت على رأسى ،
ثم نفضت عن شَعْرى كل خوف وفزع ،
وأفعمت فؤادى بطاقة الشعر الإلهية .
وهى تخاطبنى قائلة : " ما دمت تريد اتباعنا ،
فسنبعثك بعد الموت تحيا مرة أخرى سعيدا
متمتعا بشهرة مديدة وثناء عاطر ،
لا يأتى عليه النسيان ، بعد أن تثوى إلى قبرك .
غوغاء العامة سوف يصفونك بأنك مجنون أهوج ،
نفور شرس ، فاقد اللب عبوس ، لأن عامة الناس
تطعن فى الإنسان الذى تتعارض تقاليده مع تقاليدها .
ولكن تمسك بالشجاعة يا رونسار ،

فأعظم الشعراء
وعلاّمو الغيوب والعرّافون
والمخترقون للحجب والأنبياء
لا يلقون من عامة الناس
إلا السخرية والازدراء والإنكار
مع أنهم ، يا رونسار ، لا يقولون إلا الحق .
لا تتعشم أن تجمع أموالاً طائلة ومتاعًا حسنا
في هذه الحياة الدنيا ،
كل ما سترثه في دنياك هذه غابة أو مرجًا
أو جبلاً أو عين ماء
وستكون أسعد حالا
ممن يكنزون الذهب والفضة في بيوتهم .
ولن تتعرض لغضب ملك من الملوك
تثور ثائرته
فيطيح برقبتك في لحظة أو يصادر أملاكك .
ستعيش هنيئا ناعم البال في الآكام
من أجل عروس شعرك ، ومن أجل نفسك ؛ " .
هكذا قالت الحورية وهكذا كنت .
واحدا من مريدي " دورا "

الذى كان أستاذى لفترة طويلة .
علمنى الشعر وعرفنى كيف نكتم ونظهر
غير ما نضمر ،
فى روعة واقتدار .
وكيف نخفى حقيقة الأشياء ،
تحت رداء وهمَى تتسربل فيه .
تعلمت فى مدرسته كيف أخلد الرجال
الذين أريد تعظيمهم
واهبا لهم من مالى
كما أهب لك أنشودة الخريف
هدية أبدية خالدة .

(من ديوان «أنشودة الخريف»)

(حب (رونسار) هنا مختلف ، فهو حب نوعى ، يشعر به الشعراء من دون البشر ، حينما ينطلقون إلى الغابات والجبال والصخور والوديان والمغارات ، وغير ذلك من الأماكن الخالية ، سعيا وراء عروس الشعر التى تفجر طاقاتهم وتأخذ

بأيديهم فى طريق الخلود . وهى من أجل تحقيق ذلك ، وردًا على حبهم لها ، تمارس عليهم عمليات تطهير ورقية ، وتلقنهم النصائح التى يقهرون بها الصعاب ، ويواجهون بها الغوغاء الذين يسخرون من عبقريتهم . وهى لا تمنيهم بالجاه أو السلطان ، ولكن تعدهم أنهم سيكونون أسعد حالاً ممكن يكنزون الذهب والفضة ، وممن يسيرون فى ركب الملوك والسلاطين) .

بيير دى رونسار (١٥٢٤ - ١٥٨٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " البركة " فى " حب الخالق للمخلوق ") .

يا غلام ، اتبعنى

يا غلام ، اتبعنى ؛ عبر العشب الكثيف المتراكم
واقطف الزهور التى تنوّر الفصل الأخضر ،
ثم غط أرض البيت بأكوام الزهور ،
التى خلفها الربيع فى صباه .

انزع قيثارتى الصداحة :
أود ، لو أستطيع ، أن أفك فعل السحر العضال
الذى سلب عقلى بعينه النافذة
بفضل قصدة لطيفة محكمة .

أعطنى الحبر وأعطنى الورق ،
أود أن أسطر الألم الذى أكابده ،
فى مائة صفحة تشهد على همّى :

فى مائة صفحة أقسى من الماس وأصلب ،
حتى يحكم جيلنا القادم يوما من الأيام ،
على الألم الذى أعانيه فى حبى .

(من ديوان «غراميات كاساندر»)

(كانت ملهمة (رونسار) فتاة ريفية تدعى (كاسّاندر) ، خصها بعدد من القصائد . وهو هنا يريد أن يسجل معاناته فى الحب فى قصيدة عصماء تحكم من خلالها الأجيال القادمة على ما عاناه فى هذا الحب من آلام) .

جوزيه - ماريا دى إيريديا

(١٨٤٢ - ١٩٠٥)

(جوزيه - ماريا دى إيريديا) شاعر فرنسي من أب إسباني . اكتشف كلاً من (فيكتور هوجو) و (لو كونت دى ليل) أثناء دراسته فى (هافانا) ، وذلك قبل أن يعود إلى فرنسا ويلتقى بشعراء البارناس فى مقر جريدتهم (البارناس المعاصر) وينشئ صالونا أدبيا خاصا به . ومن الجدير بالذكر أن (إيريديا) هو الذى حقق لحركة البارناس ما وصلت إليه من شهرة وانتشار لدى الجماهير . وجاءت مجموعته الشعرية بعنوان (المخلّفات) نتيجة مجهود خارق اتسم بالتدقيق والالتزام الشديدين بمبادئ الحركة ، وبالابتعاد عن الوضعية المتشائمة التى طبعت شعراءها الأوائل ، يتميز شعر (إيريديا) بالألفاظ الجديدة والنادرة التى تطعّم قصائده ، وبالإيقاعات القوية، والألوان الصارخة . وإذا كان إبداعه الشعرى دون مثيله عند (نيرفال) و (ماللارميه) ، فإنه يتفوق على (فرنسوا كوبيه) و (سوللى برودوم) فى انضباطه العاطفى ، ومن ثم تمتع شعره بعمر أطول وتأثير أبقى . وكان أن فاز فى عام ١٨٩٤ بعضوية مجمع الخالدين ، اعترافا بدوره فى إثراء الحركة الشعرية واللغة الفرنسية .

في هذه القصيدة التي اخترناها ، يتحدث (إيريديا) عن الشاعر الكبير (رونسار) الذي كان أمير شعراء عصره ، ثم طواه النسيان قرنين من الزمان ، ثم أعاد له الاعتبار الناقد (سانت بوف) ، ومن بعده الشعراء البارناس من أمثال (سوللي برودوم) و (فرانسوا كوبيه) وشاعرنا (إيريديا) . وهذه القصيدة التي تمثل إحدى قصائد ديوانه (المخلفات) الذي ينصب على شعراء القرون الوسطى وعصر النهضة ، جاءت في الديوان بعد قصيدة حول الشاعر (بترارك) وقبل قصيدة خصصت للشاعر (يواقيم دي بيلليه) .

في القصيدة التي تتسم بالدقة والبساطة ، يذكر الشاعر أن عشاق الماضي كان مصيرهم النسيان . وكان من المقدّر لثلاث نساء منهم أيضا المصير نفسه ، لو لم تخلدهن أشعار رونسار العظيم .

من كتاب غراميات رونسار

فيما مضى وفى حدائق مركز بورجوى ،
حفر أكثر من عاشق أكثر من اسم ،
فى لحاء الشجر الذى شقّه ،
وتحت ذهب أسقف اللوفر العالية ،
أكثر من قلب ، لدى بريق ابتسامة ،
اختلج من الكبرياء .

لا بأس ! فما من شىء سجل نشوتهم ولا حزنهم ؛
إنهم جميعا يرقدون بين أربعة ألواح من القرو ؛
وما حاول أحد ، تحت العشب الذى يغطيهم ،
أن ينتزع ترابهم الراكد من نسيان النعوش .

والكل مات . وأنتن يا (ماريا) ، ويا (هيلنا) ،
وأنت يا (كاساند) الشامخة ،

أجسامكن الجميلة كانت ستصبح مجرد رماد راكد ،
- فالزهور والزنابق لا تدوم -

لو أن رونسار ، على نهر السين
أو على نهر اللوار الأشقر ،
لم يجدل لجباهكن وبيده الخالدة ،
غار المجد لشهيدات الغرام .

(من ديوان : «المخلفات»)

(شائعة تلك الطريقة التى يسعى بها العشاق إلى تخليد لحظات حبهم ، وذلك بتسجيل أسمائهم وأسماء من يحبون فى لحاء الشجر ، ولكن الأيام تأتى على كل ذلك فتمحوه . ويكون مآل العاشقين النسيان والإهمال ، وبخاصة بعد أن يواروا فى قبورهم . ولكن يستثنى من ذلك المصير الأليم من يذكرهم الشعراء فى قصائدهم من العشاق ، وبخاصة إذا كانوا فى قامة شاعر عظيم مثل (رونسار) .

وخلود معشوقات (رونسار) اللائى يغبطهن أترابهن على مصيرهن ، من الموضوعات الأثيرة عند هذا الشاعر " المغرور " (انظر قصائده : حينما تصبحين عجوزا ، أرسل إليك باقة ، يا غلام اتبعنى) بحيث تناولها شاعر آخر هو (إيريديا) فى شعره) .

يوليوس سوبر فييل

(١٨٨٤ - ١٩٦٠)

(يوليوس سوبر فييل) كاتب فرنسي من أصل أوروجواى من أسرة ثرية جاءت إلى فرنسا بعد مولده مباشرة . تنقل كثيرا بين باريس ومونتفيديو . يحمل الجنسيتين . يتوزع إنتاجه الذى امتد قرابة النصف قرن ، على المسرح والرواية والشعر . لكن الجانب الشعرى استحوذ على جُل اهتمامه . وتأثر بالشاعر (يوليوس لافورج) (وهو أيضا من مواليد مونتفيديو ، أوروجواى) . ويتضح هذا التأثير فى أول ديوان له بعنوان (قصائد من وحى الفكاهة الحزينة) . كذلك فإن تنقله بين باريس ومونتفيديو وعدم استقراره على وطن واحد ، أفرز ديوانين : الأول بعنوان (المراسى) والثانى بعنوان (الجواذب) . وبالمثل فقد كان توهّمه الدائم لعوالم من الحضور غير اليقيني والصور المتفلّتة ، وراء ديوانين آخرين : (السجين البرىء) و (الأصدقاء المجهولون) ، كما ألهمته الحرب العالمية الثانية ، التى فاجأته فى مونتفيديو ، ديوانا بعنوان (قصائد فرنسا البائسة) ، وآخر بعنوان (أرض وسماء) . وبعد ذلك انقطع (سوبر فييل) لرصد الجوانب الخفية من الشعور وسبْر ما يخلفه ذلك من إيحاءات استثمرها فى إبداعه . لكن (سوبر فييل) يختلف عن بقية

السرياليين فى مفهومه لمعنى السريالية أو ما وراء الواقع . فهى بالنسبة له مجموعة من " الظروف المتيحة " وليست عالما يهيمن عليه ، ما يطلق عليه (بروتون) "الجمال الهائج " .

ومع ذلك فإن مؤرخى الأدب يرون أن ما يميز شاعرنا بصفة خاصة هــو أنه آل على نفسه أن يكــون رائدا من رواد " أدب المصالحة " . وقد عبر بنفسه عن ذلك قائلا : " فى الوقت الذى فقد الشعر إنسانيته ، آليت على نفسى أن أصور ما تجيش به الأزمان المعاصرة من مشاعر العذاب واليأس والأمل أيضا ، وذلك فى إطار من التواصل ووضــوح الكلاسيكية التقليدى" .

غير أن هذا التصريح لا يعنى أن شاعرنا يكتب للقارئ المتوسط ، بل إن مثل هذا القارئ لا يجد عند " سوبر فييل " الوضوح الكافى الذى يأخذ بيده نحو فهم شعره وإدراك ما يتضمنه من صور ورموز . فالحقيقة أن القصيدة عند " سوبر فييل " لا تعرض لنا مجموعة من الصور التى تتوالى بشكل منطقى واضح ، بحيث إن الصورة السابقة تُفضى إلى اللاحقة على شاكلة القدامى ، بل إنه يفتح أمامنا أبواب الأحلام على مصراعيها . صحيح أن الفكرة الرئيسة تظل ماثلة بارزة ، إلا أننا بين قصائده ، كما هى الحال مع معظم معاصريه ، ننتقل من صورة إلى صورة ، ومن مستوى معين من الصور إلى مستوى آخر ، دون أى سبب معقول ظاهر إلا تلقائية اللاوعــى ، كما يجــرى فى عالم الأحلام . إن (سوبر فييــل) يؤكد ما يؤمن به أمثــال " كالديرون " و "بيراندللو " و " يونسكو " من أن "الحيــاة حلم"، ويؤكـد ما يذهب إليه

" كلوديل " و " جيرودو " و " كوكتو " من أن ما ليس فى الحسبان يقع دائما . وهو ، دون أن ينفصل تماما عن الواقع الحى ، يتخذه منطلقا يقفز منه إلى عوالم الرؤى والأحلام . ولعل أهم ما يميز شاعريته هو هذا التنقل بين " الواقع المزعوم " و " اللاواقع المزعوم " . ولعل القصيدة التى اخترناها تؤكد ما ذهبنا إليه .

فى عرض السماء

كان عندى حصان
فى ساحة فى السماء
وكنت أتوغل عليه
فى النهار الملتهب ،
لا شىء يوقفنى
ولا أعرف شيئا .
كان ذلك سفينة
وليس حصانا ،
بل كان رغبة
وليس سفينة ،
كان حصانا ،
ليس كمثله حصان ؛
برأس فرس ،
وثياب هذيان ،

ريح تصهل
وهى تنتشر .
كنت أصعد وأصعد
وألوح بيدى :
" اتبعوا أثرى يا أصدقائى
تعالوا ياخير الأصدقاء
الطريق صافية
والسماء مفتوحة .
ولكن من يتكلم هكذا ؟
غِبْتُ عن ناظرى
فى هذا العلو الشاهق ،
هل تروننى ؟
أنا الذى، كان يتكلم
منذ قليل ،
فهل ما زلت الذى
يتكلم الآن ؟
وأنتم يا أصدقائى ،
هل أنتم أصدقائى ؟
الواحد يمحو الآخر
ويتبدل فيما هو يصعد " .

(مـولد سـوبر فـيـيل فى منتـفـيـديو فى (أورجواى) ، وحياته فى باريس ، هـذه الازدواجية فى القارات وفـى الفضـاءات انعكست على الإنتاج الشعرى الذى يتجلى فـيه الحس الكونى الذى يمتد ليشـمل الأرض بأسـرها والعـالـم كله . كـذلك فـإن شعور الوحدة الذى تغذى عليه الشاعر منذ طفولته (نشـأ يتيـمـا) كـان دافعـا وراء سـعـيـه الدائم نـحـو الآخر ، نحـو " العابرين " الذيـن يحـفل بهم إنتـاجـه الإبداعى، عـابرى العـالم ، من بشـر وأحـلام وحيـوانات ونباتات وشـمـوس وكـواكب . بالرغم من وحدة كل منهم ، إلا أنه تربطهم جميعا أخوّة ببقية العـالم . والشـاعر هنا ، كمـا فى أعمـاله بأسـرها ، هو رفـيق كل كـائن حـى ، بل هـو مـرشـد ودليل لإخوانه فى البشـرية ، يجـوب بهم العـوالم والآفـاق على صـهـوة جـواده (هل هو جـواد حـقيـقى ؟) فى رحلة إبداع يتخللها السؤال والتصنّت على نبض العالم أو نبض قلبه ، أو الاثنين مـعا ، ممتزجين فى مـحـاولة لإدراك مـا وراء التـبـدّلات والتـحـوّلات المسخيّة من أسرار) .

(٥)

الحــب ... حـرمان

فـردريـك ميسـترال (١٨٣٠ - ١٩١٤)

"فردريك ميسترال " ، أو عميد أدب الجنوب الفرنسى ، ولد وترعرع وسط الأسـاطيـر والحكايات التى كـانت ترويهـا الجدّات والأمـهـات بلغـة الجنوب . وكان شديد الارتباط بمسقط رأسه ، بحيث إنه بمجرد انتـهائه من الدراسة الثانوية كتب إلى أصدقائه يقول : "أنا سعيد ، لأننى سأعود إلى فلاحة الأرض " .

كان " ميسـترال " يشـعـر أن واجبه الأول هو أن يردّ الاعـتبـار للغة أهله وذويه التـى أخـرجت من قبرهـا رسـمـيـا فـى منتصـف القـرن التـاسع عشر ، على يد جماعة من المتـحمسين لهـا منهم " ميسـتـرال " ، حيث اجـتـمـعـوا فـى ٢١ مـايـو ١٨٥٤ونشـروا إعـلان حـركـة البـعث الجنوبى ، مـحـقـقين بذلك حلم روّاد هذه الحـركـة . ثم أنشـأت الجـمـاعـة مـعـهـداً للمحافظة على لغة الأقاليـم ، ونشرها .

وقـد قـام "ميـسـتـرال" بالإشـراف على هذه الحـركـة طيلة حـيـاته ، مسـخراً فى ذلك مكانته الأدبية المرموقة . كمـا نشر قاموسا للغة الجنوب فى مجلدين .

كذلك فقد خصـص قيمة جائزة نوبل التى حصل عليها عام ١٩٠٥م فى توسيع المتحف الذى أنشأه فى الجنوب عام ١٨٩٩م .

أشهر أعمال " ميسترال " هو ملحمة " ميريئ " التى كتبها عام ١٨٥٩م وهى تحمل اسم البطلة ، أما البطل فيدعى " فانسون " وهى على شاكلة أبطال قصص الحب الشهيرة: " روميو وجولييت " و" بول وفيرجينى " و" قيس وليلى" . وقد خص الشاعر الكبير "لامارتين " هذه الملحمة بالثناء وهو يقدمها للقراء قائلا : " اليوم سأقص عليكم خبرا سعيدا . فقد ولد فى فرنسا شاعر ملحمى كبير . ليس فيه شىء من طبيعة الغرب ، بل هو متأثر بطبيعة أهل الجنوب ...

ثم يتوجه " لامارتين " بخطابه إلى الشاعر فيقول : " ملحمتك تحفة فنية رائعة ليست من الغرب فى شىء ، بل هى من الشرق . كأنّ جزيرة من الجزر الإغريقية قد انفصلت أثناء الليل، عن مجموعة الجزر الإغريقية ، وجاءت بكل هدوء ، لكى تنضم إلى قارة الجنوب العطرة ... فأهلا بك بين الأصوات التى تتغنى بشمائلنا ! أنت تنتمى إلى سماء أخرى ولغة أخرى . ولكنك جلبت لنا معك جوّك ولغتك وسماءك . ونحن لا نسألك من أين أتيت ولا من تكون . "

أما ملحمة " ميريئ " ، فهى قصة حب بين مراهقين من طبقتين مختلفتين من الجنوب . الفتى " فانسون " صانع خوص فقير يحب " ميرييو " ابنة مالك غنى . ويقف اختلاف الأوضاع الاجتماعية عقبة فى طريق الحب والزواج . لكن الفتاة ترفض ثلاثة خطابٍ من وسطها . ووالد الفتاة صاحب الإقطاعيات لا يمكن أن يوافق على تزويج ابنته من صعلوك لا يملك شيئا ، فيرفض طلب والده فى مشهد درامى مؤثر .

ولا تجد الفتاة حلا لمشكلتها إلا فى الهروب واللجوء إلى من هو أقوى من أبيها وسلطانه ، وهو الله عز وجل فى صورة القديسات . ومن ثم تهجر القرية فى جنح الليل، وقد نسيت قبعتها التى تحميها من حر الشمس، لكى تصل إلى الكنيسة ، سيراً على الأقدام، والشمس فى ذروتها ، فتصاب بضربة شمس وتلقى حتفها .

بالإضافة إلى قصة الحب ، تعد الملحمة صورة صادقة للحياة فى الجنوب وبخاصة أعمال السكان من رعى وزرع وحصاد وتربية الحيوان ودودة القز ، بالإضافة إلى ما يطبع الجنوب من عادات وخرافات دينية ، كل ذلك يمثل إطارا جميلا للأحداث التى يشارك أهل البلد جميعا فيها ، وبخاصة مشهد الموت الأخير.

ميريىْ

الأم

كلا ، كلا ، لا تموتى ! لا تموتى ! أريد أن تظلىّ معى ، أريد أن تبقى معى ! حينما تستردين عافيتك ، ستأتين معى لزيارة خالتك "أوران" ، ونأخذ لها معنا قفصا من الرمان ، فبيتها ليس بعيدا .

ميريىْ

نعم ، يا أماه ، ليس بعيدا . لكن ، اذهبى أنت وحدك .
(فانسون) ، يا حبيبى المسكين !
ما هذا الذى أمام عينيك ؟
الموت ؟ هذه الكلمة التى تخدعك ، ماذا تكون ؟
غمامة تنقشع مع قرع الأجراس .
حلم يوقظنا بعد ليل طويل !
كلا ، أنا لن أموت . بل أنا أصعد خفيفة فوق الزورق . الوداع ! لقد بلغنا عرض البحر ، ذلك السهل المضطرب ، ساحة الفردوس .

آه ! إن المياه تداعبنا ، تداعبنا !

من بين الثريات المعلقة فى أعالى السماء ،

سأعثر على قلبين صديقين .

يتحابان بكل حرية .

أيتها القديسات ؛ أذاك أرغون يصدح هناك ؟

(ثم أطلقت المحتضرة زفرة ، وطرحت رأسها إلى الوراء ، كأنما لكى تنام) .

لم يعل وجهها شحوبٌ ولا كمد . بل كان وجهها ساطعا مشرقا . ولم يشعر الحاضرون ببرودة تسرى فى أوصالها . وهم ، أمام الصدمة الصاعقة ، أبوا أن يصدقوا ما أمامهم ، لكن (فانسون) حينما رأى جبينها ينطرح للوراء ، وذراعيها تتصلبان ، وعينيها كأنما غشيتهما غلالة قاتمة ، صاح قائلا :

لقد ماتت ! ألا ترون أنها ماتت ؟ وجعل يعض على يديه . وانخرط فى النواح والعويل :

ليس دونك أحدٌ سأبكيه . لن أبكى أحداً سواك . لقد انهارت بفقدك دعامة حياتى . هل ماتت حقا ؟ لعلّ شيطانا ألقى ذلك فى روعى . يا قوم تكلموا ! بالله عليكم ، تكلموا . أيها الحاضرون هنا معى . لقد شاهدتم أمواتا من قبل ، فهل كانوا يبتسمون هكذا وهم يجتازون الأبواب ؟ ألا ترون أنها تكاد تضحك فرحاً ومرحاً ؟

(ولكن ماذا يصنعون ؟ إنهم يشيحون جميعا بوجوههم ، وقد غلبهم البكاء ، وفاضت عيونهم بالدموع .)

– آه ! واحسرتاه ! صوتك ، كلامك العذب ، لن أسمعه بعد الآن .

(وهنا قفزت قلوبهم من بين جوانحهم ، وفاضت الدموع أنهاراً . وعلى صوت البكاء والنحيب ... وصاح فانسون)

– أبى ، يا شيخ "أمرواز" ، ابك على ولدك ! وأنتم أيها القديسون ، ليتكم تورونني القبر معها . عاهدونى ، أيها القديسون ، أن تحققوا لى هذه الأمنية . إن مثل هذا المصاب الجلل ، لا تنفع فيه الدموع .

شقوا لى ولها ، فى هذه الرمال الحانية ، قبراً واحداً . وأهيلوا عليه كومة من الحجارة ، حتى لا تفصل الأمواج العالية بينى وبينها .

(ملحمة «ميريى»)

(كل فنون الحب تقريبا نجدها فى هذا المشهد. فالحب المتبادل بين العاشقين أوضح من أن نتحدث عنه . كل ما نضيفه أنه عاطفة عنيفة مطلقة لا تقف أمام أية عقبات اجتماعية أو حتى عقلانية . ومع ذلك فهو يسجل حالة تفريق أو فراق .

كذلك حب الأبوين للفتاة لا يقل وضوحًا .

وقبل ذلك كله ، هناك حب المخلوق للخالق الذى جعل الفتاة ، حينما ضاقت بها السبل ، تلجأ إلى الله وتستجير به ، فتلوذ ببيته . فيبدّلها أهلا خيرًا من أهلها ، ويسخّر لها الرهبان . وهنا يتجلى حب الخالق للمخلوق . الذى يمثله الناس " الطيبون الحاضرون " فى المشهد ، يواسون المكروبين .

وأخيرا هناك صلة الرحم التى بدأ بها المشهد حينما تحدثت الأم عن زيارة قريبة ، تنوى أن تقوم بها لأختها ، وتحمل معها قفصًا من الرمان) .

الفونس دى لامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩)

ولد الفونس دى لامارتين فى عام ١٧٩٠ من أسرة نبيلة . نشأ وترعرع بين مزارع العنب فى الريف حيث الحرية والانطلاق ، وبعد فترة قضاها فى إحدى المدارس الداخلية فى مدينة ليون وإحدى مدارس الرهبان (١٨٠٣ - ١٨٠٨) عاد ليعيش بين أسرته حياة كسل وخمول حيث كتب أولى قصائده . وبدأ قصة حب أراد أن يتوجها بالزواج غير أن أهله أرادوا صرفه عن هذه الفكرة فأرسلوه فى رحلة لإيطاليا . كان ذلك فى عام ١٨١١ وهناك قابل فتاة ظلت ذكراها فى عقله الباطن أكثر من أربعين عاما وهى التى خلدها فى مذكراته باسم "جرازييلا" .

وبعد محاولة فاشلة لدخول المجمع الفرنسى عين لامارتين فى وظيفة مهمة بالسلك الدبلوماسى فى مدينة فلورنسا بإيطاليا ، وقد اتسمت فترة عمله هذه بالسعادة والنشاط الأدبى لولا الحادث المفجع الذى راح ضحيته والدة الشاعر فى عام ١٨٢٩ . ولكنه فى العام التالى نجح فى الفوز بمقعد فى المجمع الفرنسى ، ونشر ديوانا من الشعر ، ثم لم يلبث أن استقال من عمله السياسى ونظم بعض القصائد السياسية . ثم قام برحلة إلى بعض بلدان الشرق زار خلالها سوريا وفلسطين .

عين نائبا فى مجلس النواب مما جعله يهتم بعمله السياسى ولكن ذلك لم يمنعه من أن ينشر بعض الأعمال منها " رحـــلة إلى الشـــرق " و " جوسلان " . وبعد ذلك زادت قطيعة لامارتين لاتجاهات لويس فيليب السياسية ، دليل ذلك قصائد مارسيز السلام عام ١٨٤١ . وأثناء رحلة قام بها إلى إيطاليا بدأ يكتب جرازييلا على طريقة الاعترافات وأنجز "تاريخ الجيرونديين" وهو عمل ضخم حقق نجاحا باهرا . أصبح لامارتين بعد ذلك عضوا فى الحكومة المؤقتة وطالب بالجمهورية ، وفى ديسمبر عام ١٨٤٨ فشل فشلا ذريعا فى انتخابات الرئاسة أمام لويس نابليون بونابرت . ومنذ ذلك التاريخ كرس لامارتين وقته لنشر أعماله الكاملة لكى يتغلب على مشكلاته المادية.

عاش لامارتين واشتهر بين شعراء عصره والعصور التالية بوصفه شاعر التأملات ، ذلك الديوان الذى بدأ به حياته الأدبية وكان فى الوقت نفسه أعظم ما نظم . ولقد جعل تاريخ الأدب فى فرنسا من هذا الديوان باكورة الأعمال الرومانسية بل والإعلان الرسمى عن ظهور الحركة الرومانسية فى فرنسا .

الخريف

سلام أيتها الغابات التى تتوجها بقايا اخضرار ،
أيتها الأوراق المصفرة فوق الحشائشِ المتناثرة !
سلام يا خواتيم الأيام الجميلة ! إن حداد الطبيعة
يوافق آلمى ويروق لناظرى .

فى خطوة حالمة أسلك الطريق المقفرة ؛
فمازلت للمرة الأخيرة أتشوق لرؤية الشمس الآفلة ،
التى لا يكاد ضوؤها العليل
يشق عند قدمى عتمة الغابات .

أجل فى هذه الأيام من الخريف
التى تلفظُ الطبيعةُ فيها أنفاسَها الأخيرة ،
أجد فى نظراتها المحجوبة فيضاً من الفتَنِ والجواذب ؛
إنها وداع من صديق ، آخر بسمة من شفاه
لن يلبث الموت أن يطبقها إلى الأبد .

وهكذا وأنا أتهيأ لفراق أفق الحياة ،
وأنا أبكى أملى المغشى فى حياتى المديدة ،
أتلفت حولى بنظرة اشتياق ،
أتأمل هذه المباهج التى لم أمتع بها روحى .

أيتها الأرض ، أيتها الشمس ، أيتها الوديان
يا هذه الطبيعة الحانية
لك علىّ دمعة وأنا على مشارف قبرى ؛
ما أطيب عطر الهواء ! ما أنقى صفاء النور !
ما أروع الشمس فى نظر المحتضر !

أود الآن أن أفرغ حتى الثمالة
هذه الكأس الممزوجة بالرحيق وبالمرارة :
فى قاع هذا القدح الذى كنت أحتسى فيه حياتى
عساى أعثر على قطرة من عسل !

لعل مستقبل أيامى يدخر لى عودة سعيدة
كان قد ضاع فيها أملى !

أو لعل روحا أجهلها في زحمة الناس
تدرك روحي وتتجاوب معها !

الزهرة تسقط مخلفة للنسيم عطورها
تلك إشارات وداعها للشمس وللحياة .
وأنا أقضي نحبي وبينما تلفظ روحي أنفاسها الأخيرة
تتناثر كرنين حزين رخيم .

(قد تبدو القصيدة ، لأول وهلة ، خالية من أي فن من فنون الحب . ولكن العارف بالشعراء الرومانسيين وأغراضهم الشعرية ، وكذلك العارف بحياة (لامارتين) له رأي آخر.

إن التجاء (لامارتين) إلى الطبيعة وحدبه عليها ، والارتماء في أحضانها ، بل والاستجارة بها ، من عادات الرومانسيين بصفة عامة . وهو يكون غالبا بعد فشل ، أو خيبة أمل في حب عاطفي . ثم تأتي حياة (لامارتين) الخاصة لتؤكد ذلك ، ويزيد هذا التأكيد قصيدة (البحيرة) للشاعر نفسه .

ومن ناحية أخرى ، فإن الشعر الرومانسى ، بل والرومانسية بشكل عام ، تضع الطبيعة فى أعلى درجة من الحب والتقدير ، بل هى فى نظر الكثيرين منهم تحل محل الإنسان الآخر الذى يفتقده الشاعر فى البشر . بل إن الطبيعة فى بعض الأحيان تقوم مقام الخالق عز وجل. ومن ثم فإن الشاعر حينما يرتمى فى أحضانها ويلوذ بها، فكأنما يستجير بالله تعالى) .

الفونس دى لامارتين (١٧٩٠ - ١٨٦٩)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " الخريف" السابقة) .

البحيرة

أو هكذا سنظل نمضى نحو شطآن جديدة
فى جنح ليل أبدى ماضين بلا عوده
ألن نستطيع يوماً أن نلقى الهلب ونرسو
على محيط العصور والأزمان ؟

أواه يا بحيرة كاد العالم أن ينتهى .
وهاأنذا قرب أمواجك الحبيبة
التي كان من المفروض أن تشهدها
انظرى آتى وحدى لأجلس على هذا الحجر
الذى كنت تشاهدينها تجلس فوقه !

كنت تهدرين تحت هذه الصخور العميقة ؛
كنت تتحطمين فوق سفوحها المتآكلة ؛
وكانت الريح تقذف زبد أمواجك
على قدميها الحبيبتين .

هل تذكرين ؟ ليلة كنّا فوق موجك في سكون
لا نسمع من بعيد فوْق الموج ، تحت السماوات
سوى صخب المجاديف تمخر في انتظام
موجك المتناغم الموزون .

وعلى حين فجأة ، شق أصداء الشاطئ المسحور
أصواتٌ لم تسمع بها الأرض
فانتبه الموج وإذا صوت حبيب
يلقي بهذا القول :

" يا أيها الزمن الماضي قف طيرانك
وأنت يا أيتها الساعات المواتية
قفي جريانك !
دعينا نذق أجمل ما في أيامنا
من لذات عاجلة . . . "

أيتها البحيرات ! أيتها الصخور الخرساء !
أيتها الكهوف والمغارات !
يا أيتها الغابة المعتمة
يا من يرق بك الزمان ويعيد لك الشباب

حافظي أيتها الطبيعة الرائعة حافظي
على الأقل ،
على ذكرى هذه الليلة .

فلتكن ماثلة في أوقات هدوئك وفي ساعات ثورتك
يا أيتها البحيرة الجميلة وفي شكل سفوحك الباسمة
وفي هذه الصنوبرات السوداء
وهذه الصخور الموحشة
التي تنحني فوق مياهك .

فلتبق الذكرى في النسيم الذي يهب ويمضي
في صخب ضفافك التي ترددها ضفافك
في النجم فضّي الجبين الذي يبيض صفحة مائك
بأصواته الحانية !

وليكن في هزيم الريح في حفيف القصب
في العطور السابحة من عبق هوائك
ليكن في كل ما نسمع ونرى ونتنفس ،
من يقول : " لقد أحب كلٌ منهما صاحبه "

(من ديوان «التأملات الشعرية الأولى»)

(ما جاء مضمراً فى القصيدة الأولى (الخريف) يصرح به (لامارتين) هنا . ففتاته ضربت له موعداً عند البحيرة . لكنها أخلفت الموعد ، ولم تحضر . وكدأب الرومانسيين ، يبث (لامارتين) شكواه للبحيرة، ويستشهد بها على قسوة حبيبته وجفائها . وكان فى القصيدة الأولى يشكو آلامه إلى الطبيعة بشكل عام ، بما فيها من عناصر مختلفة . كما أن شكواه كانت عامة . أما هنا فهو يخصص بعد التعميم .

لذلك ، فإن الشاعر هنا يرسم لنا صورة تفصيلية لطبيعة الحب الرومانسى . فكل ما يهفو إليه العشاق الرومانسيون هو أن يجمعهم بمن يحبون لقاء للنجوى فى مكان هادئ خالٍ، إلا من حفيف الأشجار ، وصخب المجاديف ، وهدير الأمواج ، مبتهلين إلى الزمن أن يكف عن المضى ، وأن يتوقف بهم عند هذه اللحظات الهانئة ، متوسلين إلى الطبيعة أن تحافظ على هذه الذكرى الجميلة وتخلدها فوق جميع عناصرها . وتسجِّل فى كل ما يدرك بالبصر والسمع : " لقد أحب كل منهما صاحبه ") .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

وعاء الزهر المحطم

وعاء الزهر الذى ماتت فيه هذه الزهرة
انفطر بضربةٍ من المروحة .
الضربة مسّته مسًا بالكاد
ولم ينمَ عن ذلك أى ضوضاء .

لكن الرضرضة الخفيفة
وهى تنخر فى الزجاج يومًا بعد يوم
وتتقدم فى خفاء
طوقته بطيئًا بطيئًا .

وتسرب ماؤه العذب نقطة نقطة .
وذوى رحيق الزهور وتبخر .
ولم ينتبه لذلك أحد .
لا تمسه بيدك فقد تحطم .

وهكذا غالبًا يد المحبوب
تمس الفؤاد فترضرضه .
ثم ينفطر الفؤاد من تلقاء نفسه
وتموت الزهرة من الحب .

وهو فى عيون الناس سليم لم يمس
يشعر بجرحه ينداح
ويبكى بصوت مكتوم جرحَه الدفين :
لقد تحطم فلا تمسه بيدك !

(الحياة الباطنية)

(بعكس الحب عند (ميسترال) أو (لامارتين) أو (هوجو) ، الحب هنا صامت داخلى (لاحظ اسم الديوان) حتى حينما يتحطم وعاء الزهر فهو يتحطم فى صمت : فالآلة المستعملة خفيفة رقيقة ، والتحطيم بدأ بمس "بالكاد " والشرخ يتسع " بطيئا بطيئا " وفى "استخفاء".

وماء الوعاء يتسرب " نقطة نقطة " " لم يتنبّه لذلك أحد " . وهو " يبكى بصوت مكتوم " بحيث لا

يكاد يفطن الناس لما حدث ، ويظنونه " سليما لم يمس " .

هكذا يكون التعبير عن المشاعر عند شعراء البارناس، فهو يختلف عنه عند الرومانسيين الذين يرفعون أصواتهم بالشكوى والأنين . ويعلنون عن آلامهم. ويضخمون من حجمها وتأثيرها) .

لويزا لابيه (١٥٢٤ - ١٥٦٦)

ولدت (لويزا لابيه) من أب ثرى يعمل فى تجارة الحبال ، تلقت الشاعرة منذ طفولتها تربية راقية حيث درست عدة لغات منها الإيطالية واللاتينية ، كما تعلمت الموسيقى ، ومارست رياضة السباحة . كانت عنيفة الطبع ، حادة المشاعر (تخفت فى هيئة رجل أثناء إحدى المعارك للقاء عشيقها) . بل لقد كانت فى عصرها داعية لتيار مناصر للمرأة على المستوى الثقافى والاجتماعى ، عرضت لائحته فى تصدير أعمالها . كما تزوجت من تاجر حبال ، مما جعلهم يلقبونها بـ (الحبّالة الجميلة). أقامت فى بيتها ما يشبه الصالون الأدبى ، كانت تستقبل فيه صفوة المثقفين فى عصرها . كما كانت مصدر عدد من الأساطير ، وإن كانت فاضحة ، إلا أنها كانت تدل على مدى الشهرة التى تمتعت بها فى حياتها .

بالرغم من قلة إنتاجها ، إلا أنها استحقت لقب (حورية الراين المتوهجة) ، ذلك أن قصائدها فى مجموعها تصدر عن المشاعر العنيفة التى تتصل بكل من القلب والجسد .

من ناحية أخرى ، كانت الشاعرة رمزا لانتصار المرأة الذى تميزت به حركة النهضة الأوروبية فى بدايتها .

العيون السمراء . النظرات المختلسة

أيتها العيون الجميلة السمراء ، أيتها النظرات المختلسة
أيتها الزفرات الحارة ، أيتها العبرات المبذولة
أيتها الليالي السوداء ، المنتظرة بلا طائل
أيتها النهارات المضيئة ، العائدة بلا طائل

أيتها الشكاوى الحزينة ، أيتها الرغبات المكابرة
أيها الوقت الضائع ، أيتها الآلام المبذولة
يا ألف موت فى ألف شرك منصوبة
يا أوجاعًا كأداء وشرورا حرّى أتحملها وحدى !

وا جبيناه وا شعراه وا ذراعاه وا يداه والأصابع !
أيتها القيثارة الحزينة، أيها الكمان ، أيها الصوت !
يا فيوضا من المشاعل لتحريق أنثى واحدة !
وأنت يا سبب شكواى ومصدر كل هذه النيران

التى تصيبنى فى مناطق شتى من الفؤاد
ألا تنطلق منها شرارة واحدة لتصيبك ؟

(طقاطيق «٢»)

(عاطفة مشبوبة بريئة بدائية ، تناسب العصر الوسيط ، بلا تكلف ولا مداراة ، بل هى تعبير مباشر وإفصاح فطرى عن مكنون النفس ، وسرد لألوان الآلام المادية المبرحة والمعنوية المضنية التى تتكبدها العاشقة بنوع من التفصيل الذى يكاد أن يثير الضحك ، أو على الأقل، الابتسام الذى لا يخلو من التعاطف : "وا جبيناه ، وا شعراه ، وا ذراعاه ، وا يداه والأصابع" ، بخاصة حينما تتمنى المرأة أن ينال فارس أحلامها نصيبه من العذاب) .

موريس ميترلنك (١٨٦٢ - ١٩٤٩)

بلجيكي الوطن ، فرنسي اللغة . شاعر مقلّ، وكاتب مسرحي ترك حوالى عشرين مسرحية ، أشهرها على الإطلاق مسرحيتا (الطائر الأزرق) و (بلياس وميليزاند) ، أما الشعر فقد أصدر منه ديوانين : الأول بعنوان (الصوبات الدافئة) ، والثانى بعنوان (اثنتا عشرة قصيدة) .

يُعد (ميترلنك) من الشعراء الرمزيين ، وقد تأثر بكل من (فيرلين) و(رامبو) و (ماللارميه) . فى ديوانه الأول ، الذى ترك بصمات واضحة على السرياليين الفرنسيين ، يصور (ميترلنك) عالما مغلقا يجثم فيه على صدر الشاعر الضيق والشعور بالسأم الذى يذكرنا بالشاعر (بودلير) ويذكرنا أيضا بالتداعيات أو التجاويات التى اشتهر بها (بودلير) .

أما الديوان الثانى ، فموضوعاته مستقاة من الأساطير الخاصة بالعصور الوسطى الفلمنكية . حتى البطلات تحركهن العواطف التى لا يستطعن منها فكاكا .

أما الشكل ، فمأخوذ عن الأغانى الشعبية القديمة ، حيث الشخوص أشبه بالدمى المتحركة، وحيث التكرارات التى توحى بالرتابة داخل عالم مغلق على قوى القدر الغامضة .

وإذا كان (ميترلنك) قد توقف مبكرا عن نظم الشعر ، إلا أن مسرحه ظل حافلا بالشاعرية الغامضة ، فهو يقع فى عالم من الأحلام والرؤى والطفولة ، عالم الجنيات السحرى .

بحثت عن الحب

بحثت عن الحب
فى بلد غريب
بحثت عنه فى البحار
وفى أعماق الغابات

ثلاثة رعاة أحبوها
ثلاث مدن عانقتها
ثلاثة ملوك تزوجوها
بحثت عن الحب
ولم تعثر عليه أبدا .

تعود إلى القصر
عجوز يطرق الباب
طرق طرقا شديدا

بحلقة ذهبية
بحيث إنه خرق الباب .

" ماذا تفعلين هنا ؟
ما زلت أعرفك
بعد أكثر من ثلاثين سنة
أنا أيضا أعرفك
أنا أنتظرك هنا .

ما أشد بياض شعرك !
منذ ثلاثين سنة أنتظر .
أعطني يدك
يداك ملطختان بالدماء
أنا أطرق منذ ثلاثين سنة "

(أغنيات قديمة)

(واضح من العنوان أن القصيدة تعالج حالة حرمان من الحب . فالمغْنية أو الأنثى بحثت عن الحب ، ولكن هل عثرت عليه ؟ القصيدة لا تجيب . ولكنها تذكر أنها بحثت عنه فى بلد غريب . فهل هو غريب لأنه لا يوجد فيه حب؟ وبحثت عنه فى البحار وفى أعماق الغابات ، فلم تجده فى أى مكان . ثم أحبها ثلاثة رجال . ولكن هل هى أحبت أحدهم، وبذلك تكون قد عثرت على الحب ؟ القصيدة لا تقول ذلك . وتزوجها ثلاثة ملوك ، ولكنها ظلت تبحث ولم تجد . وهذا العجوز الذى جاء بعد عشرات السنين وكان ينتظر منذ ثلاثين عاما ، ويطرق الباب ، هل هو الحب الذى أصبح لا يصلح للحب ؟) .

مارسيلين ديبورد - فالمور

(١٧٨٦ - ١٨٥٩)

مارسيلين ديبورد - فالمور ، ولدت عام ١٧٨٦ من أسرة فقيرة . وصحبت أمها إلى جزر الأنتيل شمال المارتينيك الفرنسية ، وهناك ماتت أمها فعادت وحدها إلى فرنسا ، وهى لم تزل طفلة صغيرة فى السادسة من عمرها . عملت فى مجال التمثيل لكى تكسب قوت يومها. وبالرغم من زواجها من أحد الممثلين المعروفين ، وبالرغم من إنتاجها الشعرى الغزير ظلت فى ضائقة مالية . زاد من شقائها موت ابنتيها ، مما جعل أشعارها تتسم بالحزن والكآبة . وقد أعجب (فيرلين) بشعرها .

كتبت عدة دواوين منها : (مرثيات وقصائد جديدة) ، (عبرات) ، (زهور بائسة) ، (باقات وصلوات) .

" كنتَ تملك قلبى ... "

كنت تملك قلبى ،
وكنت أملك قلبك :
قلب بقلب ،
سعادة بسعادة !

قلبك أُعيد ،
لم أعد أملك غيره :
قلبك أُعيد ،
وقلبى ضاع !

الورقة والزهرة
والثمرة نفسها ،
الورقة والزهرة ،
البخور ، واللون .

ماذا صنعتِ به ،
يا سيدى الأعلى ؟
ماذا صنعت به ،
ذلك الكنز الوديع ؟

أشبه بطفل مسكين
هجرته أمه ،
أشبه بطفل مسكين
لا أحد يدافع عنه ،

تركتنى هنا ،
فى حياتى المريرة ؛
تركتنى هنا ،
والله مطلع على ذلك !

هل تعلم أن الإنسان ذات يوم
سيكون وحده فى العالم ؟
هل تعلم أن الإنسان ذات يوم
سيعود إلى الحب ؟

سوف تنادى
ولن يجيبك أحد ؛
سوف تنادى ،
وسوف تحلم ! . . .
ستأتى حالما
تطرق بابى ،
صديقا كما كنت فى الماضى ،
ستأتى حالما ،

وسيقال لك :
" لا يوجد أحد . . . لقد ماتت . "
سيقال لك ذلك ،
ولكن من ذا سيرثى لك ؟

(من ديوان «مراثٍ ومواويل»)

(وكما يتبدّى من العنوان ، فنحن مرة أخرى أمام حب عاطفى ساذج أو بدائى ، بما يناسب العصر ، حب طاهر عذرى يقوم على مقايضة القلوب . ولكن الرجل ، كما يحدث فى معظم الحالات ، ينقض العهد ، ويتخلى عن المرأة التى لا تملك إلا أن تحذره ، بل وتهدده بعقاب الله ، حينما يفكر فى العودة إليها فلا يجدها . ونكاد نستشعر حب المخلوق للخالق فى لجوء المرأة إلى الله عز وجل واستشهادها به واستعانتها بقدرته الغالبة) .

فرانسوا ماينار (١٥٨٢ - ١٦٤٦)

بالرغم من المناصب الكثيرة التى تقلدها ، سكرتيراً خاصًا للملكة (مـارجـو) أو (مـارجـريت دى فـالوا) ، ورئيـسـا لمحكمـة (أوريلاك) ومستشاراً ، لم ينصرف فرنسوا مينار عن نظم الشعر ، وكان دائما ما يدبر الوقت اللازم لذلك . ولما كان تلميذا للشاعر الكبير (ماليرب) رائد الشعر الكلاسيكى، فقد كان اهتمامه عظيما بالدقة فى اختيار الألفاظ ، والالتزام بالقواعد ، والتقيد بالشكل . بل لقد نافس فى ذلك أستاذه (ماليرب) . هذه الصفات ، بالإضافة إلى جمال الأسلوب والغنائية التى تتمتع بها قصائده ، جعلت لـ (ماينار) مكانة خاصة بين شعراء القرن السابع عشر . كما كان من أوائل أعضاء مجمع اللغة الفرنسية الذى انضم إليه عام ١٦٣٤ .

كلوريس الجميلة

من عينيك الشابتين تولدت عاطفتى .
من سهامهما الأولى كان مصرعى ؛
ولكن طالما أنك تكتوين بلهيب الزواج
فإن حبى لك يتوارى إرضاء لعفتك .

أعرف قدر الاحترام الذى ينبغى أن أوفيك حقه
وشعورى النبيل لم ينقص ذلك .
وإن كنت فى بعض الأحيان أفصح عن المعاناة التى تتناهشنى
فذلك لبعض الخلصاء الذين يكتمون سرّى .

ولكى أهوّن حدّة المعاناة التى أكابدها
أشكو بثى للصخور وأطلب النصيحة
من الغابات العتيقة التى جعلت خضرتها
مثل هذه الليالى الجميلة على الرُغم من الشمس .

وهاأنذا وقد فاضت روحي حبًا وكآبة ،
وانطرحت فوق الزهور ، تحت الأشجار ،
أعرض جرحي على بحريْ إيطاليا ،
وأجعل الأصداء الغريبة تردد اسمك .

(مع أن سهام عينيها صرعته ، فإن فارس العصور الوسطى الهمام النبيل ينسحب من الميدان ، بعد أن اقترنت فتاة أحلامه بغيره ، لأن دواعي الشرف والأخلاق والأعراف تقضي عليه بذلك ، حتى لا يشين سمعة من يحب : " فإن حبي لك يتوارى إرضاءً لعفتك ".

وهو إذا كان يصرح بحبه ، فذلك لبعض الخلصاء الذين يكتمون السر . وحينما لا يجد منهم أحدًا ، فإنه يشكو بثّه وحزنه إلى الصخور والغابات ، على طريقة الرومانسيين الذين سيسرفون في ذلك بعد قرنين من الزمان : " وينطرح فوق الزهور تحت الأشجار وقد فاضت روحه حبًا وكآبة ") .

موريس ميترلنك (١٨٦٢ - ١٩٤٩)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " بحثت عن الحب " فى " الحب حرمان ") .

ولو عاد يومًا

ولو عاد يومًا
ماذا أقول له ؟
- قولى له إننا انتظرناه
حتى الموت . . .

ولو سألنى أيضا
دون أن يعرفنى ؟
- كلميه بوصفك شقيقة
قد يتألم . . .

ولو سألنى أين أنت
بماذا أجيب ؟
- أعطيه دبلتى الذهبية
ولا تجيبيه بشىء . . .

ولو أراد أن يعرف
لماذا الحجرة خالية ؟
- أريه المصباح المطفأ
والباب المفتوح ...

ولو سألنى أيضا
عن الساعة الأخيرة ؟
- قولى له إنى ابتسمت
خوفا عليه أن يبكى ...

(أغنيات قديمة)

(ما من شك فى أننا أمام مرحلة عصيبة من قصة حب تجمع بين رجل غائب وامرأة تعرف أنها لن تراه ، أو تفضل ألا تراه لسبب معين : ربما لمرض عضال أو موت وشيك، وهذا هو الأرجح لإجابتها على السؤال الأخير " ولو سألنى عن الساعة الأخيرة ؟ " ولكنها تتوقع أن يأتى الرجل بعد فوات الأوان للسؤال عنها) .

موريس ميترلنك (١٨٦٢ - ١٩٤٩)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " بحثت عن الحب " في " الحب حرمان ") .

قتلوا ثلاث بنات صغيرات

قتلوا ثلاث بنات صغيرات
لكى يروا ما فى قلوبهن .

الأول كان مفعما بالسعادة ،
وحيثما سالت دماؤه ،
ثلاث أفاع نفثت ثلاث سنوات .

الثانى كان مفعما بالرقة .
وحيثما سالت دماؤه ،
ثلاثة حملان قرضت ثلاث سنوات .

الثالث كان مفعما بالشقاء .
وحيثما سالت دماؤه ،
ثلاثة ملائكة سهروا ثلاث سنوات .

(أغنيات قديمة)

(من هم القتلة ؟ ولماذا قتلوا البنات ؟ وما قصتهن ؟ يرجح أنها قصة أو عدة قصص لحب محرم أو محظور . فالبحث عما في القلوب يؤكد ذلك ، لأن قلوب الصغيرات لا يكون فيها سوى الحب) .

موريس ميترلنك (١٨٦٢ - ١٩٤٩)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " بحثت عن الحب " في " الحب حرمان ") .

رغبات الشتاء

أبكى الشفاه الذابلة
حيث لا تولد عليها القبلات ،
والرغبات المهجورة
تحت الأحزان المحصورة .

المطر دائما فى الأفق !
البرد دائما فوق الشطآن !
بينما على عتبة أحلامى المغلقة ،
ذئاب راقدة فوق العشب .

ترقب فى نفسى المتعبة
العيون الخابية فى الماضى
كل الدماء المراقة فى الماضى
لحملان تحتضر فوق الثلج .

القمر وحده يضىء أخيرا
بحزنه الرتيب ،
حيث يتجمد عشب الخريف ،
رغباتى المريضة من الجوع

(أغنيات قديمة)

(الظمأ للحب، الجوع للحب ، الحاجة للحب ، كل ذلك نشعر به بين سطور هذه القصيدة. الحب غائب ، هذا صحيح . ولكنه يعلن عن ضرورته ، حتى لا تكون هناك " شفاه ذابلة " و " أحزان محصورة" وحتى يكون هناك إشباع للرغبات . وحتى لا يكون هناك دائما برد فوق الشطآن ، وذئابٌ راقدة تترصد) .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

الـغـفـران

ما إن تُبعث صورتُك في ذاتي
حتى أشعر أنك أنت التي ما زلت بها متيمًا .
لقد دمرَت زهرة شبابي .
ومع ذلك أريد أن أموت دون أن أنساك ،
وبالذات صوتك الرنَان الرقيق .
الذي ينساب إلى قلبي من بين جميع الأصوات .
ويظل صدري يرتعش منه طويلا ،
أشبه بمعزف وحيد يظل متأثرا بمس الأصابع .
آه ! لقد عرفتُ كثيراتٍ ، جميلةً شفاههن .
رائعةٌ جباههن ، فاتنةٌ أحاديثهن .
وسيخبرك أصحابي أني غنيّت من أجلهن .
وستخبرك أمي أني بكيت من أجلك أنت .
ثم سرعان ما سيأتي زمان تصبح فيه العيون شحيحة .

وحزني سيصبح ذات يوم مجرد ضيق . أجل ، ولأنك حطَمت زهرة شبابي .
فأنا أخشى أن أبغضك حينما أصبح شيخا .
فلتُبعث صورتك دومًا في ذاتي ،
ولأغفرن للروح من أجل ذكرى العيون .

(من ديوان المحن)

(إذا كان العاشق هنا يكرر الفكرة التي يرددها الكثيرون من أترابه ، حينما يفضّل كل منهم معشوقته على غيرها من بنات جنسها ، مع أنهن مثلها جميلات لطيفات فاتنات ، وأنه عرف كثيرات قبلها ، ولكنه لم يبك إلا من أجلها ، إلا أن العاشق هنا يتجاوز مرحلة الحب العاطفي إلى الإحسان ، بل هو يدفع السيئة بالتي هي أحسن ، لأن معشوقته حطمت زهرة شبابه . ومع ذلك فهو يغفر لها ويصفح عنها ، " من أجل ذكرى العيون" . أو على أمل أن تثوب إلى رشدها وتعود إليه مصداقا للآية الكريمة : (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

على طول رصيف الميناء

على طول رصيف الميناء البواخر الهائلة
التى يداعبها موج البحر فى سكون
لا تتنبه للمهاد
التى تؤرجحها أيدى النساء .

لكن ساعة الوداع آتية ؛
فلا بد للنساء يوماً من البكاء ،
ولا بد للرجال الطموحين من الانطلاق
فى الآفاق الغاوية .

يومها ، فإن السفن الهائلة
وهى تولى الأدبار من الميناء
تشعر بأن حجمها الهائل يتقلص
داخل أرواح المهاد البعيدة .

(حالات الوحدة)

(" لكن ساعة الوداع آتية ، فلا بد للنساء يومًا من البكاء ، ولابد للرجال الطموحين من الانطلاق ، فى الآفاق الغاوية " .

هذه الرباعية هى المفتاح فى هذه القصيدة . وماذا يكون مصير الحب الذى يربط الرجال بالنساء ؟ تلك قضية أخرى تتعلق بتصاريف القدر المهم أننا بصدد واحد من فنون الحب التى تعالجها القصائد المختارة : الحب ... فراق .

هل البواخر الهائلة التى يتحكم فيها موج البحر العاتى ترمز إلى السفر المحتوم الذى لا رجعة فيه ؟ لا يكترث بالمهاد التى تؤرجحها أيدى النساء (مهادٌ ضعيفة بالقياس إلى البواخر الجبارة ، وأيد ضعيفة بالقياس إلى الموج العاتى) فى محاولة لرعاية الحب والسهر عليه أثناء غياب الرجال ؟) .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

منفى

المستحقون للرثاء حقا هم الذين اغتربوا
وخلّفوا وراءهم حبًا
ومع الحب خلّفوا حبيبة جميلة عاشقة
أمّا من صحبتهم حبيباتهم إلى الصحراء ، فهم سعداء ،
لأنهم مع المرأة حملوا الوطن .

هؤلاء يرون وطنهم
فى نور العيون التى تبتسم لهم ،
والزنابق التى تركوها فى حقول الآباء
تتفتح من جديد فوق جبين عُذرى بتول .

السماء التى تركوها وراءهم تتنقل معهم
فى العوالم الجديدة ؛
لأن العاشقة الرفيقة حفظت فى قلبها وعلى فمها

شعاعًا وفيًا من شموس الوطن
والليالى الماضية من أجل المضجع الجديد .

لا ترثينَ لهؤلاء ، فهم لم يفقدوا شيئا ،
بل إن عيونهم مفتونة ، وأياديهم معطرة
بذكرى حيّة باقية . وكل شىء أعيد لهم
فصول السنة ، والأرض والعائلة فى حضن المحبين .

أما أن تظل ، ليل نهار ، تبحث فى بيتك الذى تملكه
عن ذلك الإنسان الضرورى لك ، الحبيبة العاشقة ،
فتلك وحدة ما بعدها وحدة مع أفق أضيق .
آه ! إن أسوأ أنواع المنفى ، أن تُنفى داخل وطنك .

فلا السماء ، ولا الهواء ، ولا الزنابق البتولة ،
ولا حقول الآباء ، تشفيك من آلام هذا المنفى .
بل على النقيض من ذلك ،
فإن حبك للأرض التى نشأت فيها
يزيد شعورك برقة العاشقة الغائبة وطول بعادها .

(حالات الوحدة)

(الحبيبة ، الرفيقة الرقيقة ، تعوّض الشاعر عن كل شيء ، حتى الوطن وهو فى الغرْبة، لأن الرفيقة الرقيقة تحمل معها الوطن . فمن جديد ، وفى الغربة ، وحتى فى الصحراء ، تغرس كل ما تركه الشاعر فى أرض الوطن : الزنابق التى تركوها فى أرض الآباء ، والسماء التى تركوها وراءهم ، وفصول السنة والأرض والعائلة ، كل ذلك يجده الشاعر المغترب فى حضن المحبين .

وقد يكون المرء فى وطنه ، بل وفى بيته الذى يملكه ، ويشعر بالوحدة ، حينما يبحث عن الإنسان الضرورى له ، الحبيبة العاشقة ، فلا يجدها . فتلك وحدة ما بعدها وحدة ، وذلك منفى ما بعده منفى : أن تُنفى داخل وطنك) .

جيرار دي نيرفال (١٨٠٨ - ١٨٥٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " الأبيات الذهبية ، كل محسوس يحس " في "الحب ... التضامن ") .

المنبوذ (المنبت)

أنا المكفهر - الأرمل - الذى لا يواسيه عزاء .
أمير " أكيتين " صاحب البرج المسلوب .
نجمتى الوحيدة ماتت - وقيثارتى المرصعة
تحمل الشمس السوداء ، شمس الكآبة .

فى ليل المقبرة ، أنت التى واسيتنى .
أعيدى إلىّ رأس " بوزيليبو " وبحر إيطاليا ،
والزهرة التى كانت تروق كثيرا لقلبى المحزون ،
والكرمة حيث العنبة تتشابك مع الوردة .

هل أنا آمور (إله الحب) أم فيبوس
(إله الشمس والنور) ؟
لوزينيان أم بيرون ؟
لقد حلمت فى المغارة التى تسبح فيها جنية الماء .

ولقد انتصرت مرتين وعبرت (أكيرون) نهر الجحيم ،
عازفا على قيثارة " أورفيه "
زفرات القديسة تارة ، وتارة صرخات الجنية .

(من ديوان «الأوهام»)

(نظم (نيرفال) هذه القصيدة عشية أزمة نفسية عنيفة من تلك الأزمات التى كانت تنتابه، وكانت سببا فى النهاية الدرامية الفاجعة التى وضعت حدًا لحياته . ولعل ما ينبغى التركيز عليه هنا ، كأسباب لتلك الأزمة ، هو الجانب العاطفى منها . فقد كان الشاعر قد فقد الرفيقة التى كانت تنير حياته ، فأصبح كما يستهل القصيدة : " المظلم المكفهر " " الأرمل" الذى لا يواسيه عزاء بالرغم من محاولات التلهىّ والتسرّى .

وتحفل القصيدة بالإشارة إلى أحداث وقعت للشاعر ، وأوصلته إلى حافة الانتحار ، رغبة منه فى لقاء المولى عز وجل ليجادله فى أمر مصيره وما قضى به عليه . ودون الخوض فى هذه الملابسات ، فالقصيدة كما قلنا تفجّرت بسبب

الخواء العاطفى الذى كان السبب الأكبر لحالة الدمار التى تردى إليها الشاعر وأوصلته إلى مشارف الجنون . ومع ذلك فالشاعر هنا لا يستسلم تماما لليأس و القنوط ، بل يجد فى بعض ذكرياته العاطفية القديمة بعض البلسم لآلامه . إذن ، إذا كان الحب هو الداء ، فهو أيضا الدواء . وكما يقول الشاعر العربى : " وداوها بالتى كانت هى الداء ") .

أندريه شينييه (١٧٦٢ - ١٧٩٤)

مع كثرة ما كُتب من شعر فى القرن الثامن عشر ، إلا أن (أندريه شينييه) الذى أُعدم وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، قد جمع فى إنتاجه أروع قصائد ذلك العصر . تجلى فى شعر (شينييه) من مظاهر الحداثة والابتكار سمتان أساسيتان : حبه الشديد وفهمه العميق للعصور القديمة وبخاصة الإغريقية ، ثم بغضه العميق لخصومه السياسيين الذين دفعوا به إلى المقصلة لتزهق روحه دفاعًا عن الحرية . وإذا كان شينييه قد ظل كلاسيكيا فى أسلوبه وفى تقليده للقدماء ، إلا أن شعره يحمل الكثير من السمات الشخصية والحديثة بحيث يمكن أن نعدّه رائدًا من روّاد الرومانسية . يتجلى ذلك ، بصفة خاصة فى نوع المرثيات التى برع فيها الشاعر .

المصادر القديمة التى يستوحى منها شينييه قصيدته عديدة . وكلها ترثى فتيانا وفتيات لقوا حتفهم فى عرض البحر . مقارنات كثيرة يثيرها النقاد مع العديد من الشعراء الإغريق، ولكن أبرز هذه المصادر هو " فيرجيل " فى قصيدته بعنوان " غرق الملاّح بالينور " .

ولعل روعة قصيدة (الفتاة الطارونتية) تحققت للشاعر بسبب ما جمع فى ثناياها من التفصيلات العديدة التى استقاها من هنا ومن هناك . يأتى بعد ذلك فنّ الشاعر الذى نوجزه فنقول إنه بالرغم من أن الموضوع ليس وليد بنات أفكاره إلا أن الواقعة فى حدّ ذاتها يتفطّر لها القلب .

الفتاة الطارونتية

لقد عاشت ميرتو الفتاة الطارونتية !
سفينة كانت تحملها إلى شواطئ " كامارين "
وهناك كان العرس والأغانى والمزامير
من المفروض أن تصحبها فى هدوء إلى دار عريسها .
ومن أجل هذا اليوم وفى صندوق من خشب الأرز ،
مفتاح حريص أغلق بإحكام على ثوب عرسها ،
وعلى الذهب الذى ستتزين به ذراعاها فى الوليمة ،
وكذلك العطور المعدَة من أجل شعرها الأشقر .
ولكن هاهى وحدها فى مقدمة السفينة تبتهل إلى الكواكب .
وإذا بالريح العارمة التى كانت تهب فى أشرعتها
تطوّقها : فتصعق وهى بعيدة عن الملاحين
وتسقط وتصرخ وتبتلعها الأمواج .

ابتلعتها الأمواج الفتاة الطارونتية !
جسدها الجميل طُوى تحت أمواج البحر .

فبادرت " تيتيس " (إلهة البحر) وقد فاضت دموعها
بإخفائه من الوحوش الضارية داخل تجويف صخرة
وتنفيذا لأمرها صعدت "النيريديات" (حوريات البحر المتوسط)
فوق المآوى الرطبة ودفعن الجسد إلى الشاطئ
ووضعنه بكل رفق فى هذا القبر فى رأس " زيفير " .
ومن بعيد ، وبأعلى أصواتهن نادينْ رفيقاتهن
وحوريات الغابات والمنابع والجبال
ورحن جميعا ، وهن يضربن صدورهن وينخرطن فى جنازة طويلة
يرددن حول نعشها قائلات " وا مصيبتاه ! "
" وا مصيبتاه ! " لم تصلى إلى عريسك أبداً .
ولم ترتدى ثوب عرسك أبداً
والذهب لم يحط بذراعيك أبداً
وتاج العرس لم يزين شعرك أبداً .

(شينييه ، أغانى الرعاة)

(حكاية حب أسطورية ، فقد اقتبسها الشاعر من العصور الإغريقية القديمة ، وهى برغم البعد المكانى والزمانى ، إلا أنها قريبة منا . فنحن لا نشعر كثيرا بهذين البعدين . ففى بيئاتنا وأعرافنا لا يزال يجرى مثل هذا الإعداد لزواج الفتاة منذ نعومة أظفارها ، والترقب المحموم والمحمل بالآمال والأمانى ، وكذلك الفجيعة التى أتت على كل شىء ، وبالذات مراسم الجنازة ودور " الندابات " .

إن حب الفتاة وتلهفها للقاء عريسها ، يجعلها تتقدم إلى صدر السفينة كأنها تتعجل الوصول ، وتبتهل إلى الكواكب أن تحقق لها آمالها على نحو ما تشتهى . والفتاة فى هذا المشهد تمارس حب المخلوق للخالق القادر المدبّر الذى تمثله الكواكب ، فنحن فى عصور ما قبل الدين والشرائع السماوية .

ولا تخلو القصيدة من الحب الذى يقوم على تضامن المخلوقات وحفظها للجسد من عبث الوحوش ، ثم قيامها بإجراءات الدفن فى مكان آمن ، ومراسم الجنازة) .

جاك بريفير (١٩٠٠ - ١٩٧٧)

عن الشاعر ، انظر قصيدة " أغنية الأطفال " فى الحب ... التضامن) .

الإفطار

في الفنجان .
وضع الحليب
في فنجان القهوة .
وضع السكر
في القهوة بالحليب .
بالملعقة الصغيرة
قلّب الجميع .
شرب القهوة بالحليب .
ثم وضع الفنجان
دون أن يكلمني .
أشعل سيجارة .
أطلق دوائر (بالدخان)
وضع الرماد
في المطفأة

دون أن يكلمنى
دون أن يطالعنى
نهض .
وضع القبعة فوق رأسه .
ارتدى معطف المطر
لأن السماء كانت تمطر .
ثم رحل
تحت المطر
دون أن يكلمنى
دون أن يطالعنى .
وأنا أمسكت رأسى
بين يدىَ
وبكيت .

(من ديوان «كلمات»)

(هو أيضا (بريفير) ، شاعر الحب والتضامن ، الذى يقدم لنا هذه اللوحة القاتمة التى يمكن أن نسميها : الحب الصامت أو الحب

المكتوم . وهى تذكرنا بقصيدة " وعاء الزهر المحطم " . وبصرف النظر عن معرفة ما وراء هذه اللوحة الحزينة ، إلا أننا نشعر بتعاطف وتضامن الشاعر مع المرأة . فيكفى أنه يتحدث باسمها . ويرسم لها صورة تثير تعاطف الآخرين وتضامنهم) .

(٦)

حب الوطن

ليوبولْد سيدار سينْجور

(١٩٠٦ - ٢٠٠٢)

شاعر ورئيس دولة . سينيغالى المولد . يحمل الجنسيتين الفرنسية ثم السينيغالية . نشأ فى أسرة كبيرة العدد من التجار الأثرياء ، كان يشعر فيها كما وصف فيما بعد فى شعره بـ "دفء الكتاكيت " . بدأ بدراسة العلوم الدينية ، حيث كان يعد نفسه للعمل فى السلك الكهنوتى . لكنه عمل بالتدريس العام . كان زميلا للرئيس (بومبيدو) فى كلية المعلمين وصار صديقا له.

ظهرت قصائده الأولى فى العديد من المجلات ، ثم جمعها فيما بعد فى ديوان بعنوان (أغنيات الظلال) .

ما إن التحق بالسوربون ، حتى جمع من حوله هو وكل من الشاعرين الزنجيين الشهيرين (إيميه سيزار) و (داما) نخبة المثقفين السود فى نضال ضد سياسة الاحتواء الثقافى ، ونجح فى تحقيق الاعتراف بهوية الثقافة الأفريقية . كما يعد سينجور من أكبر المنظّرين والمؤسسين لتيار (الزنوجية) المعروف .

شارك فى الحرب العالمية الثانية ، ووقع فى أيدى الألمان وعرف مرارة الأسر فى معسكرات (الستالاج) المعروفة . خلال هذه الفترة ،

نظم قصائده الحربية التى يعبر فيها عن شعوره بالحنين إلى وطنه ، ويتغنى بسعادة الحياة فى ربوعه . كما وصف فى هذه القصائد المحن والابتلاءات التى تعرض لها رفاقه فى السلاح من السينيغاليين . وقد حققت هذه القصائد للشاعر شهرته العظيمة ، بوصفه واحداً من أعظم شعراء أفريقيا . كما اشتهر عنه أنه أحد روّاد التحديث الثقافى فى هذه القارة . كما أسهم فى إصدار جريدة (الوجود الأفريقى) التى جمعت حولها نخبة شعراء أفريقيا وفرنسا .

شغل " سينجور " منصب رئيس جمهورية السينيجال من عام ١٩٦٠ حتى ١٩٨٠ . ومنذ ذلك الحين وهو يناضل فى سبيل استقلال أفريقيا ونهضتها وقد كرمته فرنسا باختياره عضوا فى مجمع اللغة الفرنسية عام ١٩٨٣ .

فى سائر دواوينه الشعرية ، وفى جميع مختاراته من الشعر الزنجى والملاجاشى الحديث المكتوب باللغة الفرنسية والتى قدم لها (جان بول سارتر) ، اهتم سينجور بالدفاع عن مفهوم الزنوجية والترويج لها . وهو يرى أنها ذات مدلولين :

الأول موضوعى ، والثانى ذاتى . فعلى المستوى الموضوعى يقول :

" الزنوجية تمثل مجموع القيم التى تتضمنها حضارة السود فى كل مكان من الولايات المتحدة ، وأمريكا اللاتينية، وجزر الأنتيل، والهند ، والمحيط الهندى ، وأفريقيا . أما على المستوى الذاتى ، فالزنوجية هى أسلوب معين لعيش القيم الخاصة بهذه الحضارات وذلك من خلال التمثّل لا الذوبان "

إلى نيويورك

نيويورك ! أقول يا نيويورك دعى الدماء السوداء
تسيل فى دمائك
لتجلو صدأ مفاصلك التى قدّت من الصلب
أشبه بزيت الحياة
لتضفى على جسورك انحناءة كفل الفرس
ومرونة شجرة العليق
هاهى ذى الأزمان الغابرة تعود
والوحدة المفقودة
والمصالحة بين الأسد والثور والشجرة
والفكرة المرتبطة بالفعل والأذن بالقلب
والرمز بالمعنى
هاهى ذى أنهارك تهدر بالتماسيح الأمريكية المعقوفة
والحيوانات المائية الاستوائية ذات العيون السرابية
ولا حاجة بالمرة لاختراع الصفارات
ولكن يكفى أن تفتحى عيونك على ناطحة سحاب أبريل
وآذانك ، وبالذات آذانك لله (الواحد)

الذى خلق السماء والأرض فى ستة أيام بضحكة أفريقية
وخلق الإنسان من طينة زنجية

(من ديوان «أثيوبيات»)

(مع زميله الزنجى (إيميه سيزار) ، اهتم (ليوبولد سينجور) السنغالى بالدفاع عن مفهوم الزنوجية ، والتأصيل لها ، والترويج لأفكارها فى المحافل والمنتديات ، وفوق ذلك كله ، من خلال الإبداع الشعرى .

يرى (سينجور) أن الزنوجية ، على المستوى الموضوعى ، تمثل مجموع القيم التى تتضمنها حضارات السود فى كل مكان من العالم : الولايات المتحدة الأمريكية ، وأمريكا اللاتينية ، وجزر الأنتيل ، والهند، والمحيط الهندى، وأفريقيا . أما على المستوى الذاتى فهى أسلوب معين لعيش القيم الخاصة بهذه الحضارات لجمع ذلك عن طريق الهضم والتمثل ، لا عن طريق الذوبان والفناء فيها .

إذن فالزنوجية ، على المستويين ، دعوة لجميع الأشتات ولمّ الشمل الخاص بالذات ، ولا يكون ذلك إلا بالحب) .

إيميه سيزار (١٩١٣ -)

في اعتقاده أن الشاعر قبل كل شيء هو إنسان متمرد . ولكن التمرد الفردى ينبغى أن ينضوى تحت تمرد جماعى .

يقول إيميه سيزار :

فيما يختص باللغة الفرنسية ، كان همّنا ، أنا وسينجور ، أن نسخرها لخدمة قضيتنا ، قضية الحرية ، يعنى استخدامها فى إطار التمرد الجماعى . فالشاعر في رأينا هو الإنسان الذى يستطيع أن يعيد صياغة اللغة .

ومن ثم كان التيار السريالى معينا لنا فى سعينا الحثيث وبحثنا الدءوب ، فالسريالية من أهدافها إيقاظ القوى الكامنة فى أعماق الإنسان . ولم تفلح معنا محاولة التطويع والتطبيع التى كانت سائدة فى ذلك الوقت . وكان من فضل السريالية علينا أنها علمتنا أن الثقافة الأوروبية بالنسبة لنا ما هى إلا واجهة ، أو هى تمثل " الأنا الظاهرى " لنا ، وأنه ينبغى علينا أن نسعى للعثور على القوى الجوهرية الكامنة ، التى اتخذت لها فيما بعد شعارا باسم " *الزنجية* " .

يوميات عودة إلى مسقط الرأس

أولئك الذين لم يخترعوا البارود ولا البوصلة
أولئك الذين لم يتمكنوا يوما من السيطرة على البخار ولا الكهرباء .

أولئك الذين لم يستكشفوا البحار ولا السماء
ولكن الذين بدونهم لا تكون الأرض هى الأرض
حدبة طيبة أطيب من الأرض الجرداء
صومعة يخزن فيها وينضج ما هو أكثر أرضا فى الأرض
زنوجيّتى ليست حجراً ، صَمَمُها المنقض على صخب النهار
زنوجيّتى ليست غشاوة ماء على عين الأرض الميتة
زنوجيّتى ليست برجا ولا كاتدرائية .

إنها تغوص فى لحم الأرض الأحمر
إنها تغوص فى لحم السماء المتقد
إنها تخرق العناء الكثيف بصبرها المستقيم .
تباركت الشجرة الاستوائية السامقة !

وتبارك الذين لم يخترعوا شيئا
والذين لم يستكشفوا شيئا فى حياتهم
والذين لم يسيطروا على شيء فى حياتهم

لكنهم يستسلمون لجوهر الأشياء مأخوذين
الجاهلون بالأسطح لكنهم مأخوذون بحركة الأشياء
لا يأبهون بالهيمنة لكنهم يلعبون لعبة العالم

أبناء العالم الأبكار حقا
الشاربون لجميع أنفاس العالم
نسمة أخوية لجميع أنفاس العالم
نهر بلا مصرف لجميع مياه العالم
شرارة النار المقدسة فى العالم
لحم العالم يختلج بحركة العالم نفسها !

صباح فاتر بالفضائل السلفية .

دماء ! دماء ! سائر دمائنا تموج بقلب الشمس الذكر
أولئك الذين يعرفون أنوثة القمر زيتىّ الجسد

الوفاق الجيد بين الغزالة والنجم
أولئك الذين امتداد حياتهم يسرى فى نبت العشب
حلقة العالم الكاملة والوفاق الوثيق
استمعوا للعالم الأبيض
الذى هدّه التعب من الجهد المضنى
مفاصله الثائرة تطقطق تحت النجوم القاسية
تصلباته الصّلبة الزرقاء تخترق اللحم الغامض
يسمع انتصاراته الزائفة تذيع بالنفير هزائمه
يسمع بالطنطنات الفارغة كَبْوته المسكينة المزرية

الرحمة بقاهرينا العالِمين والسذج البسطاء .

(يوميات عودة إلى مسقط الرأس)

(الحب هنا والثناء والمديح لا ينصب على وطن معين ، بل يتجاوزه إلى جنس الزنوجية. فهى موجودة فى أكثر من وطن ؛ والذين ينتمون إليها هم من أكثر من قارة .

والغريب أن يفاخر الشاعر بأنه وبنى جنسه لم يخترعوا شيئا للإنسانية ، لم يخترعوا البارود ولا البوصلة . ولم يسيطروا على البخار ولا الكهرباء ، وغير ذلك من الماديات . كما وأن زنوجيته ليست غشاوة ماء على عين الأرض الميتة ، وليست برجًا ولا كاتدرائية .

ومع ذلك ، فإن العالم لا يستقيم بدونها . ولا تكون الأرض هى الأرض بدونها ، فهى نسمة أخوية لجميع أنفاس العالم ، ونهر بلا مصرف لجميع مياه العالم ، وشرارة النار المقدسة فى العالم ، وصباح فاتر بالفضائل السلفية .

ويبلغ الشاعر فى فخره درجة الزهو ، بل هو يشفق على العالم الأبيض الذى هدّه التعب، ويسمع انتصاراته الزائفة تذيع بالنفير هزائمه . ويسمع بالطنطنات الفارغة كبوته المسكينة المزرية) .

كلود ماكّاى (١٨٩١ - ١٩٤٨)

ولد فى جامايكا . كان أصغر أحد عشر شقيقا . فى السابعة عشرة من عمره ، حصل على منحة دراسية من الحكومة ، ثم عمل فى شرطة جامايكا . فى التاسعة عشرة نشر أول ديوان له بعنوان : " أغانٍ من جامايكا"، وسرعان ما انتشرت هذه الأغانى بين الجماهير الشعبية ، وذاعت شهرة " كلود ماكاى " حتى حصل على الجائزة الأدبية التى ينظمها " معهد العلوم والفنون " .

وفى العام التالى سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية للدراسة . والتحق بجامعة ولاية كانسس حيث درس فى كلية الزراعة لمدة عامين . بعد ذلك انتقل إلى نيويورك ، وبدأ يرسل قصائده إلى الصحف الأمريكية .

وظل "ماكاى" يعيش فى الغربة بعيدا عن وطنه ، وفى باريس بالذات .

من بين أعماله هذه الدواوين :

- الربيع فى نيوهامبشير – ١٩٢٠ م .
- العودة إلى هارليم – ١٩٢٨م .
- بانجو – ١٩٤٠م .

تتميز أشعار " كلود ماكاى " بالقوة والعنف يظهران فى تمرده على وضع أبناء جنسه من الزنوج ، وسخطه على مستغليهم من البيض .

إذا لم يكن من الموت بد

إذا لم يكن من الموت بد ،
فلا نَموتنّ ميتة الخنازير ،
نُصاد ونلقى فى الحظائر بلا كرامة .
وحولنا كلاب مسعورة تنبح ،
ساخرة من مصيرنا اللعين ، المهين .

إذا لم يكن من الموت بد ،
فلْنمت أعزاء شرفاء .
ولا تُراق دماؤنا الغالية هباء .
حينئذ ، حتى الوحوش الضارية التى نقف فى وجهها ،
ستضطر إلى تكريمنا ونحن أموات .

أيها الرفاق ، يا أشقائى ،
علينا أن نواجه العدو المشترك .

وإذا كنا أقل منه عددا ، فلنتفوق بالشجاعة والبسالة .
وفى مقابل آلاف الطعان التى يوجهها إلينا ،
علينا أن نسدد إليه طِعنة واحدة ، قاتلة .

ما علينا إذا كان القبر ينتظرنا غدا ؟
سنواجه زمرة القتلة الجبناء ، رجالا .
ظهورنا إلى الجدار ، ولكن نرد الطعنة بالطعنة .

(كما قلنا فى معرض الحديث عن قصيدة الشاعر الزنجى (إيميه سيزار) بعنوان (العودة إلى مسقط الرأس) وقصيدة (سينجور) بعنوان (إلى نيويورك) ، فإن الزنوجية لا تتعلق بوطن واحد ، لأن الزنوج موزعون فى بلدان عديدة ، وفى أكثر من قارة . والزنوجية هنا تتخذ شكل النضال من أجل الدفاع عن قضايا أهلها والدعوة إلى الوقوف صفًا واحدًا ضد المستعمر الغاصب . فهى الوسيلة الوحيدة للحصول على حقوقهم ، أو كسب احترام الأعداء فى حالة الموت .

وذكر الموت هنا يفتح لنا بابا آخر من أبواب الحب . حينما نرى الشاعر معترفا بأنه ليس من

الموت بد . وهذه لمحة إيمانية تدعو إلى بذل الروح في سبيل الدفاع عن النفس والمال والعرض ، تذكرنا بالحديث الشريف الذى يقول : " من مات دون نفسه فهو شهيد . ومن مات دون ماله فهو شهيد . ومن مات دون عرضه فهو شهيد ") .

إدجار كينيه (١٨٠٣ - ١٨٧٥)

(إدجار كينيه) مفكر ومؤرخ كرس حياته للدفاع عن الديمقراطية والحرية حتى فى أصعب الظروف التى تعرض فيها للضغوط السياسية والإبعاد عن التدريس بالجامعة .

كان مناهضا عنيفا للويس نابليون بونابرت الذى قضى بنفيه إلى بلجيكا ، ثم إلى سويسرا . ثم عاد إلى فرنسا ، وعاد إلى التدريس بالجامعة .

نشيد المارسيّيز

هيا بنا يا بنى الأوطان !

قد حان يوم الانتصار !

بداية الطغيان الدامية ،

قد شُرعت فى وجوهنا . (تكرار)

هل تسمعون فى حقولنا ،

زئير الجنود الضارية ؟

لقد تهجموا على بيوتنا .

يبغون ذبح أبنائنا .

يبغون ذبح نسائنا .

إلى السلاح يا رفاق !

ونظموا صفوفكم !

إلى الأمام ! إلى الأمام !

لِترْوِ أرضنا دماؤهم المدنسة !

(بالرغم من نسبة هذا النشيد الوطنى إلى مؤلفه المؤرخ (إدجار كينيه) إلا أنه خرج فى وقت واحد من أفواه الفرنسيين جميعا فى جميع أنحاء البلاد ، فى المدن وفى القرى الفقيرة ، يعبر عن حب الوطن والدفاع عن مقدساته ، بالرغم من جبروت الطغيان الذى كان يجتاح فرنسا . والنشيد من ناحية أخرى ، يعبر عن إرادة البطل القومى الذى يتقدم الصفوف بكل ثقة واطمئنان ، وقد لاحت فى الأفق علامات النصر) .

فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " ميلونكوليا " فى " حب الخالق للمخلوق") .

نشـيد

الذين ماتوا بلا رياء في سبيل أوطانهم ،
من حقهم على شعوبهم أن تصلى على نعوشهم .
أسماؤهم ، من بين أجمل الأسماء ، هى أجمل الأسماء .
وكل مجد ، أمام أمجادهم ، عابر زائل .
وكما تفعل الأم مع وليدها الذى تهدهده ،
صوت شعب كامل يهدهدهم فى قبورهم .
المجد لأمتنا ، فرنسا الخالدة !
المجد لمن ماتوا فى سبيلها .
للشهداء ، للأبطال ، لذوى الهمم ،
الذين اقتفوا آثارهم ،
وأرادوا مثلهم مكانا بين الخالدين ،
فقرروا أن يموتوا ميتتهم .
من أجل هؤلاء الموتى المكرّمين فى هذه الأجداث ،
يشيّد " البانتيون " ، مثوى الخالدين ، فوق هامات السحاب ،

فوق باريس العاصمة ، مدينة الألف برج ،
مدينة المدائن ، زينة المدن .
هذا الإكليل من العمدان ،
الذى تنيره الشمس كل صباح .
المجد لأمتنا ، فرنسا الخالدة !
حينما يرقد هؤلاء الموتى فى مثواهم الأخير ،
لا يمكن للنسيان الذى يطوى سائر الأموات ،
أن يقترب من قبورهم التى ننحنى أمامها .
فى كل يوم ينهض المجد فجراً جديدا مجدداً .
يحيى ذكراهم ويخلد أسماءهم .
المجد لأمتنا ، فرنسا الخالدة !

– حق الأبطال الذين ضحوا بأرواحهم فى سبيل الدفاع عن الوطن فى أن تقام لهم صلاة الجنازة من الشعب كله .

– تعلق القلوب بهم ، وحبهم كحب الأمهات لفلذات أكبادهن .

– هؤلاء الأطفال سيكونون أمثلة لغيرهم ممن سيقتفون آثارهم .

- تخليد ذكراهم بإقامة مقبرة كـبرى باسم " البانتيون " تضم رفات هؤلاء الأبطال .

- إحـيـاء ذكـراهـم بزيارة قـبـورهم وتخليد أسمائهم .

(٧)

حب الأرحام

بيير كورنيّ (١٦٠٦ - ١٦٨٤)

ولد (بيير كورنيّ) عام ١٦٠٦ ، وتعلم في مدينة (رووان) في مدارس " اليسوعيين " حيث نهل من نبع القدماء . ودرس القانون . ومما شحذ خياله وشاعريته أنه في تلك الفترة وقع في غرام فتاة ، وهو يعترف بأن هذا الحب قد أيقظ خياله وعلمه الشعر . ولعل حبه هذا هو الذي دفعه إلى أن يكتب أولى مسرحياته (ميليت) . ثم انتقل (كورنيّ) إلى باريس عام ١٦٢٩ ليشهد عرض مسرحيته والنجاح الذي حققته . ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١٦٣٦ ، وهو تاريخ تقديم مسرحية (السيد) استكمل (كورنيّ) ثقافته الأدبية التي كان قد بدأها في الريف . واتصل بشعراء عصره وخاصة من كانوا في سنه مثل : " ميريه " و " سكودري " و " روترو " . واكتملت له صورة الحياة الأدبية التي كانت تصله ناقصة في الريف .

واستطاع (كورنيّ) خلال تلك الفترة أن يتفهم أصول الفن المسرحي ويدرك أذواق الجمهور . وسرعان ما فتحت له المدينة صدرها ورحب به البلاط ، بعد أن تنبه إليه الكاردينال " ريشيليو " وأدخله في زمرة الكتاب الخمسة العظام .

كتب (كورنيىْ) أكثر من ثلاثين مسرحية، بين كوميديا وتراجيديا . من أشهر كوميدياته ، مسرحيات (ميليت) ، (الميدان الملكى) ، الوهم المضحك) و (الكذاب) . أما أهم تراجيدياته فهى (السيد) و (سنا) و (هوراس) و (بوليوكت) . فاز (كورنيىْ) بعضوية مجمع اللغة الفرنسية عام ١٦٤٧ .

إميليا تثأر لأبيها

قل إنك نفسك انحزت إلى جانبهم ،
وأوكلت للصاعقة معاقبة الطغاة .
لن أحدثك فى هذا الأمر بعد الآن ، اذهب ،
وكن فى خدمة الطغيان .
دع روحك لشيطانه الوضيع ،
ولكى تعيد الهدوء إلى عقلك المضطرب ،
عليك بنسيان أصلك والجزاء الذى فى انتظارك .
وسأعرف كيف أنتقم لوطنى وأثأر لأبى ،
دون أن أستعين بيدك فى خدمة غضبى .
ما كان أحرانى أن أحوز شرف قتله المشهود
لو أن الحب لم يمسك ذراعى حتى الآن .
فهو الذى أبقانى أسيرة لهواك ،
وجعلنى أحتاط لحياتى من أجل سعادتك .
كان بوسعى وحدى أن أقتل الطاغية ،

فيكتب على أن أموت بأيدى حراسه ،
وبذلك أسلبك أسيرتك .
ولكن لما كان الحب يقضى علىّ بأن أعيش لك وحدك ،
قررت ، لكن عبثا ، أن أحفظ نفسى من أجلك ،
وأن أقدم لك الوسيلة لتكون خليقًا بى .
غفرانك ، أيتها الآلهة الجليلة ، إن كنت قد خُدعت ،
حينما تصورت أننى أحببت حفيداً لبومبيوس ،
وإن كان عقلى الضال قد خدعه المظهر الزائف ،
فاختار عبداً بدلاً منه .
ومع ذلك ، أحبك كيفما تكون .
وإذا كان الفوز بى يحتم عليك أن تخون سيدك ،
فألفٌ سواك كانوا سيتنافسون على قبول هذا الشرط ،
لو كان فى وسعهم أن ينالونى بنفس الثمن الذى عُيِّن لك .
ولكن لا تخش أن ينالنى غيرك بهذه الوسيلة .
عشْ من أجل طاغيتك العزيز ، ولأمت أنا ملكا لك .
ستندفع حياتى مع حياته إلى الهاوية ،
ما دام جبنك لا يجرؤ على استحقاقى .
ولتأت لترانى سابحة فى دمائه ودمائى ،
أموت دون رفيق إلا من شجاعتى .

وأقول لك وأنا أقضى بنفس راضية :

" لا تتهم قدرى ، فأنت وحدك صانعه ،

إننى أنزل إلى القبر الذى قضيت به علىّ ،

حيث يتبعنى المجد الذى كان مخصصاً لك :

إننى أموت بعد أن دمرتُ سلطانًا مطلقًا ،

لكننى كنت سأعيش لك ، لو أنك شئت ذلك " .

(لا شك أن الثـأر الذى تدبره (إيميليا) لأبيها انتقامًا من الإمبراطور (أغسطس) إنما هو نابع من الحب البنوى الذى تكنّه الابنة لأبيها الذى اغتاله الإمبراطور، مع أنه كان الوصى عليه. ونحن هنا أيضا أمام نوع آخر من الحب العاطفى الذى يجمع بين (إيميليا) وبين (سينّا) الذى تعدّه لكى ينفذ عملية الثأر . ولعل (إيميليا) استجابت لهذا الحب لأنه الطريق الذى يمهد للانتقام ، فهو حب مشروط أو مشكوك فى أمره. كذلك أمامنا حب ثالث من المفترض أن يكون بين (إيميليا) والإمبراطور الذى أنزلها منزلة ابنته ، ليعوضها عن فقد والدها . ولكن (إيميليا) تنحّى هذا الحب جانبًا حتى لا يقف عقبة فى سبيل الحب الكبير ، وهو الثأر .

وجدير بالذكر أن ثورة (إيميليا) في هذه الأبيات وسخطها على (سينا) إنما مردّه ما لسته من تردد (سينا) في تنفيذ خطة الانتقام ، حينما حاول تذكيرها بأن الإمبراطور الذى يعاملهما معاملة الأبناء ، ويعطف عليهما ، ويغدق عليهما العطايا ، لا ينبغى أن يقابل بالغدر والخيانة . خاصة وأن الإمبراطور تبناها فعوّضها عن فقد أبيها ، ومن ثم فنحن أمام حب رابع) .

كاتب ياسين (١٩٢٩ - ٢٠٠٢)

فى سن السادسة عشرة ، تم القبض على (كاتب ياسين) بتهمة التحريض على المظاهرات المطالبة بالاستقلال عن فرنسا بعد أن ساعدها الشعب الجزائرى فى الحرب العالمية وخرجت منها منتصرة . وقد أودع (كاتب ياسين) السجن وفصل من مدرسته .

فى هذه السن أصدر (كاتب ياسين) أول ديوان له وكان بعنوان (مناجيات) وظل يكافح الاستعمار بإلقاء الخطب ونظم الأشعار ، حتى حينما سافر إلى باريس كان يحيى حياة المكافح والشاعر المناضل .

وفى عام ١٩٦١ ، حضر إلى القاهرة عضوا فى مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا . بالإضافة إلى ديوان (مناجيات) كتب : (نجمة قصيدة) و (نجمة رواية) ، ومجموعة مسرحيات بعنوان (دائرة الانتقام) ثم (المرأة المتوحشة) .

بالنسبة لـ (كاتب ياسين) ، الأدب مرادف للكفاح . أما الشكل فهو أشعار تمجد الكفاح . فهو من النوع الملحمى . ويمكن أن نرجع إنتاج (كاتب ياسين) كله إلى بضعة مفاهيم بسيطة وقوية ، مؤداها أنه فى سماء التاريخ الشرس يحلق طائر العقاب (طائر الموت ورسول الأسلاف)

ويخط برجه الأسطورى . وفوق الأرض يوجد جيل المذابح الذين يمثلون الثورة الفتيّة . ثم هناك الشخصية الرئيسية (نجمة) التى تمثل الجزائر ، وهى امرأة متوحشة وعاشقة فى الوقت نفسه ، وهى كذلك صورة وهمية أسطورية ، تمثـل الصـلة بين الماضى السحيق والحـاضر القائم الذى تصوغه المعارك الدامية ، وهى امـرأة غـامضة مثـل الوطـن الذى تجسده .

زهرة بليدا

في ذكرى التي وهبتني الحياة
زهرة المستشفى السوداء
حيث تلقى " فراتز فانون " نجمته
في حميم جبهته
زهرة المستشفى السوداء
الزهرة التي هبطت من شجرتها
ولاذت بالفرار . . .

هل كانت تأتي في هذه الغرفة
كانت تأتي
عاشقة يتنازعها العشاق
عازفة مواسية
في آخر طريقها
تغطي رأسا بالخوذة المخيفة

خوذة الإلهة المحاربة

كانت امْرأة الشرفة المتوحشة

مجهولة العيادة

السافرة المحمولة إلى وادور

الساقية المزيَفة وسط فرنسيَي الجزائر

فاقدة الذاكرة الضالة

والمغربية المعروضة فى المزاد

بطلقات النار

فى ثرثرة جزائرية كورسيكية

سريعة صاخبة وشيطانية

وزهرة العفار فى ظل الفندق

وأخيرا المرأة المتوحشة التى تضحى بابنها الوحيد

وتشاهده يلعب بالسكين

متوحشة ؟

نعم . . .

(زهرة بليدا)

(لأن حب الآباء والأمهات لأبنائهم شيء طبيعي ، بل غريزي ، فإن الله تعالى لم يوص به الآباء والأمهات . ولكنه أوصى الأبناء بأن يحسنوا إلى والديهم ، لأن هذا الإحسان ، أو هذا الحب ، يحتاج إلى توصية .

لقد جاءت التوصية بحب الوالدين مباشرة بعد الله تعالى (يا بُنَيّ لا تشرك بالله) ثم (ووصينا الإنسان بوالديه) وحب الأم مقدم بنص حديث الرسول ("من أحق الناس بصحبتي . قال أمك " . وكررها ثلاثا . وبعدها قال " ثم أبوك ") .

وفى هذه القصيدة نحن أمام هذه الحالة الثانية النادرة : حب الابن للوالدين أو لأحدهما ، وهو هنا حب الأم بالذات . هل لأن الشاعر عربي مسلم ؟ ربما .

لكنه حب غريب ، كالعلاقة التي تربط بين الأبناء من ناحية ، والآباء والأمهات بالذات من ناحية أخرى ، بل هو أقرب إلى اللوم والعتاب : " المرأة المتوحشة التي تضحي بابنها الوحيد ، وتشاهده يلعب بالسكين ، متوحشة ؟ نعم") .

رينيه شار (١٩٠٧ - ١٩٨٨)

في هذه المرحلة الجديدة ، احتفظ (رينيه شار) من السريالية بالفكرة التي تقول بأن الشاعرية تعتبر طريقة من طرق اكتشاف العالم في مقابل الطريقة التي تمثلها العلوم ، بل هي تسمو عليها . فالحقيقة أن الشعر لا يقتصر على رصد الواقع وحسب ، بل إن الشعر "يصوره" و " ينشئه " . هذا الفارق الأساسي في رأى (رينيه شار) هو الذى جعله لا يكتفى بالمدخل السريالي للإنتاج الأدبى . فالمدخل السريالي يخطئ إذ يجعل الأولوية للاوعى أو اللاشعور، إن لم يكن يقتصر عليه . مما ينزل الحقيقة (الطبيعية والإنسانية ، إلخ) منزلة دنيا أو على الأقل يجعلها تابعة للاوعى أو اللاشعور. وعلى ذلك فمن واجب الشاعر أن "يحافظ على الموازنة العادلة بين عالم اليقظة المادى وسعة السبات الرهيب " هذا الرأى يدل على موقف الشاعر المتشكك ومدى الريبة التى يشعر بها أمام تداعى الصور الخيالية وسرف التلقائية "المنفلتة " من كل ضابط ، وكلها شعارات السريالية الأولى .

صحبة التلميذة

أعرف جيداً أن الدروب تمضى
أسرع من التلاميذ
المعلقين بحقائبهم
الخائضين فى وحْل الأدخنة
حيث الخريف يفقد أنفاسه
هل أنت يا ابنتى التى رأيتها تبتسم
ابنتى ، ابنتى ، أنا أرتعد

ألم تتوجسى خيفة
من ذلك المشرد الغريب
حينما رفع قبعته
ليسألك عن الطريق
ألم تبد عليك الدهشة
أقبل كل منكما على الآخر

كالخشخاش والقمح
ابنتى ، ابنتى ، أنا أرتعد

الوردة التى كانت بين أسنانه
كان بوسعه أن يدعها تسقط
إن كان رضى أن يقول اسمه
ويعيد البقايا لموجاته
ثم اعتراف ملعون
قد يغشى نومك
بين دمه
ابنتى ، ابنتى ، أنا أرتعد

حينما ابتعد هذا الفتى
المساء أحاط بوجهك
حينما ابتعد هذا الفتى
مقوس الظهر محنى الجبهة خالى الذراعين
تحت الصفصاف كانت حالتك خطيرة
لم يحدث لك ذلك قبل الآن
هل سيعيد لك جمالك
ابنتى ، ابنتى ، أنا أرتعد

الوردة التى كانت فى فمه
هل تعرفين ماذا كانت تخفى
أبى ، ألَمًا صافيا يحفّه الذباب
أنا سترته برحمتى
لكن عينيه كانت تعداننى
الوعد الذى أخذته على نفسى
أنا مجنونة أنا جديدة
أنت يا أبى الذى تغيرت

(على شاكلة المسرح داخل المسرح ، فنحن هنا أمام حبَّيْن : حب الأب لابنته ، والحب بين الابنة والغريب . وإذا كان الحب الثانى أكثر الأنواع شيوعا، فإن الأول نادر ، ليس فى الحياة ، وإنما فى القصائد المختارة . وحب الأب لابنته نابع من إشفاقه عليها من التورط فى حب عاطفى قد لا تحمد عقباه : " ابنتى ، ابنتى ، أنا أرتعد ... ألم تتوجسى خيفة من ذلك المشرد الغريب حينما رفع قبعته ليسألك عن الطريق ... أقبل كل منكما على الآخر كالخشخاش والقمح ، ابنتى ، ابنتى أنا أرتعد ") .

الأنشودة الخالدة

روز يموندى جيرار

حينما تصبح شيخًا وأنا أصبح شيخة
حينما يصبح شعرى الأشقر شعرا أبيض
سوف نجلس فى الحديقة المشمسة فى شهر مايو .
ننشد الدفء لأطرافنا الباردة .
يحمل الربيع إلى قلوبنا البهجة والسرور ،
فنظن أننا مازلنا عاشقين فى ريعان الشباب
ثم أبتسم لك وأنا أهز رأسى
ونكون زوجين عجوزين رائعين
نتبادل النظرات ونحن جالسين تحت تعريشتنا ،
بعيون صغيرة تفيض حنانًا وبريقًا .
حينما تصبح شيخا وأنا أصبح شيخة .
حينما يصبح شعرى الأشقر شعراً أبيض .

فوق مقعدنا الصديق المغطى بالطحلب الأخضر ،
فوق مقعد الماضى سوف نتجاذب أطراف الحديث .
تغمرنا بهجة حانية عطوف .
نختم كل عبارة بقبلة عابرة .
كم مرة في الماضى قلت لى : أحبك !
حينئذ سنجلس نحصى بانتباه هذه المرات .
سوف نذكر ألف شيء وشيء .
أشياء تافهة ، رائعة ، تكون موضوعًا للحديث .
ويهبط شعاع وردى لطيف
يحطُ وسط شعورنا البيضاء
حينما نعود إلى مقعدنا القديم المغطى بالطحلب الأخضر ،
مقعد الماضى نتجاذب أطراف الحديث .

وما دمت في كل يوم أحبك أكثر وأكثر
اليوم أكثر من الأمس ، وغدا حبى لك أكثر وأكثر
فما قيمة ما يبدو في الوجه من تجاعيد ؟
سيكون حبى لك أقوى وأعظم .
وذكرياتى تصير أيضا ذكرياتك :
هذه الذكريات المشاعة بيننا ستربطنا أكثر وأكثر ،

وتنسج بيننا أبداً ودوماً علاقات جديدة .
صحيح سنصبح شيخين طاعنين .
لكن يدى مع الأيام ستضم يدك أقوى وأقوى .
لأننى كما ترى فى كل يوم أحبك أكثر وأكثر .
اليوم أكثر من أمس ، وغدا حبى لك أكثر وأكثر .

ومن هذا الحب الغزير الذى يمضى كما الأحلام
أريد أن أحفظ كل شىء كاملا فى أعماق قلبى
أدخر ، إن كان فى الإمكان ، هذا الشعور السريع
كيما أذوقه بعد ذلك فى تؤدة وهدوء .
أخفى كل ما يتعلق بهذا الحب أشبه بالبخيل
أدخره فى حرص لشيخوختى .
حينئذ سأصبح فى ثراء عريض
لأننى سأكون احتفظت بكنوز أيام الشباب .
ومن هذه السعادة الماضية التى تولى ،
سوف تساعدنى ذاكرتى على اجترار ما فيها
من رقة وعذوبة .

ومن هذا الحب الذى يمضى كما الأحلام
أكون قد حفظت كل شىء كاملا فى أعماق قلبى .

حينما أصبح شيخة وأنت تصبح شيخًا
حينما يصبح شعرى الأشقر شعراً أبيض
سوف نجلس فى الحديقة المشمسة فى شهر مايو
ننشد الدفء لأطرافنا الباردة .
يحمل الربيع إلى قلوبنا البهجة والسرور
فنظن أننا ما زلنا عاشقين فى ريعان الشباب .
أبتسم لك وأنا أهز رأسى
وتحدثنى عن الحب بصوت مرتجف
نتبادل النظرات جالسين تحت تعريشتنا ،
بعيون صغيرة تفيض رقة وبريقًا .
حينما تصبح شيخًا وأنا أصبح شيخة ،
حينما يصبح شعرى الأشقر شعراً أبيض .

(من ديوان «النايات»)

(من القصائد النادرة التى كتبتها شاعرة .
وهى أيضا من القصائد التى يندر أن تدانيها
قصائد فى الرقة والعذوبة . فالرقة تناسب المرأة ،
وهى تتضاعف حينما تكون المرأة شاعرة .

وتتضاعف مرة أخرى بسبب موضوع القصيدة وهو الحب ، وهو حب قديم وقائم وقادم . فالشاعرة تتصور أنهما صارا شيخين ، وترسم لوحة بديعة للممارسات الغرامية التي سيقومان بها ، وتكون مناسبة لهذه السن . إن أى تعليق على هذه الممارسات سوف يفسدها . كل ما نستطيع أن نقوله هو أن نكرر اللازمة التي تكررها العاشقة : " ومادمت في كل يوم أحبك أكثر وأكثر ... فما قيمة ما يبدو في الوجه من تجاعيد " ، " حينما أصبح شيخة ، وأنت تصبح شيخا ، حينما يصبح شعرى الأشقر شعرًا أبيض " . جميل أن يتكيف الإنسان مع مراحل العمر المختلفة وأن يجد في كل منها جمالاً . والأجمل أن يقرّ بسنة الله في الخلق ويحمد الله في كل حال .

بعد أن كنّا قد صنفنا هذه القصيدة ضمن قصائد حب الحياة ، رجعنا ورأينا أنها أقرب إلى حب الأرحام ، مع أنها ليست كذلك بالمعنى الدقيق) .

فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " ميلونكوليا " في " حب الخالق للمخلوق") .

غدًا ، منذ مطلع الفجر

غداً ، منذ مطلع الفجر
حينما تشرق صفحة السماء
سأرحل . أنا أعرف أنك تنتظرينني .

لا أستطيع البقاء بعدئذ بعيدا عنك .
سأمشى وعيناى مسلطتان على أفكارى
دون أن أدرى شيئا خارجى
دون أن أسمع صوتا أو ضوضاء
وحيداً ، غريبا ، مقوس الظهر
ويداى معقودتان
حزينا ، النهار عندى والليل سيان .
لن أنظر إلى ذهب المساء .
ولا الأشرعة البعيدة التى تيمّم شطر " هارفلور " .
وحينما أبلغ غايتى ، سأضع على قبرك
باقة من السوسن الأخضر والياسمين المزهر .

(لأن حب الآباء للأبناء عاطفة طبيعية غريزية، لأن الابن قطعة من الأب وليس العكس، فإنه لا يحتاج إلى دعوة ولا إلى توصية ، ومن ثم لم يرد ذكره في القرآن . وهذه هي الحالة الثانية في القصائد المختارة التي تتعرض لهذا النوع من الحب .

معروفة قصة غرق ابنة فيكتور هوجو مع زوجها في شهر العسل ، مما كان له وقع الصاعقة على الشاعر . وفي هذه الأبيات يعبر عن نيته في زيارة قبرها ليضع عليه " باقة من أزهار السوسن الأخضر والياسمين المزهر " وقد عاش هوجو بعد مصرع ابنته الشابة حتى جاوز الثمانين ، فالموت لا علاقة له بالسن ، وإنما (لكل أجل كتاب) .

بهذه المناسبة ، نذكر أن الكاتب المسرحي (أوجين يونسكو) سخر من فيكتور هوجو لنظمه قصيدة في مثل هذه المناسبة . وزعم أن الحزن الحقيقي ، في مثل هذه الكوارث ، لا يسمح للأب بأن ينظم قصيدة) .

شـاوشـيه هسـين

(القـرن السـابع عشـر)

من شعراء القرن السابع عشر . وحسب التقسيمات التي درج عليها نقاد الأدب الصيني، فإن " شاوشيه هسين " ينتمي إلى أسرة "تسينج" التي يمتد عصرها من عام ١٦٤٤ حتى عام ١٩١١م ، وهو من مدينة " شانتوج " ، وعاش في عهد الإمبراطور "كانج هسي " ، كما كان حاصلا على درجة الدكتوراه في الآداب .

الزوجة المطلقة

(١) بلا سبب ، تلاقينا واتحدنا .
وبلا سبب ، نفترق .
بالأمس كنا زوجًا من البط البرى ،
واليوم سحابتان ،
أحدهما تندفع نحو الشرق والأخرى نحو الغرب .
والسحاب يسير على هوى الرياح ،
لكن قلبى ليس كذلك .
أمَا قلبك ، أيها المتقلب ،
فيلفظنى كعشبة ذابلة .

(٢) ذهبتُ عند أهلك مرة أخرى أحييهم ،
وانصرفت وأنا أتلفت بلا انقطاع ،
حزينة ، على آثار أقدامى
على الطريق التى جئت منها .

(٣) وتركت لزوجتك الجديدة ماستين بلون القمر ،
تصنع منها قرطًا لأذنيها .
فأنا لا أحقد عليها لأنها أخذتك منى ،
وأريد أن تبقى الماستان قريبًا منك .

(٤) ومرآتى ستبقى دائمًا فى خزانتها
معفرة بتراب بيتك .
فلن أقوى على مسحها ،
فبفضلها سأظل قريبة من ذكرياتى الماضية .

(٥) حياتى لم تعد لها قيمة .
كيف أعبر لك عن مكنون نفسى ؟
ليتنى أستطيع أن أهبك عشبة الخلود الذهبية
حتى يمتد عمرك إلى الأبد .

(حب الزوجة للزوج ليس من صلة الرحم بالمعنى الدقيق ، ولكننا جعلناه فى هذا النوع من باب التجوّز .

ولكى نجد حالة من هذا الحب ، اضطررنا لأن نتوغل فى البلاد فنذهب إلى الصين ، وأن

نتوغل فى التاريخ حتى وصلنا إلى القرن السابع عشر . فالشاعر ينتمى إلى ذلك العصر ، وهو من الصين .

والقصيدة لا تحتاج إلى شرح . ولعل بساطتها هى سر جمالها . كل ما نريد أن نشير إليه هو أن الزوجة هنا هى زوجة مطلقة تركها زوجها إلى زوجة أخرى ، ومع ذلك فهى تحبه، بل وتترجم هذا الحب إلى أفعال ، فتذهب لزيارته فى بيته وتؤدى واجب التحية لأهله ، وتقدم هدية لزوجته الجديدة ، ثم تعترف بأنها لا تحقد عليها . كما أنها تتمنى لزوجها السابق طول العمر) .

جورج شحادة (١٩٠٧-)

شاعر وكاتب مسرحي من أصل لبناني ، ولد عام ١٩٠٧م في مصر بمدينة الإسكندرية ، من أسرة لبنانية فرنسية الثقافة . التحق بإحدى الجامعات الفرنسية في باريس لدراسة الحقوق ، ثم تردد على الأوساط الأدبية واختلط بشعراء المدرسة السريالية في أوائل الثلاثينيات ، فكان أن اكتشفه الشاعر العظيم " سان جون بيرس ". نشر أول ديـوان له عام ١٩٣٨م بعنوان (أشعار)، الجزء الأول . وبعد عشر سنوات صدر الجزء الثاني ، ثم الجزء الثالث عام ١٩٤٩م . كما أصدر ديـوانا عام ١٩٥٠م بعنوان (الطالب السلطان) ، وآخر عام ١٩٥١م بعنوان (لو تصادف حمامةً بـرّية).

أثرت طبيعته الشاعرية وموهبته الشعرية على إنتاجه من المسرح ، الذي تحول إليه بوصفه شكلا من أشكال التعبير ، مع المحافظة على روح الأحلام وطابع الخيال الذي فجر قصائده الشعرية ، ومن ثم كانت الحفاوة والترحيب ، بل والحماسة التي قوبلت بها مسرحياته من جانب الشعراء السرياليين ، من أمثال " بروتون " و " سوبر فييل" و " ميشو " و " بيكيت " و " رينيه شار ".

ومن ناحية أخرى كان هذا الإنتاج المسرحى وراء موجة السخط العارمة من قبل جمهور النقاد الرجعيين ، وعلى رأسهم " جان جاك غوتييه " الذين لم يمكنّهم ضيق الأفق والنظرة السطحية من فهم هذا الشاعر ، الذى أضاف إلى الشعر أنغاما مبتكرة، وإلى المسرح أبعادا جديدة ، جعلته فى مكان وسط بين عبث اللامعقول من ناحية ، وأدب الأحلام الوردية ، والفردوس المفقود من ناحية أخرى .

صورة يوليوس

هذا الشاب الذى يهبط شارعًا
فى مونتيفيديو
وفى إصبعه خاتم ماسى ،
يرتدى لباسًا أسود كقاضٍ زراعى ،
هو يوليوس بن حنا
(يرغب فى تناول فنجان شاى فى زورق
مع أن البحر بعيد !)

يعرف أشياء كثيرة حين يسير :
كيف يجاوب طائر القندس
كيف يحيى من نافذته الخزفية
التلميذة ابنة الستة عشر ربيعًا وهى كحبة بندق
فى الليل
(أشجار ضخمة تصب سيلا من أوراقها .
إنها نهاية أصيل جميل فى أوروجواى)

والآن يا يوليوس ، ماذا أصبحت
منذ أن فقدت العشرين عامًا من ظلالكَ ،
منذ أن ذبلت أكاسيا صدرتك المزهرة
(فى الخارج ، ريح هندية خفيفة
تبكى)

كيف يتصور وجهك
أولئك الذين لم يشاهدوك قط
(جالسًا على درجات كتبك
أو واضعًا قدميك الحافيتين فى ينابيعك)
على ضوء شمعة تضيء بانحراف ؟

ماذا لو أنى قلت لهم إنك تشبه ساعى
بريد فى الجبال ،
سنديانة نزع الليل ريشها ؟
أو إنك فيل وفراشة مجتمعان تحت الغلاف نفسه
(بأنفك الكبير مثل حقيبة سفر)
بساقيك اللتين لا تنتهيان
لأنك يا يوليوس ، طويل ضعف عمرك .

ليتهم يستطيعون أن يسمعوا صوتك مع تلاحم المياه ،
أن يروا ، على كتفيك ، شال التوبة
في ذلك المنزل المطل على شارعين وتحمل فيه التاج

لا أحد أفضل منك هز خوخات
شجرة الشعر ،
أيها الشاعر الأنيس . . .
ليفتح الجواد الجالس على عرشه
في شارع الخبازين
نافذته عند الشفق
وليذكر :
وهو يسحب نفساً بمنخره ،
من أفضل من امتدح صدره المغطى بالشعر
واللآلئ ؟
من صحبة في نزهة عبر الزمن ، بخيط
يجمع سنابكه الأربعة
في أرض المرملة ؟

والأسد ؟
من قصّ لحيته بشكل مستدير بمقصات دائرية
من ختم بقدمه ، قدم الأسد ،
على الوردة الربيعية ؟
من علّمه أن يقوم في بيوتنا
بأداء التحية مثل الآنسة الصغيرة
وأن يكون ، في القصائد ، حارسًا ليليًا ؟

الطيور تحلق بأجنحة كونية
لبهجة العيون
من حبسها في جاروف
من تاجر بالعنبر مع قطة تزن ثلاثة كيلوات
ووضع على الرف مربى
القصب ،
في الخريف حين يئن الناس وتئن الرياح ؟

يا يوليوس ، لا توجد سعادة إلا
من كآبة ،
الآن يهبط الليل على شارع ماسّينيه

الغيلان فى كل مكان
ساعتك ، ساعة منتيفيديو ، موضوعة على المنضدة .
استولى النوم عليك ، من كتفيك ،
يمزج تفاحة فرنسا بقصب سكر الجنيات .
أنت تنام ككتاب صور كبير .

(عرفان وتقدير ليوليوس سوبر فييل
المجلة الفرنسية الجديدة أغسطس ١٩٥٤)

(جورج شحادة الكاتب اللبنانى الأصل ، المولود فى الإسكندرية بمصر ، يتحدث عن صديقه (يوليوس سوبر فييل) الكاتب والشاعر الفرنسى المولود فى مونتفيديو بأورجواى. صديقان بالرغم من بعد المسافة. فهل ربط بينهما الشعر ، أو اللغة الفرنسية المشتركة ؟ أو كلاهما معًا ؟

على أية حال ، فالقصيدة هى الوحيدة فى هذا الفن من فنون الحب : حب الأصدقاء . وهى تتعرض لأمور وحقائق قد لا يعرفها سوى الصديقين ، وعلى أكثر تقدير ، أصدقاؤهما

المقربون . وهذا من حميمية الصداقة ، أن يحتفظ الصديقان لنفسيهما بمعرفة خصوصيات مقصورة عليهما ، يبتسم أحدهما حينما يسمعها من الآخر ، أو حينما يقرؤها مكتوبة بقلم الآخر.

وقد جعلنا هذه القصيدة ضمن القصائد المتعلقة بصلة الأرحام من باب التجوّز) .

(٨)

حب الحياة

بول فاليرى (١٨٧١ - ١٩٤٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "الخطوات" فى " الحب إبداع ") .

المقبرة المطلة على البحر

كلا ، كلا ، انهض ، فى التاريخ المتتابع !
حطم ، يا جسدى ، هذا الشكل المستغرق فى التفكير .
واجْرَع ، ياصدرى ، ميلاد الريح !
نسمة بردٍ منعشة صعدت من أركان البحر ،
ردَت لى روحى ... ياللقوة شبّعها الملح !
فلألحق بالأمواج ، كى أخرج حيا منها !

أجل ! يا للبحر الهائل المطبوع بالهذيان ،
يا جلد الفهد ، يا جلباباً مثقوباً .
بِألوفٍ من صور الشمس المعكوسة ،
يا أفعى هاجت ، سكرى بالجسد الأزرق ،
تنهش ذيلك المتلألئ ،
فى جلبة هى أشبه بالصمت .

الريح تهب ! ... ولابد من خوض الحياة !
كتابى تفتحه الريح العاصفة وتغلقه ،
الموج المتفتت يتدفق من سطح الصخر .
طيرى ، طيرى ، يا صفحات مبهورة !
كسّر يا موج ، كسّر بالأمواج المسرورة .
هذا السطح الهادئ كانت تعلوه شراعات تمضى !

(من ديوان «مفاتن»)

(بالنسبة لما يحوطه من جمادات ومن أموات، يشعر (بول فاليرى) أنه المخلوق الوحيد الذى يختلف عن كل ما حوله ومن حوله ، لأنه من بينها جميعا هو المتغير المتحول. لكنه يشعر بأنه يوشك هو أيضا أن يخضع لإرادة السكون والجمود . غير أن انتفاضة مفاجئة تسرى فى أوصاله ، وتحضّه على أن ينجو من هذا المصير ويطرحه خلف ظهره ، ويلقى به بعيدا خارج نطاق التأمل والتفكير الجامد ، إلى مجال الحركة الإيجابية المنجية، وإلى دائرة الفعل المحرِّر المنقذ . فيأمر الشاعر جسده بأن يحطم شكله المتفكر ،

الذى يعد نوعًا من الخضوع والانصياع للسكون والجمود :

" حطم يا جسدى ، هذا الشكل المستغرق فى التفكير " .

" وإذا بهبوب الريح يغشاه فيتخلله ما يشبه فى إحساسه برودة ميلاد جديد :

" نسمة برد منعشة ، صعدت من أركان البحر ، ردّت لى روحى " .

وهكذا ، فإن عودة الحياة فى الطبيعة المحيطة ، تساعد الشاعر فى التخلص من رقية السحر المميت ، فيعود إلى نفسه وإلى الحياة) .

ألفريد دى فينْيى

(١٧٩٧ - ١٨٦٣)

ينتمى " ألفريد دى فينيى " إلى أسرة عريقة من القرن التاسع عشر . وهو يزهو بذلك النسب ويفاخر به . كما أنه شب على قصص الحروب والبطولة التى قام بها والده الذى شارك فى حرب السنين السبع . وفى المدرسة تشبع شاعرنا بما كان يتردد على أسماعه عن الحملات العسكرية التى قام بها نابليون ومن ثم كان ألفريد دى فينيى يحلم بتحقيق مجد عسكرى ولكن بالرغم من خدمته الطويلة فى هذا المجال إلا أنه لم يحقق فيه شيئا يذكر . وأيقن أنه ولد متأخرا ، مما أضاع عليه فرصة البروز فى دنيا الحرب . واقتنع بأنه لم يخلق لهذا المجال . يقول فينيى : " لقد أدركت أن خدمتى (العسكرية) الطويلة لم تكن إلا خطأ وأننى وضعت طبيعتى التأملية الفكرية فى مجال كله حركة وصراع .

إن أكثر ما يميز ألفريد دى فينيى عن شعراء عصره ، هو أنه شاعر مفكر أو شاعر فيلسوف . وفلسفة فينيى يغلب عليها التشاؤم . فإنسان فينيى إنسان وحيد فى هذا العالم معزول عن أقرانه . وكلما اختلف الإنسان عن الآخرين وكلما تميز عنهم كلما ازدادت عزلته .

ثم إن إنسان ألفريد دى فينيى وحيد فى مواجهة الطبيعة . تلك الطبيعة التى تختلف عن الطبيعة عند شاعر معاصر مثل "لامارتين " الذى يجد فيها صدرا حنونا وسلوى من الآلام . إن طبيعة ألفريد دى فينيى عديمة الإحساس تزدرى المخلوقات الفانية ولا تعبأ بعذاباتها . كما يصور لنا ذلك فى قصيدة أخرى بعنوان " بيت الراعى " ومن ثم كان ألفريد دى فينيى يحقد على الطبيعة ويستبدل بها المرأة التى يحول إليها إعجابه وتقديره . ولكنه لا يلبث أن يعلن خيبة أمله فى المرأة التى تصبح له منافسا وخصيما . وهو ما يطالعنا فى قصيدة " غضبة شمشون " ، وهكذا لا يجد الإنسان أمامه إلا العزلة فقد تخلى عنه الجميع حتى الخالق جل وعلا . وقد أكد الشاعر هذه النظرة المتشائمة فى قصيدة " جبل الزيتون " حيث جعل السيد المسيح يواجه قدره وحيداً تماماً . ومع اختلافنا فى العقيدة مع الشاعر إلا أن هذه الفلسفة كانت الدافع له لنظم عدد من القصائد الرائعة .

موت الذئب

وعاد الذئب وجلس ناصبا ساقيه
وقد غاصت مخالبه المعقوفة فى الرمال .
تأكد أنه هالك ما دام قد أُخذ على غرة
وقُطع عليه خط الرجعة ، وسدت أمامه السبل
حينئذ أعمل فكيه الدامبين
فى أشجع كلب فى نحره المختلج
ولم يرخِ فكيه الحديديين
بالرغم من طلقات بنادقنا التى تخترق جسده
وخناجرنا الحادة التى تشبه الكلابات
تغوص وتتلاقى فى أحشائه الهائلة
حتى آخر لحظة راح فيها الكلب المختنق
الذى كان قد مات قبله بوقت طويل
يهوى تحت أقدامه ويترنح .
حينئذ تركه الذئب وتطلع إلينا .

كانت الخناجر لا تزال غائرة في خصره حتى المقابض
تُسمره في العشب وهو غارق في دمه
وبنادقنا تحاصره حلقة مشئومة على شكل هلال مشئوم .
ونظر إلينا مرة أخرى ثم رقد
وهو يلْعق الدماء المنتشرة على فمه
ثم ودون أن يحاول أن يعرف كيف هلك
مات وهو يغمض عينيه الواسعتين بلا صراخ أو أنين .

(حب الحياة ، غريزة المحافظة على النفس ، هذا ما ندركه لأول وهلة أمام مشهد الذئب فى مواجهة الصيادين ، وقد أخذوه على غرّة . ولكن دائرة الحب أوسع ، فالذئب لا يدافع عن نفسه وحسب ، بل يدافع عن أبنائه وزوجته . ولا شك أنه تقدم يواجه المعتدين دفاعًا عن هذه الزوجة وهؤلاء الأبناء الذين يكن لهم كل الحب بدليل أنه يضحى بنفسه فى سبيلهم) .

بول إيلووار (١٨٩٥ - ١٩٥٢)

أصيب (بول إيلووار) منذ صغره بمرض الدرن ، مما اضطره إلى الانقطاع عن الدراسة والإقامة فى مصحة للعلاج . ولم يمنع ذلك من تجنيده فى الجيش ، بل وإرساله إلى جبهة القتال، حيث أصيب بجراح ، وكتب قصائده الأولى التى تعبر عن روح التضامن . انضم للسرياليين من خلال أحد أعلامها (بيريه) فوجد فى هذه الحركة " علْماً للكلمة " سمح لشاعريته بالتفجر . غير أن توجه (إيلووار) نحو السرياليين لم يمثل قطيعة كاملة مع الماضى ، بل ظل يحافظ طوال حياته على نوع من التوازن بين التقليدى والحديث.

بعد ذلك ، ووفاءً منه نحو الشعر التقليدى ، بدأ يبتعد عن (أندريه بروتون) رائد السريالية. ومن ناحية أخرى ، جاءت مأساة (جيرنيكا) خلال الحرب الأهلية الإسبانية لتحول (بول إيلووار) من طيبته الطبيعية ودماثة خلقه الفطرية ، إلى نوع من الالتزام الصارم والانحياز الكامل إلى ما أطلق عليه " وعدٌ بالسعادة البشرية جمعاء " .

كان (إيلووار) دائما وأبداً من حزب المقاومة ومعارضة الفاشية ، وبالذات من خلال ديوانه (الشعر والحقيقة) الصادر فى عام ١٩٤٢ .

ثم عاد إلى الانضمام للحزب الشيوعى الذى كان عضواً فيه فى مطلع شبابه لعدة أشهر . بل لقد ظل حتى وفاته مؤيداً ستالين وتياره ، وذلك من خلال العديد من الدواوين التى تجاوز انتشارها أى دواوين عادية. ومن ناحية أخرى ، مزج (إيلووار) أشعاره الجماهيرية بتجاربه الشخصية ، وهو أمر طبيعى . كذلك فقد كان فرار زوجته الأولى (فرت مع المصور دالى) صدمة عنيفة أسلمته إلى الكآبة والضغط النفسى ، كما أن موت زوجته الثانية المفاجئ أصابه بيأس شديد، نجد صداه فى ديوان (قصائد) الصادر عام ١٩٤٨، وفى ديوان (قصائد متصلة) ، كما أن زواجه للمرة الثالثة ، عام ١٩٥١ ، أفرز عددا من القصائد المتبرجة ، إذا جاز التعبير ، تختلف عن شعره المتحفظ الذى يتميز به فى الثلاثينيات. كل ذلك جعل من (بول إيلووار) أكبر شعراء الحب فى القرن العشرين .

الموت . الحب . الحياة

ظننت أننى قادر على تحطيم العمق السعة
بشجنى العارى تماما بلا اتصال بلا صدى
انطرحت فى سجنى ذى الأبواب العذرية
كميت عاقل عرف كيف يموت
ميت غير متوج إلا من فنائه
انطرحت فوق الأمواج العبثية
من السم المجروع حبًا فى الرماد
الوحدة لاحت لى أحمى من الدم .

كنت أريد أن أفصل الحياة
كنت أريد أن أتقاسم الموت مع الموت
أردَ قلبى إلى الفراغ والفراغ إلى الحياة
أمحو كل شىء حتى لا يبقى شىء لا زجاج ولا بخار
لا شىء أمام ، لا شىء وراء كيانى

كنت قد نزعت الجليد من الأيدى المضمومة
كنت قد محوت الهيكل الشتوى
من أمنية الحياة التى تنْمحى .

وأقبلت أنت فاتقدت النار من جديد
وتنحى الظلام والبرد السفلى ترصّع بالنجوم
وكسيت الأرض من جديد
بلحمك الصافى وشعرت أننى خفيف
أقبلت أنت فهزمتُ الوحدة
صار لى على الأرض دليل
وعرفت وجهتى وكسبت فضاءً زمنا
وتوجهت نحوك ، توجهت بلا نهاية نحو النور
وصار للحياة جسد وبسط الأمل شراعه
وجرى النعاس أحلاما والليل وعد الشفق بنظرات آمنة
وشعاعات ذراعيك صارت تشق الضباب
وفمك صار مبتلا بقطرات الندى الأولى
وحلت الراحة المبهورة مكان التعب
وصرت أحب الحب كما كنت فى أيامى الأولى .

وإذا الحقول فلحت والمصانع تألقت
والقمح يتخذ له عشا فى موجة هائلة
وحصاد الحبوب وجنى العنب
صار لهما شهود لا حصر لهم
لاشيء بسيط ولا منفرد .
فالبحر فى عيون السماء أو الليل
والغابة تعطى الأمان للأشجار
وجدران المنازل لها جلد مشترك
والدروب دائما تلتقى

لقد خلق الناس ليسمع بعضهم بعضا
لكى يفهم بعضهم بعضا لكى يحب بعضهم بعضا
لهم أطفال سيصبحون آباء للناس
لهم أطفال بلا نار وبلا مأوى
سوف يخترعون . الناس
والطبيعة ووطنهم
وطن الناس جميعا
وطن العصور جميعا .

(من ديوان "Le Phenix")

(هذا الثالوث الذى يتوسطه الحب ، ويسبقه الموت ويتلوه الحـيـاة ، يدل على أن الشـاعـر (إيلووار)، أكبر شعراء الحب فى القرن العشرين ، كان ميتا ، أو فى عداد الأموات ، بعد فرار زوجته الأولى ، ثم موت زوجته الثانية . "مطروحًا فى سجنى ذى الأبواب العذرية "، " ميت غير متوّج إلا من فنائه " ، " كنت أريد أن أتقاسم الموت مع الموت " .

أما وقد عرف الحب : " أما وقد أقبلتِ أنتِ فاتقدت النار من جديد " ، " وتنحى الظلام والبرد السفلى ترصع بالنجوم " ، " وصرت أحب الحب كما فى أيامى الأولى".

وما دام صار يحب الحب ، فقد صار يحب الحياة ، بل بدأت الحياة تبعث من جديد بمختلف مظاهرها : " الحقول فلحت " و " المصانع تألقت " والقمح وحصاد الحبوب وجنى العنب ... إلخ .

لقد علمه الحب أن الناس خلقوا " ليسمع بعضهم بعضا " ، " لكى يحب بعضهم بعضا") .

أنّا نوواىْ (١٨٧٦ - ١٩٣٣)

تعد (أناً نوواى) من أشهر الشخصيات الأدبية والاجتماعية فى عصرها . تفجرت عندها ملكة الشعر منذ طفولتها ، لكنها لم تحاول نشر قصائدها إلا بعد بلوغها الخامسة والعشرين، حيث حققت شهرة عظيمة ، خاصة فى فترة عرفت بازدهار الشعر النسوى الذى أصبحت هى رمزًا له وعلمًا عليه . كانت تؤمن بخرافات الحلول ووحدة الوجود مما انعكس على صورها وإيقاعاتها ورؤاها الشعرية .

وعلى ذلك فقد تميز إنتاجها بنوع خاص بشعور عارم بالتوحد بين الطبيعة وبين القلب البشرى ، أثمر ديوانها الأول بعنوان (قلب لا يُحصى) وآخر بعنوان (انبهارات) . هذه الشاعريّة العارمة خلدت إلى الهدوء والتعقل وإلى نوع من الروحانية المطمئنة ، انعكست فى دواوين الشاعرة الأخيرة التى التزمت فيها بالدقة الشكلية على شاكلة الكلاسيكية الجديدة كما فى ديوانها بعنوان : (القوى الخالدة) . وقد أفضى هذا التطور الأخير بالشاعرة إلى نوع من الجلد الفلسفى مما انعكس أثره على آخر ديوان لها وهو بعنوان (شرف العذاب) .

وقت الحياة

الحياة المتقدة بدأت تميل نحو المساء .
فاستنشقى شبابك
الزمن قصير من الكرْم حتى المعصرة ؛
من الفجر حتى النهار الآفل ؛

لتتفتح روحك على العطور حواليك
على حركات الأمواج
أحبى العمل ، والأمل والكبرياء ، أحبى الحب
ذلك هو الشىء الحقيقى ؛

كم من النفوس فارقت عالم الأحياء
إلى دار العزلة
دون أن يرتشفوا عسل الأرض
أو يستنشقوا نسيم الصباح

كم من الناس مضوا وهم ، هذا المساء
أشبه بجذور شجر العليق الشائك
ولم يذوقوا الحياة التى
تشرق فيها الشمس وتغيب !

ولم ينشروا العطور ولم ينفقوا الذهب
الذى كان يثقل أيديهم .
هاهم أولاء الآن فى الظل
الذى ينامون فيه بلا أحلام ولا أنفاس .

أما أنت فعيشى وتعددى من فرط الرغبات
والقشعريرات والنشوات .
يمّمىَ شطر الدروب التى يقوم
فيها الرجل على خدمتك .

خالطى تقلبات الأيام وعانقى الحياة
المريرة الجفول .
واجعلى الفرحة والحب يشدوان
أشبه بخلية نحل على ثغرك .

ثم دعى الشطآن الخائنة تولىَ
بلا ندم ولا حسرة
مادمت قد تهيأت قلبا وقالبا
لليل الأبدى

(من ديوان «قلب لا يحصى»)

(من المؤكد أن شاعرتنا قد سمعت نصيحة سلفها (رونسار) بشأن ضرورة انتهاز الفرصة وهى مواتية للاستمتاع بالحياة ، قبل بلوغ سن الشيخوخة أو حلول الموت . تلك النصيحة التى كان شاعر القرون الوسطى يوجهها إلى معشوقاته ، وبالذات (كاساندر) (انظر : أرسل إليك باقة – حينما تصبحين عجوزا) ، وقد استجابت الشاعرة للنصيحة، وبخاصة وهى فى مطلع حياتها ، كما تشير سيرتها الذاتية ، وكما تشير عناوين دواوينها .

إذن ، نحن بصدد امرأة شابة تحاول ، وهى فى نهاية زهرة العمر (الحياة المتقدة بدأت تميل نحو المساء) أن " تستنشق شبابها " و" تتفتح روحها على العطور حولها " . بل هى تهيب

بنفسها أن " تعيش وتتعدد من فرط الرغبات " ومن ثم كان عنوان الديوان (قلب لا يُحصى) ، إشارة إلى كثرة حالات الحب التى تنوى اقتحامها) .

لويس آراغون (١٨٩٧ - ١٩٨٢)

(عن الشاعر انظر قصيدة "الشعراء" فى "الحب ... التضامن") .

إن هذه الحياة تستحق الحياة

غريب أننى فى النهاية
سأغادر يوما هذا العالم
دون أن أقول ما عندى كله
لحظة السعادة النهائية وساعات الظهيرة الحارقة
والليل الحالك الهائل بشروطه الشقراء
فآخرون غيرى سيأتون بعدى لهم قلوب مثل قلبى
يُجيدون مسَّ العشب وعبارات الغرام
ويحلمون فى المساء حيث تخفت الأصوات والضوضاء

آخرون بعدى سيقطعون الرحلة مثلى
آخرون بعدى سيبتسمون لطفل يقابلونه على الطريق
سيلتفتون إذا سمعوا هامسا بأسمائهم
آخرون بعدى سيرفعون عيونهم نحو السحاب
سيكون هناك دائما زوجان يرتعشان

ذاك الصباح فى نظرهما سيكون أول الأسحار
سيكون الماء دوما والهواء والأنوار
فلا شيء يمضى سوى الماضى فى الطريق

فى الواقع شيء ما لا أستطيع أن أفهمه
ذلك الخوف من الموت الذى يؤرق البشر
كأنما لم يكفهم روعة
أن السماء بدت لنا لحظة رقيقة حنونا

صحيح أن هذا قد يبدو لنا لحظة قصير الأمد
فهكذا خُلقنا ، الفرح والشقاء
يتسربان كزبد كأس مفعمة
والبحر كله رشفة أولى لما بنا من الظمأ

ومع ذلك وبالرغم من كل شيء
وبالرغم من الأزمان العصيبة
ومن العصور الشرسة
والحقيقة الثقيلة على ظهورنا والقلب المدمر
والاختيار المستحيل فى الحاضر وما مضى
ومن الألم يترك التجاعيد على الشفاه

بالرغم من الحروب ومن الظلم ومن الأرق
يحمل فيها قلبك ويعترك
والمرارة ، والله يعلم أنى حملته
طول عمرى كطفل مسروق

بالرغم من شراسة الناس وسخرياتهم
حينما نتعثر وأسبابهم الرهيبة
يواجهونك بها لسجن ما نحب
ومن فى اعتقادنا أنه شهيد

بالرغم من الأيام اللعينة كالآبار التى ليس لها قاع
بالرغم من هذه الليالى التى ليس لها آخر نواجه فيها الأحقاد
بالرغم من الأعداء ومن رفقاء القيود
يا إلهى يا إلهى من لا يدرون ماذا يفعلون

بالرغم من العمر حينما تخذلك العزيمة
ومن المقربين المستعدين لتصديق كل ما يحاك ضدك
لا يعنيهم ما ينهش قلبك
مجرد ذريعة وثأر منك
بالرغم من الوحشية والدناءات والإهانات

تُلقَى علينا من حيث لا ندرى
بالرغم مما نقاسى من الأفكار المجنونة
دون أن نُنفَس عن أنفسنا بسبّة أو بصرخة
هذا الجحيم بالرغم من كل ما فيه من كوابيس ومن جراح
ومن فراق وحداد وإهانات
ومن كل ما كنا نريد
ومن كل أمل ساذج فى السماء

بالرغم من كل شىء أقول لكم
أقول ذلك لكل من يريد أن يسمعنى ولمن أخاطبه هنا
حتى إذا لم يعد من كلام على شفتى سوى كلمة الثناء
سأقول رغم كل شىء إن هذه الحياة كانت جميلة
إن هذه الحياة تستحق الحياة

(من ديوان «العيون والذكرى»)

(مع أن حب الحياة هو العاطفة الغالبة على أبيات هذه القصيدة ، وكما يشير العنوان ، وبالرغم مما يمكن أن يعكر صفو هذه الحياة من

منغصات: مشكلات معقدة ، وآلام ، وحروب ، ومظالم ، ومرارات ، وشراسة الناس وسخرياتهم ، فالقصيدة أيضا تعرض لنا نوعا آخر من الحب : حب المخلوق للخالق المتمثل في الخضوع لإرادة الله وقبول قضائه . ومن ذلك التسليم بحقيقة الموت: " شيء ما لا أستطيع أن أفهمه ، ذلك الخوف من الموت الذى يؤرق البشر " ، وكذلك الإقرار بنعم الله على الإنسان (وأما بنعمة ربك فحدث) وعدم التبرم بالجانب المظلم من الحياة "فهكذا خلقنا، الفرح والشقاء يتسربان كزبد كأس مفعمة " ومع ذلك فإن الملاحظ أن جميع ألوان القسوة فى الحياة إنما هى من صنع الإنسان وعمله الذى أفسد الطبيعة التى خلقها الله صالحة ، ونهانا عن إفسادها : (ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها) . أما ما فيها من سعادة ، فمتعلق بهذه الطبيعة التى لا دخل فيها للإنسان . وفى ذلك آية من حب الخالق للمخلوق) .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

الشيخوخة

فلتمض السّنون وتتقدم ! أنا أبغى هذه السن المنقذة
التي يسيل فيها دمي في عروقي بكل حكمة ورزانة ،
وحيث متعي ورغباتي لم يعد لها طعم ولا رائحة ،
وحيث أعيش في هدوء وسكينة مع آلامي القديمة .

حينما يعجز الحب ، وقد تخلص من هيمنة القبلة ،
عن أن يكويني بناره الكأداء
ولا يملك أن يحطم لي شيئا في المستقبل ،
حينئذ ما أعذب ما تكون حياتي إذ أعيش
على سجيتي وهواي .
طوبى للأطفال الذين أصادفهم في طريقي ،
سأجعل المدرسة بالنسبة لهم نزهة دائمة ؛
طوبى للشبان الذين سآخذ بأيديهم :
فإن كانوا يحبون ، سأعرف كيف أواسيهم وأصلح بالهم .
ولن أقول : " في زماننا كان أفضل "

لأن الذى كان أفضل فى زماننا هو شبابنا .
لكننى سأقترب ممن فى سن العشرين
لكى أبعث فى روحى شيئا من الحرارة .

لكى نبلغ الشيخوخة دون انحطاط أو سقوط ،
علينا ألا ننسى ما حيينا ما كنا نحس به
حينما كان القلب يهتز طربا ،
الجمال ، الشرف ، الحق الذى لا يلين ،
وحتى نوارى التراب ، نفكر كرجال أحرار .
وأنتن أيتها النساء ، آه ، أى خنجرٍ نُزع من قلبى !
حينما زال منه كل أثر للرغبات .
وحينما لا أرى فى الجمال سوى مستودع فيكن
لقالب الأجناس النقى الطاهر .

لأجلسن هكذا فوق قمة أيام عمرى
أتأمل حياتى وقد خلت من كل امتحان وابتلاء
أشبه بمن فوق قمة الجبال يشاهد المنعطفات الكبرى
ومنحنيات الطرق والأنهار الهائجة .

(حالات الوحدة)

يرحب الشاعر ، بل يتمنى بلوغ الشيخوخة ، اتقاءً للحب العارم الذى يوقع فى المحارم. فالشيخوخة تأتى معها بالهدوء والسكينة والحكمة ، وتجعل الدماء ، التى كانت فائرة ثائرة ، تجرى أيضا فى هدوء وحكمة ، وتفقد الرغبات العارمة الطعم الزاعق والرائحة النفاذة التى تهيج الرغبات الأنانية وتثير الغرائز . إن حالة هذا الحب العاقل المتزن الموزون تجعل لدى الإنسان فسحة من الوقت لحب من نوع آخر ، حب الآخرين ، حب الأطفال والشبان ، يأخذ بأيديهم ، ويقدم لهم خبرته التى تُصلح بالهم .

لا أعرف لماذا تذكرنى هذه القصيدة بالفيلسوف الإغريقى الذى لم ينتظر بلوغ الشيخوخة ليتحقق له ذلك ، بل سارع وقضى على شهوته الجنسية التى تبدد وقته وطاقته .

ولا يخلو من فائدة أن نضيف أن الله تعالى بدأ بصفة عامة فى تكليف الرسل بتبليغ الرسالات بعد بلوغهم سن الأربعين ، وهى سن النضج والحكمة) .

(٩)

الحب .. حالة

بول جيرالدى (١٨٨٥ - ١٩٨٣)

بعد عمر مديد يناهز القرن الكامل (١٨٨٥ - ١٩٨٣م) ترك الشاعر الفرنسى " بول جيرالدى" عدة دواوين تقطر رقة وعذوبة خص فيها المرأة بأوفر الحظ والنصيب ، حتى إنهم أطلقوا عليه لقب شاعر النساء . ولعل أجمل هذه الدواوين جميعا ديوان " أنت وأنا " الذى نختار منه هذه القصيدة . ولعل ما يميز شعر "بول جيرالدى " وقصائد هذا الديوان بوجه خاص هو السهولة واليسر والتلقائية التى يعالج بها الموضوعات اليومية الحياتية فى لغة الحديث العادى بلا تكلف ولا مبالغة .

كتب " جيرالدى " للمسرح أعمالا من النوع العاطفى ، الذى استطاع أن يجدده بفضل تحليلاته النفسية الدقيقة ، واهتمامه بالشكل والحبكة . وكما هى الحال بالنسبة لقصائده ، فقد لقى إنتاجه المسرحى رواجًا وإقبالاً شديدين لدى جمهور النساء . من أشهر مسرحياته (دور) وهى معالجة درامية لرواية الكاتبة (كوليت) ، (العرس الفضى) ، (الحب) ، (أطفال كبار)، (روبير وماريان) ، (الرجل والحب) ، (ثلاث مسرحيات عاطفية) .

قصيدة المشكاة

بلا تكلف ولا مبالغة .
تسألين لماذا لا أقول شيئا . . .
ذلك لأن اللحظة الكبرى حانت
ساعة الابتسام والعيون
المساء . . . ولأنني أحبك هذا المساء . . بلا حدود !
فضميني إليك . فأنا في حاجة إلى ذلك .
لو تعلمين كل ما يعتمل في نفسي هذا المساء
من طموح وكبرياء ورغبة وحنان .
وطيبة قلب ! . . . ولكنك لا يمكن أن تعلمي ! . . .
اخفضي نور المشكاة قليلا من فضلك ؟ هذا أفضل .
ففي الظلام تتناجى القلوب
وترى العيون أكثر وأفضل ، حينما لا ترى الأشياء .
هذا المساء ، أحبك كثيرا بحيث لا أحدثك في الحب .
ضميني إلى صدرك !

أحب أن أكون بدورى أنا المدلل .
اخفضى نور المشكاة قليلا .
والآن فلنكف عن الكلام ولنكن عاقلين . ولا نتحرك .
ما أجمل أن تكون يداك الفاترتان على جبينى ! . .
ولكن ماذا هناك ؟ ماذا يريدون منا ؟
آه ! إنهم يحضرون القهوة . . .
آه ! طيب ، ضعها هناك ، شكرا .
بسرعة ! وأغلق الباب ! . . .
ماذا كنت أقول لك ؟
نشرب هذه القهوة . . . الآن ؟ ما رأيك ؟
صحيح أنت تفضلينها ساخنة .
هل تحبينها من يدى ؟ لحظة ، دعينى أفعل .
القهوة اليوم ثقيلة ! . . . كم قطعة من السكر ؟ واحدة ؟
كفاية ؟ . . . هل أذوقها ؟ هاك فنجانك يا حبيبتى . . .
ولكن ما أحلك الظلام ! لا نرى شيئا .
فارفعى نور المشكاة قليلا .

من ديوان «أنت وأنا»

(كتب (جيرالدى) فى الحب ديوانا بعنوان (أنتِ وأنا) ومسرحيتين بعنوان (الحب) و (الرجل والحب) ، بالإضافة إلى عدة دواوين أخرى كان للمرأة والحب فيها أكبر نصيب ، حتى إنهم لقبوه بشاعر النساء . وقصيدة المشكاة من الواضح أنها تصور " جو الحب " ، وكما يقول الشاعر " اللحظة الكبرى " " ساعة الابتسام والعيون . " من أجل ذلك يطلب منها " خفض نور المشكاة " : " ففى الظلام تتناجى القلوب " ، ثم هو يعبر عن حبه صراحة : "أحبك هذا المساء ... بلا حدود " . ويطلب منها ممارسة هذا الحب : "ضمينى إليك " . ثم يكررها "ضمينى إلى صدرك" . ولأنه يمارس الحب ، فهو " لا يتكلم فى الحب " "فلنكف عن الكلام " ، " ما أجمل أن تكون يداك الفاترتان على جبينى ". فى هذا المشهد المظلم " ترى العيون أكثر وأفضل " ، بدليل أنه جهز لها ولنفسه القهوة ، وقدم لها الفنجان " . وبعد انتهاء حالة الحب ، احتاج إلى نور المشكاة : "ما أحلك الظلام . لا نرى شيئا ، فارفعى المشكاة قليلا") .

سوللى برودوم (١٨٣٩ - ١٩٠٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " العذاب الإلهى " فى " حب المخلوق للخالق ") .

حينما أصرح لك بأشعارى

ليت شعرى ، حينما أصرح لك بأشعارى ،
لا يتعرفها فؤادى وتصبح غريبة عنى .
أفضل ما عندى يبقى فى أعماقى .
وأشعارى الحقيقية لن يقرأها أحد غيرى .

فكما تضطرب الفراشات البيضاء
حول أزهارها الأثيرة ،
تحوم أبياتى الجميلة وتتزاحم
حول أفكارى الغالية

وما إن تمسها يداى ،
حتى تفرّ وتتطاير ،
تاركة وراءها مجرد أثر دارس
لأجنحتها الواهنة الجفولة .

(اللغة الكلامية نظام ناقص يفتقر إلى كمال التعبير ، فهى عاجزة بوصفها أداة للاتصال. فعلى مستوى الحوار العادى ، فهو يكون فى أغلب الأحيان فى حال يرثى لها . فأحيانا الفكرة تهرب من المتكلم . وأحيانا يخوننا التعبير نفسه ، فنقول ما لا نريد أن نقوله بالضبط.

وإذا كان هذا يحدث فى الظروف العادية ، فهو من باب أولى يحدث فى حالة التعبير عن مشاعر الحب ، لأن هذه المشاعر فى حدّ ذاتها تؤثر على المتحدث ، وتجعله فى حالة لا يسيطر فيها على ما يقوله بالضبط. فهو يكون فى حالة اضطراب . ويتضاعف هذا الاضطراب إذا كان المتحدث شاعرا ، أى إنسانا رقيق المشاعر . بحيث إنه لا يتعرف على أشعاره بمجرد تعبيره عنها بالكلام وخروجها إلى عالم الواقع . ومن ثم فإن أفضل مشاعره تظل حبيسة فى أعماقه ، وأشعاره الحقيقية " لن يقرأها أحد غيره ") .

شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "البركة" فى "حب الخالق للمخلوق") .

جيفة

تذكرى يا نفس ذلك الشيء الذى رأيناه معًا
فى ذلك الصباح الجميل من أيام الصيف الحانية :
عند مفرق طريق ضيقة ، جيفةً عفنةً شاهدناها
على فراش منثور بالحصى والحجارة

ساقاها مرفوعتان كامرأة حال شهوتها
تلتهب نارًا تنضح بالسموم
تفتح فى تراخ وإهمالٍ
بطنًا يفوح بالعفن .

على هذه الجيفة كانت الشمس تنشر شعاعها
كأنما لكى تستكمل إنضاجها
وتعيد إلى الطبيعة الكبرى
فى مائة جزء ما كانت جمعته منها فى كلٍّ واحد ؛

وكانت السماء تطل على هذا الهيكل البديع
الذى كان يتفتح كالزهرة اليانعة .
وكانت الرائحة النتنة تنتشر فوق العشب
حتى لتكاد تصيبك بالإغماء .

وكان الذباب يطن على هذه البطن العفنة
التي تتفجر منها كتائب سوداء
من الديدان تسيل كدفق سائل سميك
حول تلك الأشلاء الحية .

كل ذلك فى صعود وهبوط كالموج الهادر
أو فى تواثب وتلألؤ ؛
كأنَ الجسد ، وقد انتفخ بريح غامضة
كان يحيا وهو يتضاعف ويتكاثر .

وكان هذا العالم يصدر موسيقى غريبة
أشبه بخرير الماء الجارى أو حفيف الرياح
أو بحبوب الحصاد فى المذراة
تديرها ذراع الفلاح فى حركة رتيبة .

وكانت الأشكال تنمحى وتتحول إلى مجرد أحلام
أو كأنها رسم أهمله الفنان فترة
وأصبح من العسير عليه إتمامه
إلا بالرجوع إلى الذاكرة .

وكانت ثمة كلبة متوثبة خلف الصخور .
تنظر إلينا بعين السخط والغضب
ترقب الفرصة لتسترد ما تركته
من هذه الجثة الفانية .

ومن عجب أنك ستصبحين أشبه بهذه الجيفة ،
هذه الرمّة المرعبة
أنت ، يا نور عينى ، يا شمس حياتى
يا ملاكى الطاهر ، يا منية روحى !

أجل ! هكذا ستصبحين يا ملكة الجمال والأناقة
بعد الحفل الأخير ومراسم التتويج
ستنتقلين تحت نضير العشب والأزهار
حيث يفنيك العفن بين العظام البالية .

هناك يا جميلتى ! حدثى الديدان
التى ستنقض عليك تنهشك بالقبل !
وأخبريها أننى حافظت ، من حبّى الفانى ،
على الجوهر والشكل الإلهى !

(لا نقرأ هذه القصيدة إلا ونتذكر قصائد (بيير دى رونسار) التى تتناول الموضوع ، ولكن مع الفارق الكبير . فشاعر العصور الوسطى لا يكاد يذكر الموت . أما بودلير فيمعن فى ذكره وذكر آثاره ، ويمعن فى تقبيحها بحيث ينفر القارئ ويصيبه بالغثيان . وإذا كان رونسار يدعو محبوبته إلى حديقة غنّاء ليلقى عليها النصيحة باغتنام زهرة الشباب ، فإن بودلير يتجول بحبه فى مناطق خربة ، ولا يحاول أن يصرف الفزع والرعب بدعوة إلى اغتنام لحظات السعادة والهناء . بل نحن أمام دعوة إلى الانصراف عن الحب . إن هذه الواقعية البشعة التى تذكرنا بشاعر العصور الوسطى (فيون) وبتمثال الموت الشهير للفنان (ليجييه دى شالون) وبمواعظ الداعية النصرانى (بوسّوويه) لتدعونا إلى الزهد والصوم) .

فردريك ميسترال (١٨٣٠ - ١٩١٤)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "ميريى" فى " الحب ... حرمان ") .

مجالى

أوّاه يا مجالى ، يا حبيبتى
ضعى رأسك على النافذة
واسمعى منى هذه الأغنية الغرامية
على الطبلة والكمان .

ها هى السماء ملأى بالنجوم
وقد سكنت الريح
وشحبت فى السماء النجوم
لمرآك .

أوّاه يا مجالى .
لو أصبحتِ سمكة فى الماء
لأصبحتُ أنا الصياد لكى أصطادك .

ولو أصبحت أنت الصياد

وألْقيت بشباكك ،

لأصبحت أنا الطائر الذى يطير

ولطرت فى البرارى .

أوّاه يا مجالى ، لو أصبحتِ طيرا فى الهواء

لصرت أنا الصياد لكى أصطادك .

آه يا مجالى ، لو أصابك الموت

لأصبحت أنا الأرض لكى أواريك .

((ميسترال) مرة أخرى ، وحب ريفى صارخ صريح عنيف ، لا مراء فيه ولا مداراة، يستمد مفرداته من البيئة . ولا يقبل شركاء ولا وسطاء فى كل الحالات . فإذا غنى فهى المستمع ، وإذا كانت سمكة فهو الصياد ، وإذا كان طائرا فهى الصياد . بل حتى فى الموت ، يكون هو القبر الذى يواريها) .

جيوم أبوللينير (١٨٨٠ - ١٩١٨)

جيوم أبوللينير شاعر وكاتب مسرحي يجمع بين الرومانسية والحداثة ، ذو عقلية موسوعية متطورة ، يتمتع بالدقة والجرأة معا في البحث والتجديد . لعب دوراً مهماً في مجال النقد الفني يحدوه الاهتمام الواعي بإنتاج الفنانين الطليعيين. نشر منذ عام ١٩٠٣م في مجلة "الأوروبي" مقالات في الفن . وفي عام ١٩٠٨م قدم لأول معرض للفنان (براك) ونصب نفسه مدافعا متحمسا عن مدرسة المصورين التكعيبيين الجديدة . وفي عام ١٩١٢م تولى إدارة جريدة "ليالي باريس" ، وهي جريدة طليعية متخصصة في الشعر والتصوير ، وهكذا يمكن أن نعتبر (أبوللينير) رائدا للسريالية التي كان هو أول من أطلق عليها هذا الاسم .

كذلك كان (أبوللينير) صديقا للمصورين الشبان الموجودين في عصره بحيث أصبح أحد المدافعين عنهم والمتحدثين باسمهم ، وتشهد مقالاته في علم الجمال بسعة خياله وجرأته ورهافة إحساسه ، وإعجابه الشديد بالأشكال الفنية الجديدة في مجال التصوير .

كما كان (أبوللينير) واحدا من أوائل الشعراء الذين أدركوا مفهوم السريالية بكل ما تحمل الكلمة من حداثة وتدمير للأشكال الأدبية

المتوارثة . ومن ثم يمكن أن نعتبره رائدا من رواد الفن المعاصر ، العارفين ببواطن أموره ودقائق أسراره . صحيح أنه نشأ فى أحضان الرمزية ، غير أنه سرعان ما تخلص من كل أثر لمدرسة أو مذهب ، لكى يتوفر على إثراء عالم القريض بالأخيلة الجديدة والصور الغريبة المستحدثة .

جسر ميرابو

تحت جسر ميرابو ينساب نهر السين
وحبّنا
هل ينبغى أن أذكر
أن البهجة كانت دوما تأتى بعد الألم
فليهبط الليل ولتدق الساعة
فالأيام تمضى وأنا باق .

فلنظل وجها لوجه واليدان فى اليدين
بينما تحت جسد أذرعنا
تمضى موجة مرهقة من النظرات الخالدة
فليهبط الليل ولتدق الساعة
فالأيام تمضى وأنا باق .

الحب يمضى مثل هذه المياه الجارية
الحب يمضى

ما أبطأ الحياة
وما أعنف الأمل
فليهبط الليل ولتدق الساعة
الأيام تمضى وأنا باق .

تمر الأيام وتمر الأسابيع
لا زمن يمضى
ولا حب يعود

تحت جسر ميرابو ينساب نهر السين
فليهبط الليل ولتدق الساعة
الأيام تمضى وأنا باق .

(من ديوان «خمريات»)

(حتى (أبوللينير) الكاتب الساخر ، أحد روّاد الفكر الحديث وسليل (ألفريد جارى) ، ينظم فى موضوع الحب ، ولكن على طريقته . وهو مثل (رونسار) و (نوواى) يشير إلى مضىّ الحياة قدمًا ، كما يمضى نهر السين ، ومعها يمضى الحب ولا يعود) .

يواقيم دى بيلليه (١٥٢٢ - ١٥٦٠)

عن الشاعر ، انظر قصيدة " شاعر البلاط " فى " الحب ... التضامن ") .

هذا الشَّعر الذهبى

هذا الشَّعر الذهبى يا سيدتى
هو أول رباط قيد حريتى
لهيب الحب طوق قلبى المحترق
هذه العيون هى السهم الذى مزَق روحى .

وثيقة هى القيود ، مريرة ومتقدة هى السُّعُر
مهما عرفت ما أتعرض له من مخاطرة
فإننى أحب ، بل أعبد ، بل أقدّر
ما يخنقنى ، ما يحرقنى ، ما يمزقنى .

إذن ، لكى أحطم ، لكى أطفئ ، لكى أشفى .
من هذا الرباط الخانق ، هذه النار ، هذا القرح
لا أروم سيفا ، ولا شرابا ، ولا دواء .

إن السعادة والنعيم الذى أجنيه بالهلاك
بهذه اليد لا يبيح لى أن ألجأ
لسيف قاطع ، ولا صدود ، ولا أعشاب .

(من ديوان «الزيتونة»)

(القصيدة كلها صرخة عاشق ولهان يستعبده الحب ، ويقيد حريته ، ويحرق قلبه ويمزق روحه . وهو لا يروم إلا السعادة والهلاك معًا وبيد محبوبته . ولا يمكن أن نفصل هذا المفهوم عن العصر الوسيط الذى أفرزه . كما أن هذا المفهوم قد تطور بعد ذلك على أيدى الرومانسيين والبارناسيين (انظر قصائد لامارتين وسوللى برودوم) .

بابلو نيرودا (١٩٠٤ - ١٩٧٣)

ولد (بابلو نيرودا) فى أقصى جنوب شيلى، حيث الأمطار الغزيرة التى يصفها الشاعر بأنها " الشخصية الوحيدة الخالدة فى حياتى وفى أشعارى "

تميزت قصائد (نيرودا) بمعانى الحب والصداقة والأخوة والتضامن . فى ديوانه (عشرون قصيدة فى الحب) ترمز المرأة للعالم الذى يتعطش الشاعر لمعرفته . يقول (نيرودا) : " يا جسد المرأة ... يا جسدى أنا ، جسد الفلاح الفطرى ، ينشق ويخرج الطفل من أعماق الأرض " .

كان (نيرودا) شاهداً على العصر ، عاش قضاياه ، وتفاعل بها وانصهر فيها ، حتى ذاب فيها وفنى ، بعد أن وصل صوته جميع أركان العالم . فى عام ١٩٧١ ، حصل (نيرودا) على جائزة (نوبل) . وفى تلك المناسبة حاول أن يوجز رسالته ، رسالة الشاعر ، فقال : " لقد اخترت الطريق الصعب ، طريق المسئولية المشتركة . فأنا أتجاوز الفن الأنانى الذى يتركز حول الشخص باعتباره مركز الاهتمام ، إلى آفاق جيش جرّار ... لأننى أؤمن أن واجبى، بوصفى شاعراً ، لا ينحصر فى وصف

الأزهار والطيور والأحباب ، وإنما أيضا ، وبالذات ، فى تصور كفاح المقهورين ومعاناة الشعوب المغلوبة . "

فى عام ١٩٧٣ ، اغتالت يد الغدر والبغى والطغيان الشاعر (نيرودا) ، فكان اغتياله صفحة سوداء فى تاريخ شيلى ، وتاريخ أمريكا اللاتينية ، بل وتاريخ العالم كله .

الملكة

أنا أسميتك ملكة
هناك من هن أكثر منك طولا ، من هن أكثر منك طولا
هناك من هن أكثر منك صفاء، من هن أكثر منك صفاء
هناك من هن أكثر منك جمالا ، من هن أكثر منك جمالا
لكنك أنت الملكة .
حينما تخرجين إلى الطرقات ،
لا أحد يعرف شخصك ،
لا أحد يرى التاج البلورى يعلو رأسك .
لا أحد يرى بساطا ذهبيا أحمر ،
تطئينه بقدميك ،
بساطا لا وجود له .
وحينما تطلين على الدنيا ،
تزغرد أنهار العالم .
في جسدى ، وتهتز السماوات ،

وتدق الأجراس ،

ويصدح نشيد يملأ أركان العالم .

أنت وحدك وأنا ،

أنت وحدك وأنا ، يا حبيبتي ،

نسمع صوته .

(مع أن الشاعر يؤكد أنه يتجاوز الفن الأناني الذي يتركز حول الشخص ، باعتباره مركز الاهتمام ، ووصف الأزهار والأحبة ، إلى تصوير كفاح الشعوب ومعاناتها ، إلا أن ذلك لم يمنع أن يخصص بعض قصائده للحب ، يتغنى فيها بصفات من يحب على طريقة الرومانسيين ، بل والسرياليين أيضا . والقصيدة تذكرنا بقصيدة بعنوان " الغفران " للشاعر البارناسي (سوللي برودوم) .

جاكومو ليوباردى (١٧٩٨ - ١٨٣٧)

ولد جاكومو ليوباردى فى إيطاليا عام ١٧٩٨ فى مدينة "ريكاننى" . منذ صغره دأب على تعليم نفسه بنفسه بأسلوب التعلم الذاتى . وعكف على إتقان عدد من اللغات الأجنبية، فبعد أن تعلم اللاتينية والإغريقية أضاف إليهما العبرية ثم الفرنسية فالإنجليزية والإسبانية .

بسبب ضعف بنيته والأمراض الكثيرة التى كان يعانى منها منذ صغره ، عاش "جاكومو ليوباردى " طفولة قاسية ، فى عزلة شديدة منصرفًا إلى الدراسة والتحصيل . فمنذ سن الخامسة عشرة قام ببعض الأبحاث الفلسفية وكتب عديدا من الدراسات فى هذا المجال .

ومن ناحية أخرى استفاد " جاكومو ليوباردى " من اللغات العديدة التى كان يتقنها ، وقام بترجمة بعض الأعمال الإغريقية واللاتينية. وكان فى ترجمته يحاول أن يقلد النصوص الأصلية ، وخاصة فى مجال الشعر، مما أكسبه مهارة فائقة وصقل لغته الإيطالية ودرب ملكاته الأدبية والفنية .

منذ العشرين من عمره ، عاش " جاكومو ليوباردى " فى شبه عجز جسمانى . زاد من حدته وأثره ما صادفه فى حبه الأول من خيبة أمل

صرفته عن الناس وعن المجتمع . وقد أدى به هذا اليأس إلى اعتناق فلسفة مادية غيرت نظرته للعالم والناس . وقد جاءت مؤلفاته النثرية ترجمة لهذه النظرة التشاؤمية .

صرفًا للملل ، وكسرا للوحدة ، وهروبا من المحيط العائلى ، قام " جاكومو ليوباردى" بالعديد من الأسفار إلى مختلف المدن الإيطالية مثل " ميلانو وبولونيا وفلورنسا وبيزا وبارما " ومع ذلك فمنذ عام ١٨٢٥ عاد " جاكومو ليوباردى " إلى موطنه الأصلى ، وظل به حتى آخر أيامه ، ينظم الشعر ويتغنى فيه بموضوع أثير إلى نفسه ، ألا وهو موضوع الشباب الذى يولى بلا رجعة ، والأمل الذى يتسرب إلى غير عودة .

إن أعظم أشعار " جاكومو ليوباردى " تدور فى فلك بعض الأفكار الرئيسية التى ، وإن كانت تعترف بأن كل شىء باطل زائل فيما عدا الألم ، وبأن الإنسان ما هو إلا عدم فى مواجهة الطبيعة القاسية ، فهناك فرحة الربيع والشباب ، وهى فرحة عارمة لأنها للأسف عابرة . ومن ثم كان التقاء " جاكومو ليوباردى " بالشاعر الفرنسى العظيم "بودلير" الذى يرى أن العبقرية ما هى إلا الطفولة نعود إليها حينما نريد . كما يلتقى " جاكومو ليوباردى" بالروائى المعاصر " مارسيل بروست " ، فكلاهما يرى قيمة الأشياء فى الذكريات التى يمكن أن تثيرها هذه الأشياء . ومن ثم كانت الذكرى عنصراً جوهريا فى تكوين الإحساس الشعرى .

بين الآمال الضائعة والمتع المحرمة ، وآلام الوحدة والأمراض ، عاش " جاكومو ليوباردى" يتوقع الموت فى كل لحظة حتى داهمه وهو يستعد للهرب من وباء الطاعون الذى اجتاح مدينة " نابولى " فى جنوب

إيطاليا عام ١٨٣٧ وهو دون الأربعين . وكأنما أراد "جاكومو ليوباردى" أن يفوز بحب الآلهة تحقيقًا لمقولة الشاعر الإغريقى " ميناندر " التى استهل بها " جاكومو ليوباردى " قصيدة له بعنوان " الحب والموت " حيث يقول : "يموت فتى يافعا مَنْ حظى بحب الآلهة " .

سبت القرية

ها هن البنات يقبلن من الحقول ، مع الغروب ،
حاملات حزم العشب ، ممسكات بباقات الورد والبنفسج ،
لكى يُزيِّنَّ بها ، كعادتهن ، غدا يوم العطلة ،
صدورهن وشعورهن .

وها هى العجوز جالسة بين جاراتها ،
فوق سلَّم البيت ،
ترمق النهار الآفل ،
وتذكر عهد الشباب ،
حينما كانت هى الأخرى تتزين فى يوم العطلة .
حينما كانت لا تزال غضة ممشوقة القوام ،
ترقص مع من كانوا رفاقا لها فى ريعان الشباب .

وسرعان ما عتم الجو ،
واكتست السماء بزرقة المساء .

ومن جديد ، تماوجت ظلال المنازل والتلال
مع بزوغ ضوء القمر .
وها هى الأجراس تقرع إيذانًا بيوم عطلة جديد .
وكأنَّ القلب لسماعها يستمد القوة والعافية .

وها هم الأطفال يتجمعون فى ساحة القرية صائحين
يقفزون هنا وهناك .
فى جلبة لطيفة .
بينما يعود المزارع إلى مائدته البسيطة ،
مصفرًا ، ومفكرًا هو أيضًا فى يوم راحته .
بعد ذلك ، وبعد أن يخبو كل ضوء فى الناحية ،
ويخلد كل شيء إلى الهدوء والسكون ،
تطرق آذاننا دقات القادوم والمنشار ،
فى دكان النجار المغلق ،
الساهر فى نور المصباح ،
يعمل فى عجلة ، فى جد واجتهاد ،
يحاول أن يفرغ من عمله قبل طلوع الفجر .

هذا اليوم ، من بين الأيام السبعة ، هو أفضلها .
لأنه مفعم بالأمل ، مليء بالبهجة .

فغدا يعود الحزن ويعود الضيق والملل .
يعود كل إنسان إلى التفكير فى عمله اليومى .

أيها الطفل المرح ، أيها الطفل الضحوك ،
إن زهرة عمرك أشبه بيوم كهذا مفعم بالفرح .
يوم صاف وضىء ،
فتمتع يا صغيرى ، فهذا عمر الابتسام ،
وعمر السعادة .
لن أزيد على ذلك ، ولكن صبرا ،
إن تأخر عيدك قليلاً عن المجىء .

(نحن أمام مستويات مختلفة من الحب .

فهناك أولا الحب الذى توحى به الفتيات وهن يحملن باقات الورد والبنفسج ، لكى يزيّن بها صدورهن وشعورهن يوم العطلة .

وهناك الحب الذى تذكّر به العجوز ، حينما كانت غضة ممشوقة القوام .

وهناك حب الشاعر للأطفال، وتعاطفه معهم ، ودعوته لهم بالاستمتاع بزهرة العمر) .

(١٠)

حب المعرفة والعلم

شارل بودلير (١٨٢١ - ١٨٦٧)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "البركة" فى "حب الخالق للمخلوق") .

السمو

فوق المياه ، فوق الوديان ،
والجبال ، والغابات ، والسحب والبحار ،
فيما وراء الشمس ، فيما وراء الفضاء ،
فيما وراء حدود الأفلاك المرصعة بالكواكب ،

تحومين يا روحى بخفة ورشاقة ،
وكسبّاح ماهر يغشى الأمواج
تشقين أعماق الفضاء الشاسعة
فى غبطة ونشوة حرّى يعجز عنها كل وصف .

حلقى بعيدا عن هذه الأبخرة العفنة الوبيلة
واصعدى وتطهرى فى أجواز الفضاء العالية
واحتسى ، شرابا إلهيا صافيا ،
النار الصافية التى تغمر الفضاءات الرائقة .

وراء الهموم والكروب العظيمة ،
التى تجثم بثقلها على كاهل الحياة المضبّبة ،
طوبى للذى يستطيع بجناح جسور
أن ينطلق نحو الأجواز المضيئة الصافية ؛

للذى تنطق أفكاره نحو السماوات فى الصباح ،
كما تفعل القنابر الطيارة ،
الذى يحلق فوق الحياة ، ويفهم فى يسر وسهولة
لغة الأزهار والجمادات .

(من ديوان «أزهار الشر»)

(منذ قصائده الأولى ، يهتم بودلير بقضية الشاعر وازدواجية وضعه وطبيعته . فمن ناحية ، العزلة المفروضة عليه ، عزلته عن الغوغاء والتشكك فى أمره ، بل والتخوف منه الذى يبلغ حد الازدراء والسخرية به . فهم لا يفهمونه ولا يقبلون من يتميز عنهم ، ويتحدث عن المثل العليا ، ويحاول الارتفاع فوقهم " انظر قصيدة القادوس " .

ومن ناحية أخرى ، فالشاعر عظيم بموهبته وملكاته التى ترقى به إلى " أجواز الفضاء الصافية " ، وتجعل منه صاحب نبوءة (كما وصفه رامبو بعد ذلك بخمسة عشر عامًا) ، وتجعله يفهم مالا يفهمه العامة .

ولما كان الشاعر أكثر حساسية من الآخرين ، فهو أكثر تعرضا للألم ، وأكثر شعورًا بالحب .

ولكن الذى يميز (بودلير) الشاعر هو التواضع وإنكار الذات الذى لا نجده مثلا عند (فيكتور هوجو) الذى يزعم أنه يقود الإنسانية البائسة فى طريق الجمال والحق) .

أرتور رامبو (١٨٥٤ - ١٨٩١)

ولد لأبوين منفصلين منذ ١٨٦٠ . برز فى دراسته الثانوية بموهبته فى نظم الشعر باللغة اللاتينية .

لم يكد يبلغ السادسة عشرة حتى نشر بعض القصائد فى (جريدة الجميع) . كما أرسل قصائد أخرى لجريدة (البارناس المعاصر) .

من السلوكيات المستغربة التى أثرت عنه ، أنه بعد اندلاع الحرب ، هرب من مارسيليا إلى باريس ، وأودع السجن . بعد الإفراج عنه ظل يتنقل بين بلجيكا وفرنسا حافى القدمين . كما نظم بعض الأشعار الحافلة بالشتائم والسباب والتجديف ، تعبيرا عن سخطه على العالم وحنينه إلى عالم نظيف برىء . كما اهتم بقراءة الكباليين والعرافين . وزعم أنه يقرأ الغيب ، كتب قصيدة (السفينة السكرى) . تعرف على شعراء عصره ، وكانوا يتجنبونه بسبب تصرفاته المبتذلة . وبدأت فى ١٨٧٢ علاقته الغريبة بـ (فيرلين) الذى أصابه بطلق نارى وأودع السجن لمدة عامين . بدأ يكتب قصيدة (فصل فى الجحيم) وطبعها على نفقته الخاصة ، لكنه لم يتمكن من دفع تكاليف الطباعة ، مما اضطر المطبعة إلى الاحتفاظ بالنسخ التى ظلت حبيسة حتى عام ١٩٠٢ . فى تلك الأثناء كتب (الإشراقيات) .

فى خضم بحثه عن العمل ، قابل فى ألمانيا (فيرلين) الذى حاول عبثا أن يعيده إلى الإيمان . قام برحلات فى بلاد عديدة منها مصر وقبرص (١٨٧٨ - ١٨٧٩) ونشر فى الجريدة المصرية الناطقة بالفرنسية (البوسفور المصرى) . عاد إلى فرنسا للعلاج والزواج ، وبترت إحدى ساقيه بمجرد وصوله بسبب ورم فى ركبته . مات فى مارسيليا بين يدى شقيقته.

رامبو شاعر موهوب ، تأثر بكل من (هوجو) و (جوتييه) و (كوبيه) وكذلك (بودلير) ، وذلك فى المرحلة الأولى من حياته . بعد ذلك أدار ظهره للماضى وانكب على تجربته الشخصية التى تمادى فيها إلى أقصى حدود الهوس والاضطراب ، ولكن مع السيطرة والاستنارة .

السفينة السكرى

بينما كنت أهبط الأنهار الصارمة ،
لم أعد أشعر بأني منقاد بالملاحين .
هنود حمر ذوو ألوان صارخة
كانوا قد اتخذوهم أهدافا ،
بعد أن سمّروهم عراة على أعمدة الألوان .

كنت لاهيا عن جميع من فى الطاقم ،
حمال قمح فلمنكى أو أقطان إنجليزية .
وحينما انتهت الضوضاء مع بحارتى ،
تركتنى الأنهار أهبط حيث أشاء .

وفى تلاطم المد والجزر الهائج ،
ركضت فى الشتاء الماضى ،
أرعن من عقول الصبية

ولم تعرف أشباه الجزر (العائمة) انطلقة
هرجا ومرجا أكثر ظفرا .

العاصفة باركت يقظاتى البحرية .
أخف من فلينة زجاجة ، رقصت فوق الأمواج
التى يسمونها طاويات الضحايا الأبدية .
عشر ليالٍ ، دون أن آسف
على عيون المصابيح البلهاء .

وأحلى مما هو لحم التفاح الحامض بالنسبة للأطفال
تسرب الماء الأخضر إلى قوقعتى الصنوبرية
ومن آثار الأنبذة الزرقاء والقىء
غسلنى ، فاصلاً الدفة عن هلب المرساة .

ومنذئذ اغتسلت فى قصيدة البحر
منقوعًا فى الكواكب واللبنية
ملتهمًا اللازورديات الخضراء حيث يهبط أحيانا
غريق متفكرًا فى خط عوم شاحب مسلوب .
أعرف السماوات التى تفجرت بروقًا ، والإعصارات

والأمواج المرتدة والتيارات ؛ أعرف المساء ،
والفجر الهائج أشبه بسرب من الحمام
ورأيت فى بعض الأحيان ما ظن المرء أنه رآه .

رأيت الشمس منخفضة مبقعة بأهوال روحانية
مضيئة خطوطًا طويلة مجمدة بنفسجية
أشبه بممثلى الدراما الموغلة فى القدم ،
والأمواج دافعة بعيدا ارتعاشاتها المتوازية الشباكية .

حلمت بالليلة الخضراء ذات الثلوج المبهورة ،
بالقبل الصاعدة فى بطء إلى عيون البحار ،
وبجريان العصارات التى لم يسمع بها أحد ،
وباليقظة الصفراء الزرقاء للأضواء الفسفورية الصداحة .

واصطدمت ، لعمرى ، بفلوريدات عجيبة !
تمتزج بالزهور عيون فهود ، وبجلود بشرية
أقواس قزح ممتدة كأعنة
تحت آفاق البحار ، بقطعان خضراء .
شاهدت اختمار المستنقعات وشباك صيد هائلة

حيث يتعفن فى الخيزران
"لوثيان" بأكمله
ومساقط مياه وسط الهدوء السابق للعاصفة
جبالا جليدية ، وشموسا فضية ، وأمواجًا صدفية ، وسماوات جمرية .
جنوحات رهيبة فى قاع الخلجان السمراء
حيث الأفاعى العملاقة التى افترسها البق
تسقط أشجارا ملتفة (ملتوية) بعطور سوداء .

هذا ، وأنا سفينة سكرى تحت شعور الخلجان الصغيرة
يتقاذفها الإعصار عبر أثير لا طير فيه
أنا الذى قد لا تتمكن " المونيتورات " ولا سفن "الهانس"
من انتشال ألواحى السكرى بالماء .

حرًا ، مدخنا ، تغشانى ضبابات بنفسجية
أنا الذى كنت أشق السماء المحمرة كالجدار
أحمل ، كمربى رائعة للشعراء المجدين ،
طحالب شمس ، وذنانات لازوردية .

أنا الذى كنت أركض مرقوما بأهلة كهربائية
لوحًا مجنونا ، محروسا بجياد البحر السوداء

بينما اليوليولات تصدع بضربات المطارق
سماوات ماء وراء البحار كالأقماع .
لكنى حقيقة أسرفت فى البكاء . الأسحار مفجعة
كل قمر فظيع وكل شمس مرّه .
الحب اللاذع أفعمنى بأخدار مسكرة
أوه ! فلتنطلق سفينتى ! أوه ! فلأذهب إلى البحر .

لم يعد بمقدورى ، وقد علتنى طبقاتك أيتها الأمواج
أن أنزع عن حمالى الأقطان آثارهم
ولا أن أعبر كبرياء اللواءات واللهب
ولا أن أسبح تحت عيون الجسور العائمة الرهيبة .

(من ديوان «أشعار»)

(السفينة هى التى تتحدث . وهى عبارة عن صندل لنقل البضائع يسحبه الرجال أو الجياد . الشاعر يشبه السفينة وقد انطلقت بدون قائد ، بالإنسان الثمل الذى لا يستطيع السيطرة على نفسه أو قيادها . وهى تهبط النهر الذى يفضى بها إلى البحر الأوسع حيث تصبح لعبة تتقاذفها الأمواج .

ليس من المستبعد أن نرى في هذه القصيدة رمزًا للحياة الصاخبة الحافلة بالمغامرات التى ستنتهى بالشاعر إلى الموت . فقد كان (رامبو) معروفا بأنه يقرأ المستقبل ويستنطق المجهول ويسعى في طلبه ولا يتردد فى خوض أى مغامرة توصله إلى معرفته) .

جان تارديو (١٩٠٣ -   )

ولـد (جـان تارديو) عـام ١٩٠٢ فى بيت فنى بمعنى الكلمـة ، فـأبوه كان مصـورا وأمـه كانت موسيقية وكان كلاهما موهوبا فى فنه . كان أبوه ذائع الصيت بوصفه مصـورا ومـهندس ديكور . قام بتأسيس مدرسة الفنون الجميلة فى مدينة هانوى وظل هناك حتى نهاية حياته ، وكان جان تارديو معجبا بوالده مفتونا بإنتاجه الفنى .

كان (جـان تارديو) شديد التـأثر بوالـده المصور الذى علمه ، على حد تعبيره ، "الحقيقة الخفية لفن التصوير " .

أما الأم فقد كانت من أصل إيطالى ومن أسرة موسيقية . أصبحت أستاذة لآلة الهارب. ثم شغلت وظيفة كبرى فى معهد الكنسرفاتوار فى باريس . وهكذا عـاش (جـان تارديو) حـتى الرابعـة عشـرة من عـمره غارقا فى الموسيقى على حد تعبيره . وقد تعلم العزف على أكثر من آلة .

كان بمقدور (جـان تارديو) أن يتفـوق فى التصـوير مثل أبيه ، أو فى الموسيقى مثل أمه ، ولكنه فضل أن يختار ميدانا آخر يحتفظ فيه بشخصيته وتفرده . فكان أن اختـار الأدب، وبنوع خاص الشعر والمسرح ، فقد وجد فيه المجال الذى يحقق فيه ذاته ، وفى الوقت ذاته،

يتخلص به من الطغيان الفنى الذى كان يمارسه الوالدان . وفى ذلك يقول تارديو :

" كان لابد لى أن أبحث عن مجال ثالث يكون ميدانا لى أنا ، فوجدت أمامي اللغة والباب الثالث إلى المعجزة ، الملاذ الثالث ضد الرمادية والرتابة ".

وقد كتب (تارديو) الشعر فى سن المراهقة ، ولكنه لم يحاول أن ينشر منه شيئا قبل عام ١٩٣٣ ، حيث أصدر ديوانا بعنوان "النهر الخفى " ، ثم ديوانا آخر بعنوان " رؤى من المدينة " . ثم نشر ديوانا ثالثا بعنوان "الآلهة المختنقة " عام ١٩٤٦ ، وكان قبل ذلك قد كتب ديوانين آخرين .

القناع

شىء ثقيل من البرونز الأجوف
على شكل قناع ذى عينين مغلقتين
ينهض بطيئا وحيدا عاليا
شاهقا فى الصحراء الطنطانة

إلى ذلك الكوكب الأخضر ، ذلك الوجه
الذى يلزم الصمت منذ عشرة آلاف سنة
فأحلق إليه بلا عناء أو تعب
وأدنو منه بلا رهبة أو فزع
وأطرق بأصابعى المطوية
على الجبين الأصم والجفنين المنتفخين
فأفزع للرنين وأغتبط
إن روحى المخلدة تدوى هناك
فى الليل الساطع الصافى

أشعّى يا ظلمة ، أيتها البسمة ، أيتها الوحدة
لن أحاول فضح السر
بل سأظل فى ناحية الوجه . مع الوجه
مادمت أتكلم وأنا له نظير
ومع ذلك فما حول البهاء والجلال سوى الفراغ
سيل من بلور الصيف الليلى البراق .

(من ديوان «النهر الخفى»)

(على طريقة السرياليين مع " الاندهاش " ، يعتقد (جان تارديو) أن الأشياء الجامدة أيضا تثير الاندهاش . فهذه الجمادات ليست جمادات ميتة . إنها " تتظاهر بالموت " . إنها كالصخور عند (جوبليفيك) وكالغسالة عند (بونج) ، والسيارات عند (لوكليزيو) . شىء ما يبعث على القلق ، ويثير المخاوف يصرّف هذه الأشياء، ويبعث فيها الروح . إنها تشارك ، أسوة بسائر الكائنات الأخرى ، فى سر الوجود الكبير . ومن ثم كان تعامل (تارديو) مع هذه الجمادات ، بعين فاحصة متسائلة . هذه الأشياء تستعصى على الكلام

ولا تريد أن تعترف بسرها . العالم لا يريد أن يكشف عن خبيئة نفسه . إنه يتكلم بشفاه مطبقة، كما يقول (تارديو) فى باكورة أعماله (النهر الخفى) "أنا أتكلم بشفتين مطبقتين" . ولكن الشاعر هو الذى يسعى إلى استنطاق الأشياء ومعرفة أسرارها . إنه يسبق العلم ويمهد له) .

بول فيرلين (١٨٤٤ - ١٨٩٦)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " عند قدمى الرب " فى " حب المخلوق للخالق) .

فن الشعر

الموسيقى قبل كل شىء ،
ولذلك عليك باختيار المقطع الأحادى
فهو أكثر غموضا وأكثر ذوبانا فى الهواء
دون أن يكون فيه ما يثقل أو ما يعوق .

كذلك لاحظ ، فى اختيار ألفاظك
ألا يتم ذلك بدون شىء من العفويّة
فلا أعز ولا أغلى من القصيدة الرمادية
حيث الدقة والظن يلتقيان .

كعيون جميلة وراء خُمر
كرابعة نهار ترتجف
كالزرقة المضطربة المرصعة بالنجوم المضيئة
فى سماء خريف دافئ

لأننا أيضا نريد التفاوت
ليس اللون ، وإنما حسبنا التفاوت
أوه ! التفاوت وحده هو الذى يقرن
الحلم بالحلم والناى بالبوق

ثم تأتى الطرفة من بعيد
فتغتال الروح القاسية والضحكة الآثمة
مما يبكى عيون اللازورد
وكل متبّلات المطبخ الوضيع

واقبض على البلاغة والو عنقها !
وتُحسن صنعا ، لو أنك فى غمرة الحماسة
خفّفت من غلواء القافية
فإن لم نحتط لها ، فإلام تقود ؟

أوه ! ما أكثر مثالب القافية !
طفل أصم أو زنجى مجنون
يصوغ لنا هذه الحيلة الرخيصة
التى تطن ولا طحين .

مزيدا من الموسيقى وعلى الدوام
ليكن شعرك محلقا طائرا
ينطلق من روح متحررة
نحو سماوات آخر وحب جديد .

ليكن شعرك المغامرة الحقيقية
المنتشرة مع ريح الصباح المتوتر
الذى ينبت النعناع والزعتر
وكل ما عدا ذلك لغو وثرثرة .

(من ديوان «الماضى البعيد والماضى القريب»)

(هذه القصيدة مشهورة بين المبدعين من الشعراء ، وهى تحتل مكانة مهمة بين إنتاج بول فيرلين ، فهى تحدد جماليات الشاعر ، ورأيه فيما يختص بالفن الذى يمارسه. فقبل كل شىء ، الموسيقى ، والمقاطع الأحادية . ثم رفض كل ما فيه تأدب وحذلقة وبلاغة ، ثم العفوية فى اختيار الألفاظ . واستبعاد القافية تمامًا ، فهى تصنُّع وابتذال . وفيرلين هنا يندد بالفخامة والطنطنة

والمبالغات الرومانسية ، ويستبدل بها البساطة والعفوية والرقة . وكل ما عدا هذه الملاحظات التى أوردها ، فهو من باب الأدب أو التأدب بالمعنى السيئ للفظ ، أى اللغو والثرثرة ، التى تشعرنا بالافتعال والتصنع عند من يتخذون الكتابة مهنة وحرفة) .

أرتـور رامبـو (١٨٥٤ - ١٨٩١)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " السفينة السكرى " فى " حب المعرفة والعلـم ") .

الفجر

عانقت فجر الصيف .

ما كان شيء بعد يتحرك في مواجهة القصور . الماء كان ميتا . ومعسكرات الظلال لم تكن غادرت بعد طريق الغابة . أما أنا فقد مشيت أوقظ الأنفاس الحارة والفاترة . وتطلعت الأحجار الكريمة . وارتفعت الأجنحة بلا ضوضاء .

أول ما حدث ، في الدرب الذي كان قد غشيته أضواء ناضرة شاحبة ، كان زهرة عرّفتني باسمها .

وضحكت أنا للشلال المائي الأشقر الذي تفجر خلال أشجار الصنوبر : وفي القمة الفضية تعرفت الإلهة .

حينئذ رحت أرفع الخُمر واحداً واحداً . في الممر ملوحا بذراعيَّ . وعبر السهل حيث أخبرت الديك عنها . وفي المدينة الكبرى كانت تهرب بين الأجراس والقباب . وكنت أطاردها كالمتسول فوق الأرصفة المرمرية .

وفى أعلى الطريق ، بالقرب من غابة من أشجار الغار ، ضممتها بخُمرها المتراكمة ، وشعرت لحظة بجسدها الهائل . وهوى الفجر والطفل عند أسفل الغابة .

وعند الاستيقاظ ، كان الوقت ظهرا .

(من ديوان «إشراقات»)

(هذه القصيدة المنثورة تقدم لنا الفرصة للتعرف على تلقائية العمل الإبداعى فى خيال الشاعر . وهى تنطلق من تجربة عادية جدا يعرفها كل منا ، تتمثل فى نزهته صباحية يقوم بها شاب مغامر وحالم فى الوقت ذاته. ولكن الشاب هنا حالم لدرجة أن النص يدخل فى إطار عالم السحر ، وهو مغامر لدرجة أن نزهته تستحيل إلى نوع من الملحمة تنعكس فيها إرادته فى الغزو ورؤيته لمصيره الشخصى . والغزو هنا معرفى ، والرؤية لمصيره إبداع شاعر. وتبدأ النزهة ، كالتجربة الشعرية ، فى الليل البهيم ، وتخترق الريف والمدينة ، ثم الريف مرة أخرى . ويشاهد الشاعر طلوع النهار ، ويسقط من الإعياء ، ويروح فى نوم عميق فى الغابة ، لا يصحو منه إلا الظهر .

وخلال تجربته أو غزوته يحاول الشاعر أن يرفع الحجب ، حجب المجهول . وهو على شاكلة الإنسان البدائى ، يعتقد أن فى كل شىء روحًا تحركه ، ومن هنا كان تشخيصه للجمادات : " فالماء كان ميتا " " وتطلعت الأحجار الكريمة"، " وضحكت للشلال المائى " . ثم انتهى الحلم وتحول الحديث إلى ضمير الغائب : " وهوى الفجر والطفل عند سفح الغابة ") .

جيمس جونسون (١٨٧١-١٩٣٨)

ولد هذا الشاعر الزنجي في إحدى مدن ولاية فلوريدا الأمريكية ، وفيها كانت دراسته الابتدائية ثم التحق بجامعة أطلنطا . في عام ١٩٠٠م اشترك مع أخ له في كتابة قصيدة بعنوان: "فليرتفع كل صوت ويشدو" ، أصبحت فيما بعد بمثابة النشيد الوطني للزنوج الأمريكيين .

من بين أعماله المنشورة هذه الدواوين :

* خمسون عاما وقصائد أخرى - عام ١٩١٧م .
* مزامير الإله - عام ١٩٢٧م .
* يوم البعث - عام ١٩٣٠م .

لقي جيمس جونسون حتفه في حادث سيارة عام ١٩٣٨م ، وكان يعتبر من أوائل شعراء جيله من الزنوج الأمريكيين .

التعليم

حينما نشاهد زنجيا يذهب إلى الحقل منذ الصباح الباكر ،
يسوق بغلته من الصباح إلى المساء ،

يكدّ طول حياته من أجل لقمة العيش وحسب ،
ويموت من الشيخوخة والتعب ، لا يملك سوى قميصه ،

فاعلم أن الذنب يعود إلى غبائه ، مهما قال القائلون ،
وثق أن هذا الزنجى لا يحمل بين كتفيه إلا رأسا فارغا .

ألا ترى البيض جالسين فى مكاتبهم ؟
ألا تعلم أنهم يذهبون إليها فى نحو التاسعة ؟
وفى الرابعة ، تكون قد خلت منهم .

عملهم ينحصر فى تحرير بعض السطور .
ونساؤهم يجلسن إلى آلات الطباعة ،
كأنهن يعزفن على المعازف .

يا صغيرى ،
هؤلاء يعرفون الحساب ،
ويجيدون استخدام هذا القلم الصغير ،
ويحفظون عن ظهر قلب كتاب الهجاء .

تلك نتيجة التربية والتعليم ، وذلك ما يقود العالم ،
فإلى كتبك عد ، أيها الطفل الكسول !
عد إلى مكانك فى المدرسة .

(من نافلة القول أن نشير إلى فضل العلم والحض عليه ، وذكر أول آية نزلت من القرآن بهذا الخصوص ، والحديث الشريف الذى يشجع على طلب العلم ولو فى أقصى بلاد الدنيا ، وفضل مجلس العلم على عبادة سبعين عاما .

هذه الشواهد كلها وغيرها ، إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن طلب العلم ، والسعي إليه ، والتحريض عليه ، كلها أمور تدخل في صلب العقيدة والإيمان) .

بول كلوديل (١٨٦٨ - ١٩٥٥)

(بول كلوديل) علم من أعلام الأدب الفرنسي . كان يشعر منذ نعومة أظافره بنوع من التعطش الروحاني جعله يمارس الكتابة وهو في المرحلة الثانوية ، ولكنها الكتابة التي لا تروى ظمأه . أهم حدثين في حياته (في الحقيقة هو حدث مزدوج) كان لقاؤه بالشاعر رامبو الذي علّمه الرباط الوثيق بين حرية الفكر وحرية اللغة ، ثم العقيدة الدينية التي تملّكته فجأة ليلة رأس السنة في كاتدرائية السيدة العذراء . هذان الحدثان حوّلا حياته من النقيض إلى النقيض .

كتب مسرحيتين : الأولى بعنوان (الرأس الذهبي) والثانية بعنوان (المدينة) ، وذلك قبل أن يلتحق بالسلك السياسي الذي فتح له مجال التنقل بين عواصم العالم . وبذلك امتزج إنتاجه الأدبي بمجموعة من الأسفار ، وذلك طيلة أربعين عاما طوّف خلالها بالولايات المتحدة الأمريكية، والصين، وبراغ ، وفرانكفورت ، وهامبورج ، وريودى جانيرو ، وكوبنهاجن ، ثم عمل سفيرا في طوكيو ، وواشنطن ، وبروكسيل . تلك الأسفار المتكررة تفسر ما جعل إنتاجه يتخذ هيئة نوع من الجرد العالمي . فبعد بعض المحاولات الدرامية راح كلوديل يمزج بين البحوث الشعرية الفلسفية (معرفة الشرق) و (فن الشعر) بالمسرح (قسمة الظهيرة)

بالروائع الشعرية الأولى (خمس أغان كبرى) . فى تلك الأثناء ، وبتأثير من قراءة متعمقة للكتاب المقدس ، وللشاعرين (باندار) و (أشيل) ، تمكن (كلوديل) من التوصل إلى التعبير باستخدام نوعٍ من " الآيات " ظلت طريقته المفضلة فى الكتابة حتى آخر حياته . عبّر (كلوديل) عن قمة نضجه الإبداعى فى إنتاجه المسرحى ، وبنوع خاص ثلاثيته الشهيرة : (الرهينة) ، (الخبز القاسى) ، (الأب الذليل) ، ثم (بشارة مريم) و (الحذاء الذهبى) . ظل (كلوديل) بعد ذلك يكتب أعمالا دينية بنوع خاص .

فاز (كلوديل) عام ١٩٤٦ بعضوية المجمع اللغوى . وحينما توفى عام ١٩٦٨ وهو فى قمة مجده الأدبى ، أقيمت له جنازة رسمية .

ربات الشعر

أواه يا نفس ! إن القصيدة لا تصاغ من تلك الحروف
التى أغرسها كالمسامير ، وإنما من الفراغ الأبيض
الذى يبقى على الورق .
أواه يا نفس ! ينبغى ألا نصمم أى خطط !
أواه يا نفسى الجفول ،
يا نفسى البرية ، ينبغى أن نكون أحرارا ،
على أهبة الاستعداد للانطلاق ،
كأسراب العصافير الرقيقة الهائلة ، حينما يدوّى
نداء الخريف بلا أصوات .
أواه يا نفسى الجزعة ، شبيهة العقاب المضطرب !
كيف بالله نركّب بيتا من الشعر على
عُقابٍ لا يعرف حتى
كيف يبنى عشه ؟
فليكن شعرى طليقا من كل قيد كعقاب البحر

ينقض على ضخم السمك .
فلا نرى إلا دوامة براقة من الأجنحة ،
وزبدا يتفجر ، يتناثر .
ولكن لا تهجريني يا ربات الشعر الحانيات .
وأنت بالذات ، من بينهن جميعا ، يا " طاليا " ،
يا من لا تملين العطاء والإلهام ،
لن تظلي داخل خدرك ! بل تخرجين ،
كالصياد بين الزروع الخضراء
يقتفي أثر كلبه المدرَّب دون أن يراه وسط الكلأ .
كذلك تكون
الرعدة الخفيفة في عشب العالم ،
الرعدة الخفيفة ذات
العين المتأهبة
تدل على البحث الذي تباشرينه .

(من ديوان «الأغاني الخمس الكبرى»)

(ربات الشعر الملهمات يوحين إلى الشاعر بما لا يوحين به إلى غيره من البشر . يخصصنه ، كما يقول الباطنية ، بعلم الباطن . فيعرف كيف يقرأ " الفراغ الأبيض الذى يبقى على الورق " . وينطلق حراً " كعقاب البحر ينقض على ضخم السمك ، فلا نرى إلا دوامة براقة من الأجنحة وزبداً يتفجر ، يتناثر " وربة الشعر (طاليا) هى أقربهن للشاعر. وهى لا تبخل عليه بالعطاء والإلهام وتقوده فى طريق البحث والمعرفة) .

ألفريد دى فينْيى (١٧٩٧ - ١٨٦٣)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " موت الذئب " فى " حب الحياة ") .

العقل الصافى

(٧)

جميعهم (الأسلاف) ماتوا مخلفين أسماءهم بلا أكاليل ؛
ولكن فوق أسطوانة المجد الذهبية ، هذا هو المكتوب :
" هنا مرّ جنسان من أسلاف بلاد الغال (الأجداد)
آخرهم من
الأحياء يصعد الهيكل ويسجل اسمه
ليس فوق الكومة الفائمة الخاصة بالأسماء العقيمة ،
أسماء المتغطرسين السخفاء ، والأغنياء التافهين ،
ولكن على اللوحة البرّاقة الخاصة بكتب العقل والفكر .

(٨)

لقد جاء عصرك ، أيها العقل الصافى ، يا ملك الدنيا .
حينما فاجأنا جناحك اللازوردى فى جوف الليل ،
كانت الحرب الضالة ، آلهة عاداتنا وأعرافنا ،

تطغى على أجدادنا – أما اليوم ،
فإن " القلم "(*) ، " القلم العالمى " ، الذى لا يزول أحيانا ،
الذى تحفر به فى الحجر أو تخط به فوق الرمال
يمامة بمنقار نحاسى ! " روح قدس ظاهر للعيان "

(٩)

الحلقة الوحيدة والأخيرة من سلسلتين محطمتين ،
أبقى أنا – كما أدعم فى الأعالى ،
بين أساتذة هياكل بنات الشعر ،
" المثل الأعلى للشاعر " ولصفوة المفكرين .
ودوما ، ومن عصر لعصر ، أرى فرنسا
تتأمل لوحاتى وتلقى فوقها بالزهور .
يا ذرية فتية لحى يحبكم !
ملامحى لم تنمحى فى وجوهكم .
بمقدورى ، فى هذه المرآة ، أن أعرف نفسى بنفسى ؛
حكم جديد دائما لأعمالنا الماضية !

(*) فى الأصل " المكتوب
اختبر ديمومته فى عشرين عاما من الصمت "

يا أمواجًا من الأصدقاء الجدد !
أرجو أن تقودكم إليّ " أقداري " من عقدٍ لعقد
مهتمين بأعمالي ، وحسبي ذلك !

(الأقدار «العقل الصافي»)
الأبيات من ٤٣ إلى ٧٠)

(إذا كان المجد في الماضي يتحقق عن طريق الحروب ، حيث كانت : " الحروب الضالة ، آلهة عاداتنا وأعرافنا ، تطغى على أجدادنا " ، فإن اليوم ، عصر الشاعر ، لا يقيم وزنا لتلك الأسماء العقيمة " أسماء المتغطرسين السخفاء والأغنياء التافهين " بل هو يمجّد "العقل الصافي" الذي ينتج العلم والأدب والشعر .

لذلك ، فالشاعر مطمئن لأن الأجيال القادمة سوف تقرأ ما نظم من قصائد وتعجب بها ، وتذكر صاحبها ، وتوفيه حقه من التعظيم والثناء) .

ألفريد دى فينْيى (١٧٩٧ - ١٨٦٣)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " موت الذئب " فى " حب الحياة ") .

بيت الراعى

أيها الشعر ! أيها الكنز ! يا لؤلؤة الفكر !
إن اضطرابات القلب ، كاضطرابات البحر ،
ما كانت لتمنع رداءك المتفاوت
من أن يلتقط الألوان التى بها تتشكلين .
لكن ما إن يراك العامى الفظ
تتألقين على جبين ساطع ،
حتى يضطرب من ضوئك السحرى ويشحب ،
وينتابه الرعب ، فيشرع في السب واللعن (. . .)

أيها الشعر ، ويسخر من رموزك العظيمة ،
أنت يا حب المفكرين الحقيقيين الخالد !

كيف للأفكار العميقة أن تحفظ نفسها
دون أن تجمع نيرانها داخل ماستك الصافية ،

التى تحفظ بهاءاتها المكثفة ؟
هذه المرآة الدقيقة المتينة المتلألئة القوية ،
بقايا أمم بادت ، حجر خالد
نعثر عليه تحت أقدامنا حينما نبحث فى التراب
عن المدن دون أن نرى فيها جدارا واحداً .

ماسة ليس لها نظير ،
فلتضئ نيرانك الخطوات البطيئة المتأخرة
خطوات العقل الإنسانى !
ولكى يرى الراعى من بعيد الشعوب التى تسير
عليه أن يحفظك فى سطح داره .
النهار لم يطلع بعد -
لا نزال مع أول شعاع أبيض يسبق الغسق
ويرسم الأرض على حدود الأفق .

لكن إرادتنا تفيض بالحركة السريعة ،
علينا أن نفتح ترسانة إمكاناتها القوية بأكملها .
الخفى حقيقى . الأرواح لها عالمها
حيث تتراكم كنوز روحانية غير محسوسة .

الله يقبض على كل شيء في يديه الهائلتين ،
وكلمته هي مستودع ذكائنا ،
كما أن الفضاء هو مستودع أجسادنا
في هذه الحياة الدنيا .

(من ديوان «الأقدار»)

(إذا كان الشاعر قد خص الشاعر في قصيدة "العقل الصافي" بالمجد بوجه عام . فإنه هنا يفرد للشعر قصيدة يفصّل فيها أسباب ذلك المجد ، ويوضح كيف أن هذا المجد الذي يضيء جباه الشعراء يثير غيرة العامة والغواء ، ويفجر غيظهم ويصيبهم بالرعب .

ولكن هذا الوضع لا يثني الشاعر عن المضي في طريقه ، طريق الإبداع واستنطاق الأشياء وإخراج ما خفي من الكنوز الروحانية) .

(١١)

الحب ... نزوة

فيكتور هوجو (١٨٠٢ - ١٨٨٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة "ميلونكوليا" في "حب الخالق للمخلوق") .

نهاية إبليس

على حين فجأة ، رأى نفسه تنبت من بين جنبيه
أجنحة فظيعة ؛
رأى نفسه يتحول إلى وحش كاسر ،
وأن الملاك الذى كان بداخله يموت ،
وأحس المتمرد ببعض الضيق من ذلك .
وراح كتفه النورانى فى الماضى
يرتعد فى البرد الشنيع ، برد الجناحين الغشائيين ،
وجعل ذلك المارق ، وهو عاقد ذراعيه ،
ورافع جبينه ، كأنما يتضخم تحت وقع الإهانة ،
وهو وحيد فى هذه الأعماق التى يملؤها الخراب .
يتطلع بإمعان إلى مغارة السجن .
والدياجير تنتشر فى العدم بلا ضوضاء .
والظلمة الكثيفة على السماء الفاغرة ؛
محدثة فيما وراء آخر قمة شاهقة ،
شرخًا ذا ثلاث شعب فى هذا الزجاج الأسود ،

والشموس الثلاث تمزج إشعاعاتها الثلاثة .
وبعد معركة فى الآفاق العليا ،
كأنما عجلاتٌ ثلاث فى مركبة نارية تحطمت .
وخرجت الجبال الشاهقة من الضباب
كأنهن مقدمات سفن ثلاث .
وصاح إبليس قائلا : " إيه حسن ليكن !
ما زلت قادراً على أن أرى !
ستكون له السماء الزرقاء ،
وأنا ستكون لى السماء السوداء .
أيظن أننى سأذهب لكى أبكى على بابه ؟
أنا أبغضه . ثلاث شموس ، فيها الكفاية .
ماذا يهمنى ! أنا أبغض النهار ، وزرقة السماء ،
والنور ، والعطور" .
وفجأة أخذته الرعدة ، فلم يبق منها سوى واحدة .

(من مترادفات الحب ، الهوى . ولكن الهوى دائما ما يُقرن بالنفس ، النفس الأمارة بالسوء . ومن ثم فالهوى دائما ما يتصل بالنزوات التى لا رقيب عليها من العقل ولا ضابط.

(إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس) .

(أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) .

إذن هوى النفس ليس فيه مصلحة للنفس ، بل فيه مضرة لها ومفسدة . وقد يكون فى هوى النفس نوع من الكبر أو التكبر والغطرسة ، وهذه حال إبليس حينما رفض أن يسجد لآدم . فقد علل ذلك بأنه خير منه وأنه مخلوق من نار وآدم من تراب ، إذن فهو أفضل من آدم فى رأيه .

(أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) .

باعتبار أن النار مصدر للنور، بعكس الطين . فكان أن عاقبه الله بفقدان صفة النورانية والملائكية .

" وراح كتفه النورانى فى الماضى يرتعد فى برد الجناحين الغشائيين والدياجير تنتشر ، والظلمة الكثيفة تطبق على السماء " .

والطامة الكبرى بالنسبة لإبليس ومعصيته ، أنه أصر عليها، ولم يندم ، ولم يتب ، كما فعل آدم

الذى تاب الله عليه وهداه . فحينما غشت العالم الظلمة ، عقد ذراعيه ورفع حاجبيه صلفا وكبراً ، وصاح قائلا :

" إيه حسنا ، ليكن ، مازلت قادراً على أن أرى") .

دينى جارنو (١٩١٢ - ١٩٤٣)

(دينى جارنو) شاعر كندى يكتب باللغة الفرنسية . عاش حركة التطور الأدبى بعد الحرب العالمية الثانية . ولكنه لم يكن يؤيد الرفض الكلى للقديم بالرغم من معارضته المعلنة لجميع أشكال الضغوط الاجتماعية . ومع ذلك فقد كان متمسكا بأهداب الدين وما يفرضه ذلك من احترام للتقاليد الأصيلة والقيم الإيجابية المتوارثة .

والغريب أيضا فى أمر " جارنو " ، أنه بالرغم من نجاحه ، بل تألقه الأدبى ، فإنه آثر العزلة وفضل الانسحاب من الحياة العامة ليعتكف فى منزله بالريف ، ولعله وجد فى ذلك أمله فى " الفضاء " الشاسع حيث لا شيء يحد " النظرات المترامية " كما وجد فى الريف الملاذ والحصن ضد دوامة الحياة فى المدينة والمجتمع الحضرى .

وأخيرا فلعلّ " جارنو " كان قد استشعر قرب نهايته ، فآثر أن يلقى الموت فى هدوء الريف وصفاء الفضاء ، ذلك الموت الذى ظل ينتظره ويترقبه ليجد فيه الراحة الحقيقية والهدوء الأبدى .

ومما يجدر التنويه إليه ، أن " جارنو " ، وبخاصة فى أواخر أيامه كان ينأى بنفسه عن مشاغل الدنيا ويتعالى على الصغائر ويترفعُ عن كل

ما هو عادى مبتذل . وقد انعكس ذلك على أسلوبه فى الكتابة الذى بدأ يتخلص أيضا من هذه العيوب .

بالإضافة إلى اليوميات وبعـض المقـالات والبحوث ، فإن حصيلة ما خلّفه هذا الشاعر على المستوى الإبداعى هو ديـوانٌ واحد نشـره عام ١٩٣٧ بعنوان " نظرات وألعاب فى الفضـاء " . ثم ديوانٌ أخر نُشر بعد موته بعنوان " فنون الوحدة " .

غيابات الدوار

بعد غيابات الدوار القصوى
بعد هُوّات الانحدار الهائلة
والسموم النازغات الهادئة
فراشُك الواثقُ كالمقبرة
ذات يوم في الظهيرة
كان يفتح ذراعيه لجسدينا الواهنين على الشواطئ
كأنه البحر
بعدَ لهيب المداعبات
بعدَ جسدك عمودًا
واضحَ المعالم يابسًا
جسدى منصوبًا نهرًا ممتدًا صافيًا حتى حافة الماء

بيننا سعادةٌ لا تبلغها الكلمات
للمسافة الفاصلة
بعدَ الوضوح المرمرى

حركاتُ صراخنا الأولى
وفجأةً إذا بِدَفْق الدماء
ينهار فينا كطوفان
وَطْأةُ النارِ تنقضّ على قلبينا الضائعين
بعدَ النَّفَسِ الآخِرِ

والنارُ حَلّت فوق الأرض الظُّلْمَةُ
عقداتُ أذرعِنا لسفرٍ قاتل

عُرى عناقِنا تسقط من تلقاء أنفسها وتروح على غير هدى فوق المضجع ،
المضجعُ ينبسط الآن كصحراء
قد مات جميع السكان
أعيننا الشاحبة لم تصادف بعدُ شيئا
عيوننا التى فُقئت وهى بحدقاتِ رغبتنا
مع حبّنا الذاوى كظلٍّ لا يُطاقْ
ونحن نشعر بافتراقٍ كجدارِ صخرٍ مستحيل .

(من ديوان نظرات وألعاب فى الفضاء
مونتريال ١٩٣٧)

(كما هى الحال فى قصيدة " نهاية إبليس " حيث الحب النزوة حوّل إبليس من طبيعته الملائكية النورانية إلى الطبيعة الغشائية المظلمة، فإن انطفاء الشهوة هنا أعقبه ضعف ووهن ، بعد القوة . وخمدت النار وحلت فوق الأرض الظلمة بالنسبة للعاشقين المفلسين . لقد بلغا صحراء " الحب النزوة " . فبعد الفوران يحل الخمود ، ويأتى الغثيان ، والندم ، والحسرة، والإحساس بالموت وبالعدم . العيون الشاحبة ، والحدقات المفقودة ، وغير ذلك من توابع الشهوة المحرمة ، لا الحب ، لأن الحب " نور وبصيرة " ، أما الشهوة فهى "ظلام لا يطاق " . وهى بدلا من أن توحّد الشخصين (١ + ١ = ١) فهى تفصل بينهما وتقيم بينهما حاجزًا من " جدار صخرٍ مستحيل ") .

بيير دى رونسار (١٥٢٤ - ١٥٨٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " يوم شاعر " فى " حب المخلوق للخالق ") .

حين تصبحين عجوزًا

حينما تصبحين عجوزا ، وتجلسين فى المساء ، على ضوء الشموع ،
بجوار نار المدفأة ، تلفين الخيط وتغزلين ،
ستقولين وأنت تنشدين أشعارى وتعجبين :
"رونسار ، كان يشبب بى (يطرينى) حينما كنت جميلة"

حينئذ ، لن تكون لديك خادمة ،
تسمع هذا الخبر وهى تحت وطأة العمل بين النوم واليقظة ،
إلا وتهب مستيقظة لدى سماع اسم رونسار ،
تُبارك اسمك ذا الثناء الخالد .

سأكون تحت الثرى ، شبحًا بلا عظام ،
خالدا للراحة فى ظل أطياف السلام :
وأنت فى دارك عجوزًا شمطاء .

تندمين على حبى وازدرائك النفور .
عيشى حياتك ، صدقينى ، ولا تنتظرى يوم الغد :
اقطفى من اليوم زهرة العمر .

(من ديوان «طقاطيق لهيلانة»)

(اشتهر (رونسار) بقصائده التى يدعو فيها فتاته إلى الاستمتاع بربيع حياتها قبل أن تذوى زهرة الشباب ، فتندم على حبه لها وازدرائها له ، أو يعاجلها الموت ، وهو الذى كان يشبب بها حينما كانت جميلة) .

بيير دى رونسار (١٥٢٤ - ١٥٨٥)

(عن الشاعر ، انظر قصيدة " يوم شاعر " فى " حب المخلوق للخالق ") .

أرسل إليك باقة

أرسل إليك باقة انتقتها يداى
من بين هذه الزهور المتفتحة ؛
لو لم أقطفها هذا المساء ،
لسقطت غدا على الأرض .

هذا دليل لك واضح
على أن جمالك رغم نضارته ،
لن يلبث أن يسقط ذابلا
ويفنى على حين فجأة كمثل هذه الأزهار .

الزمن يمضى ، الزمن يمضى يا سيدتى ،
وا أسفاه ! الزمن ، كلا ، بل نحن نمضى ،
وسرعان ما سنوارى القبور .

والحب الذى نتحدث عنه ،
حينما نموت لن تكون له ذكرى ،
لذلك ، أحبينى وأنت لا تزالين جميلة .

(أبيات من ديوان «غراميات»)

(الموضوع نفسه : اقتناص فرصة الشباب للاستمتاع بالحياة ، و (رونسار) هنا يقدم دليلا ماديًا على نظريته : الزهور اليانعة التى يقدمها لحبيبته ، والتى إن لم يقطفها فى المساء ، لذبلت وسقطت على الأرض فى اليوم التالى) .

جان راسين (١٦٣٩ - ١٦٩٩)

يعد (جان راسين) بحق قمة المأساة (التراجيديا) الكلاسيكية ، بقواعدها وقوانينها المقررة . أولى مسرحياته (طيبة) حققت له معاشا من الدولة ، كما حققت مسرحيته الثانية (الإسكندر) نجاحا عظيما . توالت نجاحات (راسين) مع أولى روائعه (أندروماك) ثم (بريتانيكوس) و (بيرينيس) . اختير عضوا في مجمع الخالدين . وواصل تقديم مسرحياته (ميتريدات) و (إيفيجيني) ثم (فيدر) أروع ما كتب . ومنذ ذلك التاريخ (١٦٧٧) استقر عند العامة والخاصة نوع من العشق لـ (راسين) من دون كتّاب عصره . فقد صار ، بلا منازع، إله التراجيديا المعبود . وأصبح النموذج الأمثل لهذا الفن . أصبح (راسين) الكاتب الفرنسي الوحيد الذي يمكن أن يضارع عباقرة الكتاب في العصور القديمة . وأصبح "مجداً قومياً " تفخر به الأجيال . والحقيقة أن موهبة (راسين) لم يكن ينقصها شيء من صفات الكمال . فهو أستاذ في الذوق الرفيع ، ومحلل نفساني لا يباري ، ودراماتورج لا يشق له غبار . أسلوبه من نوع السهل الممتنع .

فيدر

اه ! أيتها الآلام التى لم يكابد مثلها غيرى .

" يا للعذاب الجديد الذى تدحرنى له الأيام

" إن كل ما كابدت من عذاب .وما ابتلانى من مخاوف وانفعالات .

" وسورة عواطفى وأهوال ندمى .

" وصدّه القاسى وما فيه من إهانة لا تحتمل .

" كل ذلك ما هو إلا اختبار يسير لما أكابد .

" يتبادلان حبا بحب ! بأى سحر خدعانى ؟

" كيف تلاقيا ؟ منذ متى ؟ وفى أى مكان ؟

" كنت تعرفين ذلك . فلماذا تركتنى فى غوايتى ؟

" ألم يكن بوسعك أن تطلعينى على غرامهما الدفين ؟

" هل شوهدا كثيرا يلتقيان ويتحادثان ؟

" هل كانا يتواريان فى أحضان الغابات ؟

" وا أسفاه ! لقد كانا يلتقيان فى حرية كاملة .

" وكانت السماء تبارك زفراتهما الطاهرة .

" كانا يتبادلان الغرام بضمير مطمئن

" وكانت سائر الأيام تشرق عليهما صافية رائقة .

" أما أنا ، حثالة العالم بأسره .

" فكنت أتوارى من النهار وأفر من النور .

" كان الموت هو الإله الوحيد الذى أستطيع أن أتضرع إليه

" كنت أترقب اللحظة التى أقضى فيها نحبى .

" أقتات المرارة وأشرب الدموع .

" ولما كانت العيون تراقبنى عن كثب

" كنت لا أقوى على التمادى فى إغراق نفسى بالدموع .

" كنت أذوق هذه المتعة المشئومة وأنا أرتعد خوفا .

" وكان علىّ دائما أن أمسك عن البكاء .

" حتى أستر هلعى تحت قناع من السكينة .

(فيدر ، الفصل الرابع ، المشهد السادس)

(لعل أبيات (راسين) تضعنا أمام أغرب لون من ألوان الحب ، بل أمام أبشع صنوف الحب المحرم ، حب المحارم . و (فيدر) تحب ابن زوجها وهو فى منزلة ابنها ، ولكنها لا تحبه حب

الأم لوليدها، بل حب المرأة للرجل ، فهى تشتهيه ، ويجنون . ويزيد من جنونهـا أن حـبـهـا الأثم ، المحرم ، يقابل بحب طاهر شريف يربط (إيبوليت) المعشوق البرىء ومحبوبته (أريسى) برباط وثيق . وهذا ما يضاعف عذاب (فيدر) . ولكننا نستشف حبا آخر لعله السبب الحقيقى للمأساة التى تمزق فيدر ؛ فحبها لـ (إيبوليت) ليس منفلتًا وإنما يقيده عذاب الضمير : إن (فيدر) تدرك بشاعة عاطفتها التى جعلتها " حثالة العالم بأسره " ، وجعلتها يتقطع وجهها خجلا وخزيا ، ودفعتها إلى التوارى من النهار والفرار من النور ، تجنبا للعيون . بل وتسعى للموت خوفا من الله ، وهو نوع من حب المخلوق للخالق . ولعلها تذكرنا ببعض القديسات) .

بوريس فيان (١٩٢٠ - ١٩٥٩)

لا نبالغ إذا قلنا إن " بوريس فيان " كان موسوعة من الفنون والمهارات والخبرات المختلفة. كما كان من ألمع نجوم الملاهى الباريسية . مارس شتى المهن لكسب لقمة العيش. حصل على بكالوريوس الهندسة ، لكنه عشق الموسيقى ومارسها عازفا ومؤلفا وناقدا . كما مارس الشعر إلقاءً وقرضًا وغناء . كتب القصة والمسرحية . وهو من كتاب الطليعة واللامعقول . كما عمل بالتمثيل فى السينما . بعد نجاح روايته التى أسماها "سأذهب لأبصق على قبورهم " حولها إلى مسرحية . ولعله ترجمها عن الأمريكية ، الأمر الذى أدى إلى اللجوء للقضاء . كما وجهت إليه تهمة خدش الحياء العام .

ترك الهندسة وانقطع للترجمة الإنجليزية التى نقل عنها عددا من الكتب . بعد ذلك عمل فى تنظيم سلسلة من السهرات الغنائية فى الملاهى الليلية ، كان يغنى فيها قصائد من تأليفه وتلحينه . كما اشتهر كعازف لموسيقى الجاز . ولم يلبث أن ضاق بهذا النشاط وقصره على بعض الجولات الفنية التى كان يلقى فيها قصائد من نظمه أو أغنيات من تأليفه، منها النص الذى بين أيدينا .

توقف " بوريس " عن كل نشاط فنى على أثر إصابته بمرض خطير فى الرئتين . وقد اختارته إحدى دور النشر ليكون مديرا فنيا لها . غير أنه استقال من هذا المنصب لسوء حالته الصحية .

لم يكن الأدب والفن بالنسبة " لبوريس فيان" سوى تسلية أو دعابة له ولأصدقائه .

توفى " بوريس فيان " فى الثالث والعشرين من يونيو سنة ١٩٥٩ وهو يشاهد عرضا خاصا لفيلم مأخوذ عن إحدى مسرحياته . والغريب أنه لم يكن مدعوا لهذه المشاهدة ، وإنما تسلل إلى داخل القاعة خفية دون أن يتنبه له أحد من المسئولين عن العرض .

بعد وفاته ، أصبح " بوريس فيان " رمزا للشباب المعاصر ، نهب القلق الذى يُخفى وراء النكتة والابتسامة ومرارة المعاناة وخيبة الأمل .

مرثية التقدم

فيما مضى ، حينما كان العاشق يتغزل بامرأة ،
كان يتحدث في الحب والغرام .
وبرهانا على حبه ومودته ،
كان يهدى قلبه لمحبوبته .

أما الآن ، فقد راح كل ذلك وانقضى ،
كل ذلك مضى وانقضى ،
فلكى يلاطف فتى العصر محبوبته
يهمس فى أذنها قائلا :
آه ! يا جو ، أعطنى قبلة
وأنا أعطيك ثلاجة ،
أو أعطيك غسالة ،
أو مكنسة ،
أو طباخ بوتاجاز ،

بالفرن وبالزجاج ،
أو طقم سفرة وشاى
مع ملاقط للحلوى والجاتوه
أو خلاط عصائر
أو شفاطة هواء للمطبخ
تزيل الروائح والأبخرة
أو مفارش للسرير
أو قوالب للفطير

أو طيارة بكرسيين
وسنكون سعيدين ، منعّمين .

فيما مضى إذا نشب فى البيت عراك
كنا ، معشر الرجال ، نذهب غاضبين
تاركين وراءنا كل الأوانى والصحون .
لكن الآن ، الحياة صارت باهظة
إذا غضب الرجل ، لا يذهب ولا يترك الصحون .
بل يقول لها : " اذهبى لبابا أو روحى لماما " .
آه يا جو ، سامحينى عفوا .

وإلا أستردُّ كل ما لى :
ثلاجتى
ودولاب أطباقى
والحوض " الاستانلستيل "
وطاسة القلية
أو . . . أو . . . أو . . .
أو مكواتى البخارية
أو كسارة البندق
أو طحانة الفستق .
وإذا الجميلة زمجرة وتبرمت
طُردت خارج البيت .
وصار اعتمادنا على الثلاجة
أو المكنسة الكهربائية
أو الطباخة الآلية
أو السرير الذى لم يمس
أو عصّارة الطماطم
أو . . . أو . . . أو . . .
ولكن سرعان ما تأتى بعدها
فتاة أصغرُ منها

تعرض علينا حبها
حينئذ نسارع بالتعاون
ونعيش على هذا النحو
إلى المرة القادمة .

(صورة للحب العصرى . فى المقدمة يتحسر الشاعر على الماضى الذى راح وانقضى نتيجة للتقدم المادى . وواضح ما فى المقدمة من معانٍ رومانسية تتمثل فى مشاعر الحب التى كان يكنّها العاشق فى الماضى لمحبوبته ، واستعداده لتقديم قلبه برهانا على الحب . وهو حينما كان يقدم قلبه ، لم يكن ينتظر مقابلا ماديا ، بل كان الحب للحب ، قلب بقلب .

أما بقية القصيدة فهى تنعى ذلك الماضى ، وتندد بالحاضر ، حيث صارت القضية قضية مقايضة مادية من الجانبين : قلبة فى مقابل ثلاجة، أو غسالة ، أو مكنسة كهربائية أو ... إلى آخر القائمة .

ذلك أيضا حب ، ولكنه حب الألداء . أو حب المضطرين ، أو إن شئت فقل هو حب المصلحة) .

المترجم فى سطور

حمادة إبراهيم

- رئيس قسم اللغة الفرنسية بمركز اللغات والترجمة بأكاديمية الفنون .
- رئيس لجنة الترجمة بالمهرجان العالمى للمسرح منذ ١٩٩١
- مؤلف وناقد مسرحى ومترجم .

من أهم الترجمات :

- الأعمال الكاملة للمسرحى الفرنسى (أوجين يونسكو) صدرت فى خمسة مجلدات فى الكويت تباعًا ، (من ١٩٧٣ حتى ١٩٨٨) . ثم أعيد طبعها فى هيئة الكتاب، وصدرت فى مجلدين ضخمين ، ١٩٩٨ ، ١٩٩٩ (٢٤ مسرحية) .
- الأعمال المسرحية الكاملة للمسرحى (ألفريد جارّى) رائد الفكر المعاصر ، صدرت فى الكويت فى ثلاثة أجزاء (١٩٩١ ، ١٩٩٢ ، ١٩٩٣) ، ثم أعيد طبعها فى هيئة الكتاب عام ٢٠٠٢

- مسرح الغرفة للمسرحى الفرنسى (جان تارديو) القاهرة ١٩٩٨
- كما شارك فى ترجمة ومراجعة موسوعة (وصف مصر) .
- بالإضافة إلى أكثر من عشرين عنوانًا آخر بين ترجمة ومراجعة .
- وقد نشر فى المشروع القومى للترجمة ثلاثة أعمال آخرها كتاب : "الإسلاميون الجزائريون" .

الإشراف اللغوى: حسام عبد العزيز
الإشراف الفنـــى: حســـن كامــــل



لحب موجود ولكننا لا نراه، وهو لا يستطيع أن يظهر لنا، لأنه مطمور تحت وابل الكراهية وأكداس المادة الطاغية، بحيث إنه يكاد يختنق ويغرق، ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

فهل نتعاون معًا لإنقاذ الحب؟ ففى إنقاذه إنقاذ للبشرية وإحياء لها، والله تعالى حينما خلق آدم، ثم حواء، ربط بينهما بالحب (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة). فالحب هو أول العواطف التى بثها الله فى الإنسان. صحيح أن قابيل لم يلبث أن اعتدى على أخيه وقتله ـ كان هذا باسم الحب أيضا ـ ولكنه الحب المذموم، الحب النزوة، الأنانية؛ فالحب فنون.

فى قصائد هذا الكتاب، التى تربو على المائة، مظهر أو اكثر من مظاهر الحب؛ قد يكون ظاهرًا، ولكنه فى أغلب الأحيان يحتاج إلى من يكشف عنه ويجلوه. وفى ذ
وفائدة معًا.

تصميم الغلاف: أمين الصيرفى

